

بوالأعلى المودودي

# الحجاب

دار الفكر بدمشق

تعريب  
محمد طاهر السباعي

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف  
الطبعة الثانية

١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م

# بسم الله الرحمن الرحيم

## المقدمة

الحمد لله ولله والصلاة على نبيه والسلام على كل هاد إلى سويته .  
وبعد ، فهذا كتاب ألفته قبل عشرين سنة تقريباً شرحاً لهدي  
الاسلام ونظامه لما بين الرجل والمرأة من العلاقة في الحياة الاجتماعية  
وتفنيدها لما قد راج بين المسلمين في هذا العصر من الآراء الباطلة والعادات  
السيئة والمناهج الموبقة في هذا الباب محاكاةً منهم لحضارة الغرب  
ومدنيته الزائفة .

قد مضى على تأليفي لهذا الكتاب عشرون سنة ، كما قلت آنفاً ، واني  
جد متأسف أن ما انهل عليّ في هذه المدة من الاعمال المهمة المتنوعة لم  
يترك لي المجال ، على رغم ودي ، لأراجع النظر في هذا الكتاب وأكمّله  
بمعنى أن أضم إليه ما جدد خلال السنوات الاخيرة من المعلومات عن أحوال  
الغرب وما جرياته وخاصة ما يتعلق منها بشؤون المرأة ، حتى يأتي اليوم

في طبعته العربية وإيضاً بالمقصود التام وسارداً للوقائع والامثلة متسلسلة من الاول إلى هذه الساعة . بيد أنه إذ لافرق - من حيث المبدأ على الأقل - بين ما بينت في هذا الكتاب من الاسس والمناهج للحياة الغربية وبين الاسس والمناهج التي تجري فيها اليوم ، وهي بذاتها سوى أن قد تجلى للدنيا اليوم من نتائج الوخيمة وثمراتها المسمومة ما كان خافياً على بعض الناس إلى الامس ، وأرجو أن يستطيع كل من له إلمام بأحوال الغرب وإطلاع على شؤون المرأة فيه ، إذا تابع البحث على نحو ماسقة في هذا الكتاب ، ان يستكمل الكتاب ويجعله متناولاً للموضوع إلى هذه الساعة بمعلوماته نفسه .

على أنني قد عالجت هذا الموضوع نفسه - موضوع الحياة الاجتماعية - في تفسيري لسورة النور ، فعلى من أراد التفصيل المزيد لأحكام الشريعة الاسلامية وتعاليمها في باب الحياة الاجتماعية ، أن يراجع ذلك التفسير ، فانه عسى أن يجد فيه من تفاصيلها ما قد لا يجده في هذا الكتاب ، وإني على ثقة من أنه إذا قرأ هذين الكتابين معا ، فانه قلما يحتاج إلى كتاب آخر لمعرفة أحكام الشريعة وتعاليمها في الحياة الاجتماعية .



الحقيقة أنني كنت منذ عدة سنوات ماضية أتمنى لو نقل إلى اللغة العربية كتابي « الحجاب » و « تفسير سورة النور » ، حتى أتمكن بهما



من إبلاغ رسائلي لإخواني أبناء البلاد العربية ، وذلك أني كنت أشعر  
 بواسطة الجرائد والمجلات التي كانت ترد علينا من مصر وغيرها من البلاد  
 العربية بأن المرأة في البلاد العربية قد بلغت من اعتدائها لحدود الشريعة  
 وانسياقها وراء تيار الحضارة الجديدة درجةً ربما لم تبلغها المرأة حتى في  
 بلادنا نحن ؛ فكنت لكل ذلك أجد في نفسي من القلق والاضطراب ما  
 قد طالما أقض عليّ مضجعي وأجرى الدموع من عيني . ثم انه لما قدّر  
 لي قبل عامين ونصف زيارة بعض البلاد العربية وهناك شاهدت بعيني  
 ما بلغه حقاً تبذل المرأة العربية المسلمة وتبجحها بالعري والفتنة وشدة  
 ولوعها باقتفاء آثار أختها الغربية ، ازدادت قلقاً واضطراباً أكثر من  
 ذي قبل .



اننا ، مسلمي باكستان والهند ، مازلنا نوزح تحت نير الاستعمار  
 البريطاني طيلة مدة ١٩٠ سنة متوالية <sup>(١)</sup> . ففي جانب اشتدت علينا وطأة  
 الاستعمار وضغطه واضطهاده إلى هذا الحد ، وفي الجانب الآخر كان ،  
 ولا يزال ، ٩٩٪ - ان لم نقل أكثر - من أفرادنا على جهل تام باللغة التي  
 بها نزل القرآن والسنة ، وما لديهم من وسيلة للارتواء من منهلها الصافي بصفة  
 مباشرة ، حتى ان الذين يمكن القول عنهم أن لهم نظرة في علوم القرآن

---

(١) بدأ استيلاء الانكليز علينا سنة ١٧٥٧ م ولم تحرر من سلطتهم  
 السياسية إلا سنة ١٩٤٧ م .

والسنة ، لا يتمكنون من قراءة القرآن بلغته وفهم أحكام الرسول ﷺ بالفاظه إلا بعد أن يتفقوا جزءاً غير يسير من مفي حياتهم في تعلم اللغة العربية . ولكن بالرغم من هاتين الظاهرتين فإن حضارة أهل الغرب ومدنيتهم لم تغفل في بلادنا ولم تؤثر في حياتنا مثل ما قد تغفلت في بلاد العرب وأثرت في حياتهم في مدة لاتكاد تذكر بالنسبة لامتداد وطأة الاستعمار علينا ، وخاصة أن النساء في بلدنا ، وإن كنا دائماً نسكب الدموع على انجرافهن في تيار الحضارة الغربية ، فانهن على جملة علاتهن ومساوئهن يرأن بأنفسهن أن يرتدين الملابس الافرنجية حتى أن اللاتي يرتدينها منهن من الممكن أن نعهن على الانامل ، وقلمنا توجد واحدة من ألف امرأة تتبرج في الطرق والاسواق وتعرض الرجال وجسدها مكشوف فوق كعبها أو يداها مكشوفتان إلى منكبيها ، وإنني والله كثيرأ ما أمائل نفسي أن اخواننا العرب الذين قد شرفهم الله تعالى ببعثة رسوله فيهم ومنهم ، والذين لغتهم لغة القرآن والسنة ، والذين لا يعوقهم شيء عن معرفة أحكام الله ورسوله في كل شأن من شؤون حياتهم إذا شاؤوا ، ماذا عساهم يؤولون به رواج الملابس الافرنجية البحتة في نسائهم وتدرجن في الاسواق والاندية والحجامع ، بل وسواحل البحار ومسابح الملاهي كاسيات كعاريات ؟ نعم ، إنني لا أنكر ما بين العلماء من الخلاف حول جواز كشف المرأة وجهها لغير محارمها ولا ألزم غيري أن لا يرى في هذه المسألة غير رأيي ولكن . . . ياليت شعري ما هو الدليل على جواز كشف المرأة ساقها إلى الركبتين ويديها إلى المنكبين وجزءاً عظيماً من

صدرها وظهرها وخصرتها ثم تجوالها - هكذا - في الطرق والاسواق  
تعرض للرجال وتفشى الاندية والمجامع المختلطة وتبرز مفاتها في كل واد  
بكامل زينتها ؟ وأما ان كانت الحقيقة أن لا دليل على جواز كل ذلك ولا  
تأويل له ، فقل لي بالله أليس هو بخروج سافر على الشريعة الإلهية  
وامتهزاء علي بأحكامها يرتكب اليوم في بلاد العرب - اسرة النبي  
وقبيلته - على مرأى ومسمع من علمائهم وكتابهم وقادة الرأي والفكر  
منهم ! ولا أدري - والله - ماذا توقع القوم أن يبرثوا به ذمتهم في محكة  
الله العليم الخبير يوم القيامة ؟.

والله نسأل أن يتقبل منا هذه الجهود المتواضعة بقبول حسن ويجعل  
نياتنا وأعمالنا كلها خالصة لوجهه الكريم . وآخر دعوانا أن الحمد لله  
رب العالمين .

أبو الأعلى المودودي



## ماهي المسألة

من مسائل التمدن البشري المعقّدة وأعظمها خطورة وإعضالاً ، مسألان يتوقّف على حلّهما المستقيم المتزن رقي الانسانية وسعادتها . وقد حار العلماء في إيجاد حلٍ لهما منذ قديم الزمان ، ولا يزالون حائرين في شأنهما إلى اليوم . أما المسألان ، فأولاهما صلة ما بين الرجل والمرأة وكيفية توطيدها في الحياة الاجتماعية ، فإن هذه العلاقة أساس التمدن وملاك أمره ، وإن اعوجّ هذا الأساس أو مال عن الاستقامة قليلاً ، فلا خير في بناء التمدن الذي ينهض على هذا الأساس المعوج . والمسألة الثانية تعلّق بما بين الفرد والجماعة من العلاقة . فانه إذا حدث شيء يخل بالانتران والتناسق المنشود فيما بينها من الأواصر والصلات ، بقيت الانسانية تتجرّع مرارته وتذوق وباله قروناً متعاقبة .

ففي جانب هاتان المسألتان وخطورتها ، وفي جانب آخر إنهما قد بلغتا من التعقّد والإعضال أن لا يقدر على حلّهما إلا من أوتي نظرة ثاقبة في حقائق الفطرة البشرية بأسرها ، محيطة بجوانبها . ولقد صدق من قال : إن الانسان علم أصغر في حد ذاته فهذه بنيته وهيئة نفسه وقواه ومواهبه

ورغباته وحاجاته، وكذلك عواطفه ومشاعره وعلاقته بما وراء شخصه من ألوف الأدوات والأشياء وتأثيره فيها وتأثره بها . . . هذه كلها تحتضن عالمًا بنفسه لا تنتهي عجائبه ولا يدرك كُنْهه بسهولة . فلا يمكن أحداً أن يدرك حقيقة الانسان ويعرف سرّه إلا إذا تبين وتوضّح أمام عينيه كل جانب من هذا العالم الأصغر . ومن الظاهر البين أنه لا يمكن إيجاد حل أو حلول لمسائل الحياة البشرية الأساسية إلا بعد أن يدرك كنه الانسان وتُعرف حقيقته معرفة تامة .

وهذه هي المعضلة التي ما زالت ولا تزال تكلّ عنها جهودُ العقل والحكمة كلها وتُظهر عجزها عن استجلاء وجه الحقيقة منها . وذلك أن الانسان لم يدرك بعد حقائق العالم كلها ، ولم يبلغ علم من العلوم البشرية غايته من النضج والكمال حتى يصحّ القول بأنه قد أحاط بجميع الحقائق التي تتعلّق بموضوعه وتشمي إليه . زد على ذلك أن الحقائق التي قد ظهرت وبرزت للعين . تبلغ من الدقّة والسعة والعمق أن لا يمكن أن يحيط بها بشر ، بل طائفة من البشر في آن واحد . فإن لاح منها جانب ، بقي الجانب الآخر مخفياً عن الأنظار ، فتارةً لا تكاد العين المبصرة تنفذ إلى أعماقها وطوراً تصبح الميول الشخصية حجاباً دون إدراك الحقيقة . ولهذا المعجز المضاعف تحفّق جميع الحيل والتدابير التي يختارها الانسان نفسه لحلّ هاتيك المسائل في حياته ، وتُظهر التجارب نقصها في آخر الأمر . والحل الصحيح لا يمكن إيجاده إلا بعد ما يدرك

المرء نقطة الاعتدال التي تستقيم بها الأمور . ونقطة الاعتدال هذه لا يمكن إدراكها إلا بعد أن تكون جميع نواحي الحقائق المعلومة على الأقل - إن لم نقل الحقائق كلها - معروضة على الأنظار . مرتبة على نسق واحد . ولكن قل لي بالله ، من أين لك هذه النقطة الوسط إذا كانت سعة الآفاق والمناظر في درجة لا تقدر أن تحيط بها الابصار البشرية ، ثم إذا كان لرغبات النفس ونوازعها وعواطفها وميولها من التأثير البالغ في تفكير الانسان ما يصرف بصره عن الحقائق الماثلة للعيان ؟ إن كل حل يوجد في مثل هذه الحال لابد أن يتسم بإفراط أو تفريط .

بين يدينا الآن المسألة الأولى من المسألتين اللتين تقدم ذكرهما ، وهي وحدها مناط بحثنا في هذا الكتاب فإذا راجعنا بطون التاريخ الغابر واستنطقنا صفحاته بهذا الشأن ، وجدنا الأمر في غلبة من العجب .. رأينا سلسلة من الإفراط والتفريط جارية في جميع أدوار التاريخ وبين الأهم كلها . ففي جانب نرى أن المرأة التي تلد الرجل وترضعه وتربيته وهي أم ؛ وتكون شريكته في الحياة تشاطره البؤس والرخاء وهي زوج ؛ قد اتخذوها خادماً بل أمة ، تباع وتشتري محرومة من جميع حقوق الإرث والملك ، وزعموا أنها مجموعة من الذل والإثم . فلا بدعوت شخصيتها ومواهبها فرصة للنمو والارتقاء . وفي جانب آخر نرى أن تلك المرأة نفسها قد عظموها تعظيماً وأكبروا من شأنها إكباراً تتبعه موجة عنيفة من فوضى الاخلاق وانحطاط الآداب ، فيتخذها الرجال مطية لأهوائهم ويجعلون منها حباله الشيطان في واقع الامر . وهنالك

تأخذ الانسانية في التردّي والهبوط كلّها تدرجت المرأة في الترقّي والظهور في هذه الجهة .

وهذان الطرفان المتناقضان لا نسمّيهما بطرفي الإفراط والتفريط في لغة النظريات لحسب ، بل إن التجارب إذ جمعت لنا نتائجها الوخيمة وعرضتها مجتمعة على أنظارنا ، فاننا نسمّي أحدهما الطرفين بالإفراط والآخر بالتفريط في لغة الأخلاق أيضاً . والسياق التاريخي الذي قد أشرنا إليه آنفاً يدلّنا كذلك على أن أمة من الأمم حينما تخرج من ظلمات الجبل والهمجية وتتقدّم إلى ميدان المدنية والحضارة ، ترافق رجالها نساءهم كالخدم والاماء ، ولا يعوقها ذلك عن الرقي والتقدّم في حلبة التمدن في أول الأمر ، لما فيها من قوى البداوة الفطرية الفعّالة . ولكنها تشعر بعد أن تقطع مرحلة من مراحل الرقي المدني أنها لا يمكنها التقدّم إلى الأمام وشطر كمال من كيانها في مثل هذا الانحطاط والتقهقر . فتشعر بعقبة في سبيل رقيها المدني وتُحسّ بمسيس الحاجة إلى إعداد هذا الشطر الثاني من بنيتها لمسيرة شطرها الفعّال في ركب الحضارة ، والنهوض بأعباء التمدن . ولكنها إذا أرادت أن تتدارك ما فاتها من العناية بهذيب المرأة وثقيفها ، لا تقف عند حد ، بل تمضي في هذه الجهة تتقدّم وتتخطّى كل الحدود ، حتى تنجرّ حرية المرأة إلى انهيار نظام الأسرة - الذي هو أساس التمدّن - وينفجر بركان من الفحشاء والفجور ، لاختلاط الرجال بالنساء وتكاثر الخلاعة والاستهتار بآتيان بنيان الأمة الخلق من القواعد . ولا جرم أن يتبع هذا التدهور الخلق الانحطاط

والتقهقرُ في القوى الجسدية والمواهب الفكرية والمادية . والأمة إذا وصلت إلى مثل هذا الانحطاط في نواحي الحياة كلها، فمصيرها إلى الهلاك والافتقار لا محالة .

ومن دواعي الأسف أن المقام لا يتسع لضرب الأمثلة الكافية من ما جريات التاريخ ، إلا أنه لا بد من عرض بضعة أمثلة لإيضاح المسألة وشرحها .

### اليونان

أرقى الأمم القديمة حضارةً وأزهرها تمدناً في التاريخ هم أهل اليونان . وفي عصرهم البدائي كانت المرأة في غاية من الانحطاط وسوء الحال من حيث نظرية الاخلاق والحقوق القانونية والسلوك الاجتماعي جميعاً . فلم تكن لها في مجتمعهم منزلة أو مقام كريم . وكانت الأساطير ( mythology ) اليونانية قد اتخذت امرأة خيالية تُسمى « باندورا » ( Pandora ) ينبوعَ جميع آلام الانسان ومصائبه، كما جعلت الأساطير اليهودية حواء : العين التي تنشق منها جداول الآلام والشدائد . وغير خاف على أحد ما كان لهذه الاسطورة اليهودية الشنيعة عن حواء من تأثير عظيم في سلوك الأمم اليهودية والمسيحية قبل المرأة ، وما كان لها من مفعول قوي في حقول القانون والاخلاق والاجتماع عند هؤلاء الشعوب وكذلك أو دونه بقليل كان تأثير الاسطورة اليونانية عن



(باندورا) في عقولهم وأذهانهم . فلم تكن المرأة عندهم إلا خلقاً من الدرك الأسفل ، في غاية من المهانة والذلّ في كل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية . وأما منازل العزّ والكرامة في المجتمع ، فكانت كلها مختصة بالرجل .

وبقي هذا السلوك قبل المرأة في أول عهد النهضة المدنية ثابتاً على حاله ، ربما تخلّصت تعديلات قليلة . فانه كان من تأثير ذبوع العلم وانتشار أنوار الحضارة أن ارتفعت مكانة المرأة في المجتمع وأصبحت أحسن حالاً وأرفع منزلةً من ذي قبل ، وإن بقيت منزلتها القانونية على حالها لم تتبدّل . فهي أصبحت ربّة البيت ، منحصرة واجباتها في حدوده ، وأصبح لها في داخله سلطة ونفوذ تامّ . وكانت عفافها وتصوّتها من أغلى وأنفس ما يملك ، وبما يُنظر إليه بعين التقدير والتعظيم . وأيضاً كان الحجاب شائعاً في البيوتات العالية . فكانوا يبنون بيوتهم على قسمين : قسم للنساء وآخر الرجال . وما كان نسوتهم يشاركن في المجالس والأندية المختلطة ولا يبرزن في الأماكن العامة . وكان يُعدّ زواج المرأة وملازمتها لزوجها دون غيره من أمارات النجابة والشرف . ولأمثالها كانت الحرمة والمنزلة في المجتمع . وبالعكس من ذلك كانوا ينظرون إلى حياة المهر والدعارة نظرة كره وازدراء .. هذا في عصر كانت الأمة اليونانية فيه في إبان مجدها وعنفوان شبابها وقوتها ، وكانت تنمو صُعُداً إلى الرقيّ والكمال . ولا ريب أنه كانت توجد عندهم مفاصل خلقية في ذلك العصر

إلا أنها كانت منحصرة في نطاق محدود . وذلك أن الرجال لم يكونوا يطالبون بمثل من العفاف وطهارة الاخلاق وزكاه السجية كانت تطالب بها المرأة وتواخذ عليها ، بل كانوا يستمتنون من التخلُّق بتلك الاخلاق الحسنة ، ولم يكن من المتوقع منهم أن يعيشوا عيشة ذوي العفاف والحشمة . ومن أجل ذلك كانت المواسم جزءاً من صميم المجتمع اليوناني لا ينفك عنه أبداً ، ولا يُعاب المرء إذا عاش رهن وخادهن .

ثم جعلت الشهوات النفسية تتغلب على أهل اليونان ويجرف بهم تيار الفرائز البهيمية والأهواء الجاحمة ، فتبوات العاهرات والموسمات مكانة عالية في المجتمع لا نظير لها في تاريخ البشرية كله ، وأصبحت بيوت العاهرات مركزاً يؤمه سائر طبقات المجتمع ، ومرجماً يلجأ إليه الأدباء والشعراء والفلاسفة . فكانت شمساً في سماء العلم والأدب يدور حولها كواكب الفلسفة والأدب والشعر والتاريخ وما عداها من الفنون . . . بل أصبحن القطب الذي تدور حوله رحي الأمة اليونانية فما كنَّ يرأسن أندية العلم ومجالس الأدب فحسب بل كانت المشاكل السياسية أيضاً تُحلُّ عقدها وتفكُّ معضلاتها بحضرتهم وتحت إشرافهم . وقد بلغ بهم النعسف في هذا الشأن أن كانوا يرجعون في المسائل الرئيسية التي تعلو بها أمة وتسفل وتحبى لها وتموت ، إلى المرأة التي ربما لا ترضى أن تعاشر رجلاً بمينه أكثر من ليلة أوليلتين . ثم زاد أهل اليونان جهم للجهال وتذوُّفهم المفرط له تمادياً في النفي وارتطاماً في حمأة الرذائل ، وأضرم في قلوبهم ناراً للشهوات لا تخمد فالتأهيل - نماذج الفن العارية - التي كانوا

يُظهرون بها وبالاقتنان في صنْعها وإتقانها ذوقهم هذا، كانت هي التي تحرّك فيهم الشهوات دَوْماً وتعدّ في غرائزهم الهيمية. ولا يخطر لهم ببال أن الاستسلام للشهوات شيء ذميم في قانون الأخلاق والاندفاع وراء تيار الاهواء عار وهجنة. وتبدّلت مقاييس الأخلاق عندهم إلى حدّ جعل كبار فلاسفتهم وعلماء الأخلاق عندهم لا يرون في الزنى وارتكاب الفحشاء غشاضة يُلَام عليها المرء ويُعاب. وأصبح عامّتهم ينظرون إلى عقد الزواج نظرة من لا يهتمّ به ولا يرى إليه من حاجة. فلما يرون بأساً بأن يعاشر الرجل المرأة ويخادنها علناً من غير عقد ولا نكاح فكانت النتيجة أن خصعت لأخلاقهم وغرائزهم الشهوانية هذه ديانتهم أيضاً، وانتشرت فيهم عبادة افروديت (Aphrodite) التي كان من قصتها عندهم في الاساطير (Mythology) أنها خادنت ثلاثة آلهة مع كونها زوجة إله خاص. وأيضاً كان من أخدانها رجل من عامة البشر علاوة على تلك الآلهة. ومن بطنها تولّد كيوبيد (Kupid) إله الحب، نتيجة اتّصالها بذلك الخدن البشري. وما رأيك في أخلاق أمة وانحطاطها المعنوي والخلقي اتّخذت من هذه الطباع (Character) رمزاً لاكمال بل إلهاً يُعبد. ويقدم له جميع آداب العبودية والذل والخنوع؟ هذه، ولاريب، درجة من الانحطاط الخلقي إذا تردت فيها أمة، لم تتمكن من النهوض مرة أخرى. وفي مثل هذا العصر البالغ من الانحطاط أسفّله ظهرت في الهند (بام مارك) وفي إيران (المزدكية). وأيضاً في مثل هذا العصر نفسه أصبحت الفحشاء والدعارة يُنظر إليها بعين التقديس والإجلال في (بابل)

فلم تمض على ذلك عشية أو ضُحّاها حتى آل أمرها إلى الاتقراض، وأصبح أمرها من خبر كان وأمس الدابر. ولما انتشرت عبادة افروديت في اليونان، أصبحت مواخير الدعارة وأماكن الفجور مركزاً للعبادة وأصبحت المومسات متنسكاتٍ وخوادم للمعابد. وعظُم شأن الزنى إلى أن ألبسوه كساءً من العمل الديني المبرور.

ثم ظهرت الغريزة البهيمية في أهل اليونان بظهر آخر، هو أن انتشرت فيهم سَوءة قوم لوط انتشاراً كاد يأتي على الأخضر واليابس، ورحبت بها الديانة والأخلاق أيضاً. ومما هو حريّ بالذكر أننا لا نرى لهذه السَوءة المنكرة أثراً في عصر هو ميروس وهسيود، ولكنه لما ترقّت المدينة وأخذت في تزيين العري واتباع الشهوات بالاسماء الجذابة كالفن وتذوّق الجمال ( Aesthatic Taste ) التهب الفرائز الشهوانية في القوم التهاباً جعلهم يتسكبون الطريق الفكري، ويتخذون لإرواء غليل شهواتهم طريقاً تأباه الفطرة وتمجّه الطباع السليمة. وساء عدم على ذلك حُذّاق الفن بإبراز هذه العاطفة في التماثيل. وشهد علماء الاخلاق عندهم بأن هذه ( العلاقة ) آصرة للصدقة وثيقة بين الرجلين. واليونانيان اللذان هما أول من عظمتهم الامّة وأكرمهم ببناء تماثيلهم هما: هرموديس وارستوجيتن اللذان جمع بينهما ذلك الحب المنكر الذي تأباه الفطرة البشرية.

وبعد، فالتاريخ شاهد بأن أن اليونان لم يكن من نصيبهم المحيد والرقى بعد ذلك مرة أخرى.

## الرومان

والذين تسنمو ذروة المجد والرقى في العالم بمد اليونانيين، هم الرومان. وفي هذه الامّة أيضاً نرى تلك السلسلة من الصعود والهبوط التي قد شاهدناها في اليونان حينما خرج الرومان من عصر الوحشية وظلمة الجهل، وظهروا على مسرح التاريخ لأول مرة، كان الرجل رب الاسرة في مجتمعهم، له حقوق الملك كاملة على أهله وأولاده، بل بلغ من سلطته في هذا الشأن ان كان يجوز له حتى قتل زوجه في بعض الاحيان.

ولما تخففت فيهم سؤرة الوحشية وتقدموا خطوات في سبيل المدنية والحضارة، تخففت القسوة في تلك السلطة وجعلت الكفة تميل الى الاستواء والاعتدال شيئاً فشيئاً، وإن بقي نظام الاسرة القديم ثابتاً على حاله. وهؤلاء لم يكن الحجاب عندهم معمولاً به - كالليونان - في إبان مجدهم الجمهورية الرومانية ورفقها. لكنهم كانوا قيدوا النساء والشباب عامة بقيود مثقلة من نظام الاسرة. فالمغاف كان شيئاً يُنظر اليه بعين الإجلال ولا سيما في شأن النساء، وكان يعدّ مقياساً للشرف وكرم المحتد. وكذلك كان مستوى الاخلاق عندهم عالياً. ومن أمثال ذلك أن اتفق ذات مرة أن عضواً في مجلس الشيوخ قبل زواجه أمام ابنته. فغضب عليه القوم وحكوا على صنيعه بأنه غص من كرامة الخلق القومي وإهانة له وأمضوا قرار التكبير (Vote of Censure) عليه في مجلس الشيوخ. هذا وما كان مباحاً عندهم ولا مرضياً في أخلاقهم أن يتعاشر الرجل والمرأة بدون

عقد مشروع . وما كانت المرأة تتبوأ مكانة العز والكرامة في المجتمع إلا بأن تكون أماً لأسرة ( Matron ) . والمومسات ، وإن كانت طبقتهن موجودة وكان للرجال نوع من الحرية في مخادتهن ، إلا أن عامة الرومان وجمهورهم كانوا يزدرونهن وينظرون اليهن نظرة احتقار وتعمير . وكذلك ما كانوا ينظرون بعين الاستحسان إلى الرجال المخادنين لهن .

ثم أخذت نظرية الرومان في النساء تتبدل برقيهم وتقلبهم في منازل المدنية والحضارة . وما زال هذا التبدل يطرأ على نظمهم وقوانينهم المتعلقة بالأسرة وعقد الزواج والطلاق ، إلى أن انقلب الامر ظهراً لبطن ، وانعكست الحال رأساً على عقب فلم يبق لعقد الزواج عندهم معنى سوى أنه عقد مدني Civil Contract فحسب ، يتوقف بقاؤه ومضيه على رضا المتعاقدين ، وأصبحوا لا يهتمون بتبعات العلاقة الزوجية إلا قليلاً . ومنحت المرأة جميع حقوق الارث والملك وجعلها القانون حرة طليقة لا سلطة عليها للأب ولا للزوج . ولم تصبح الرومانيات مستقلات بشؤون معاشهن فحسب ، بل دخل في حوزة ملكهن وسلطانهن جزء عظيم من الثراء القومي على مسير الأيام . فكان يقرضن أزواجهن بأسعار الربا الفاحشة ، مما يعود به أزواج المثرىات من النساء عبيداً لهن في ميادين العمل والواقع . ثم سهلوا من أمر الطلاق تسهيلاً جعله شيئاً عادياً يلجأ إليه لأتفه الأسباب . فهذا ( مينكا ) الفيلسوف الروماني الشهير ( ٤ ق.م - ٥٦ م ) يندب كثرة الطلاق ويشكو تفاقم خطبه بين بني جلدته ، فيقول : « انه لم يعد الطلاق اليوم شيئاً يندم عليه أو يستحيا منه في بلاد الرومان . وقد بلغ من كثرته

وذبيوع أمره أن جعلت النساء بعدد أعمارهن بأعداد أزواجهن . ،  
 وكانت المرأة الواحدة تتزوج رجلاً بعد آخر وتمضي في ذلك من غير  
 حياء . وقد ذكر مارشل ( ٤٣ - ١٠٤ م ) امرأة تزوجت عشرة رجال  
 وكذلك كتب جوينيل ( ٦٠ - ١٤٠ م ) عن امرأة تقلبت في أحضان  
 ثمانية أزواج في خمس سنوات . وأعجب من كل ذلك وأغرب  
 ما ذكره القديس جروم ( ٣٤٠ - ٤٢٠ م ) عن  
 امرأة تزوجت في المرة الأخيرة الثالث والعشرين من أزواجها وكانت  
 هي أيضاً الزوجة الحادية والعشرين لبعليها .

ثم بدأت تتغير نظرتهم إلى العلاقات والروابط القائمة بين الرجل  
 والمرأة من غير عقد مشروع . وقد بلغ بهم التطرف في آخر الأمر أن  
 جعل كبار علماء الأخلاق منهم يمدون الزنى شيئاً عادياً . فهذا كاتو  
 Cato الذي أسندت إليه الحسبة الخلقية سنة ١٨٤ قبل الميلاد ، يجهر  
 بجواز اقتراف الفحشاء في عصر الشباب . وذاك شيشرون Cicerone المصلح  
 الشهير يرى عدم تقييد الشبان بأغلال الأخلاق المثقلة ويشير باطلاق العنان  
 لهم في هذا الشأن . ولا يقتصر الأمر عليها ، بل يأتي ابيكتيتس Epictetus  
 الذي يعد من المتصلبين في باب الأخلاق من فلاسفة الرواقيين Stoics  
 فيقول لتلاميذه مرشداً ومعلمياً : « تجنبوا معاشرة النساء قبل الزواج  
 مستظمت ، ولكنه لا ينبغي أن تلوموا أحداً أو تؤنبوه إذا ما لم يتمكن  
 من كبح جماح شهواته . ،

ولما تراخت عرى الأخلاق وصيانة الآداب في المجتمع الروماني إلى هذا

الحد ، اندفع تيار من العري والفواحش وجموح الشهوات . فأصبحت  
المسارح مظاهر للخلاعة والتبرج المحقوت والعري المشين . وزينت  
البيوت بصور ورسوم كلها دعوة سافرة إلى الفجور والدعارة والفحشاء .  
ومن جراء هذا كله راجت مهنة المومسات والداعرات وانجذبت إليها  
نساء البيوتات . وتمادى الأمر في ذلك إلى أن اضطر القوم إلى وضع قانون  
خاص في عصر القيصر تائي ييريس ( ١٤ - ٣٧ م ) لمنع نساء البيوتات من  
احتراف مهنة المومسات وصناعتهن النافقة . ونالت مسرحية فلورا Flora  
حظوة عظيمة لدى الروم لكونها تحتوي على سباق النساء العاريات .  
وكذلك انتشر استحباب الرجال والنساء في مكان واحد بمرأى من الناس  
ومشهد . أما سرد المقالات الخليعة والقصص الماجنة العارية فكان شغلا  
مرضياً مقبولاً لا يتحرج منه أحد ، بل الأدب الذي كان يتلقاه الناس  
بالقبول والرضى هو الذي يعبر عنه اليوم بالأدب المكشوف ، وهو الذي  
تبين فيه أحوال الحب والعناق والتقبيل سافرة غير مقنعة بحجب من  
المجاز والكنائيات .

فكان من انغماسهم في الشهوات البهيمية ومجاوزتهم الحد في إيجاد  
طرق لإطفاء أوارها أن دانت دولة الرومان وتمزق جمعها كل ممزق .

### أوربة المسيحية

ثم جاء عصر النصرانية في أوربة ، وأرادت أن تتدارك الفوضى  
الخليقة في عالم الغرب بالعلاج الناجع والبلسم الشافي . وبما لا ريب فيه أنها



أدت خدمات جليلة في أول أمرها . فقد سدت السبلَ في وجه الفحشاء وقضت على المري في كل ناحية من نواحي الحياة، ودبّرت الحيل والطرق المؤثرة لاستئصال شأفة الدعارة ، وجعلت المومساتِ الراقصاتِ والمغنياتِ يتبنن ويرتدعن عن غيبن ومكاسهن الفاسدة ، وجهدت جهدها لتنشئة القوم على الأخلاق الزكية والآداب السامية إلا أن الفكرة التي كانت يحملها الآباء المسيحيون عن علاقة ما بين الرجل والمرأة ، كانت قد تجاوزت حدّ التطرف في جانب ، وكانت حرباً على الفطرة البشرية في جانب آخر .

فن نظريتهم الأولية الأساسية في هذا الشأن أن المرأة ينبوع المعاصي وأصل السيئة والفجور . وهي الرجل باب من أبواب جهنم من حيث هي مصدر تحريكه وحمله على الآثام . ومنها انبجست عيون المصاب الإنسانية جمعاء ، فبحسبها ندامة وخجلاً أنها امرأة ، وينبغي أن تستحيي من حسنها وجمالها ، لأنه سلاح إبليس الذي لا يوازيه سلاح من أسلحته المتنوعة وعليها أن تكفّر ولا تنقطع عن أداء الكفارة أبداً ، لأنها هي التي قد أتت بما أتت به من الرزء والشقاء الأرض وأهلها . ودونك ماقاله تروليان ( Tertullion ) أحداً قطار المسيحية الأول وأتمتها مبيئناً نظرية المسيحية في المرأة :

« إنها مدخل الشيطان إلى نفس الإنسان . وإنها دافعة بالمرء إلى الشجرة المنوعة ، ناقضة لقانون الله ، ومشوّهة لصورة الله - أي الرجل - . »

وكذلك يقول كراي سوستام ( Chry Sostem ) الذي يعدّ من كبار أولياء الديانة المسيحية في شأن المرأة :

« هي شر لا بد منه ، ووسوسة جبلية ، وآفة مرغوب فيها ، وخطر على الأسرة والبيت ، ومحوبة فتّاكة ورُزءٌ مطليّ بموهبة » .

أما نظريتهم الثانية في باب النساء ، فخلاصتها أن العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة هي نجس في نفسها ، يجب أن تُتجنب ، ولو كانت عن طريق نكاح وعقد رسمي مشروع ، هذا التصور « الرهبني » للأخلاق الذي كانت جذوره تكاد تتأصل في أوربة من قبل بتأثير الفلسفة الإشرافية ( Neo - platonism ) جاءت المسيحية فزادته شدةً وبلغت به منتهاه . وذلك أن أصبحت حياة العزوبة مقياساً لسمو الأخلاق وعلو شأنها كما صارت الحياة العائلية علماً على انحطاط الأخلاق ومهانة الطباع . وجعلوا يعدّون العزوبة وتجنّب الزواج من أمارات التقوى والورع وزكاء الأخلاق ، وأصبح من المحتوم لمن يريد أن يعيش عيشة نزيهة أن لا يتزوج أصلاً ، أو لا يعاشر امرأته معاشرة الزوج وزوجته ، على الأقل . وكذلك قرّروا ووضعوا القوانين في مؤتمراتهم الدينية المتعددة بأن لا يختلي رجال الكنيسة بأزواجهم ، وأن لا يتلاقى الرجل منهم والمرأة إلا بمرأى من الناس ، أو أمام رجلين من رجالهم على الأقل . وما آلوا جهداً في أن يثبثوا في قلوب الناس الشعور ببشاعة العلاقة الزوجية وتجنّبها . وخذ لذلك مثلاً أن كان شائعاً بينهم ، أن الزوجين الذين

اتفق لها أن يبيتامعاً ليلة عيد من الاعياد ، لا يجوز لهم أن يميّدا ويشتركا مع القوم في رسومهم ومباهجهم . كأنني بهم يرون أنها قد اقترفا إثمًا سلبهم حق المشاركة في حفل ديني مقدس عندهم . وقد بلغ من تأثير هذا التصور « الرهيني » أن تكدر صفوف ما بين أفراد الأسرة والعائلة من الأواصر . وحتى ما بين الأم والولد منها . إذ أمسى كل قرابة وكل سبب ناتج عن عقد الزواج بعد إثمًا وشيئاً نجساً .

وهاتان النظريتان ما وضعتا من مكانة المرأة وحطّتا من شأنها في حقول الأخلاق والاجتماع فحسب ، بل كان من مفعولها القوي ونفوذها البالغ في القوانين المدنية أن أصبحت الحياة الزوجية مبعث حرج وضيق للرجال والنساء بجانب ، وبجانب آخر انحطّت منزلة المرأة في المجتمع في كل ناحية من نواحي الحياة . فكل ما وُضع في العالم الغربي من القوانين بتأثير الشريعة المسيحية ، لانتخلو من الخصائص الآتية :

١ - جعلت المرأة تحت سلطة الرجل الكاملة ، من الوجهة الاقتصادية وعادّت حقوقها في الإرث محدودةً وأما حقوقها في الملكية فكانت أزرّ وأقلّ . وما كان لها حق حتى في كسب يدها ، بل كان كل ما عندها ولها ملكاً لزوجها .

٢ - الطلاق والخلع لم يكونا مباحين في حال من الاحوال فيها بلغ الفرك ( البفض ) والتنافر بين الزوجين ، ومهما بلغ الشقاق بينها في إفساد العشرة عليها وجعل بيتها قطعةً من المذاب ، كان الدين والقانون يحتمان

عليها دوام العشرة وبقاء جبل الزوجية بينها متصلاً : وأقصى ما كان يمكن فعله في بعض الأحوال الشاذة البالغة من الشدة غايتها ، أن يقطع ما بين الرجل والمرأة من الأسباب ويفرق بينهما تفريقاً . على أنه ما كان لذلك الرجل أو تلك المرأة بعد ذلك أن يجدد الحياة الزوجية ويختار لنفسه زوجاً موافقةً أو بعلاً موافقاً . والحق أن كان هذا العلاج أكثر ضرراً وأشد خطباً من ذلك المرض ، إذ هما كانا بعد ذلك بين اثنين : إما أن يختارا عيشة الرهبان والراهبات ، أو يتماطيا الفجور ويتساقيا كؤوس الفحشاء طول أعمارهما الباقية .

٣ - وكذلك كان من أقبح العار أن يتزوج الرجل أو المرأة ثانية إذا توفي عن أحدهما وزوجه ، بل هو عندهم من كبائر الإثم . وكان من رأي علماء المسيحية فيه أنه إذعان للشهوات البهيمية ، وإطلاق لغنان غريزة الفحشاء ، وكانوا يعبرون عن القران الثاني بكلمة ( الزنى المذهب ) . أما رجال الكنيسة فلم يكن النكاح مباحاً لهم في قانون الكنيسة . وكذلك القانون المدني العام ما كان يُجيز ذلك في بعض الاقطار ، وأما الاقطار التي كان يسمح به فيها القانون ، فما كان يترخص فيه هناك الرأي العام الذي كان متأثراً بالنظريات والتصورات الدينية .

### أوربة الجديدة

ولمّا نهض فلاسفة أوربة وأولو الرأي والعلم منهم في القرن الثامن عشر ورفموا عقيرتهم لحماية حقوق الفرد في المجتمع ، ونفخوا في أبواق

الحرية الفردية ، كان بين يديهم ذلك النظام التمدني الفاسد الذي كان تولّد بتفاعل الاتحاد الثلاثي من نظم الاخلاق وفلسفة الحياة المسيحيّتين ونظام الاقطاعية ( Feudal System ) وقيد الروح البشرية بقيود مثقلة غير طبيعية وسد في وجهها جميع سبل الرقي والازدهار. فالنظريات التي قدمها أساطين أوربة الجديدة وأقطاب التفكير الجديد فيها ، للقضاء على ذلك النظام الفاسد واستبدال نظام جديد به ، أسفرت عن ثورة فرنسا الشهيرة ، ثم تحرّكت عجلة الحضارة والثقافة الغربيّتين وبقيت تسير على هُدهاها ، حتى آلت ، بمدتقلبات الزمان ، إلى مرحلتها الحاضرة.

وكل ما فعلوه في بدء هذا العهد الجديد لإنهاض المرأة من كبوتها ، كان له أثر محمود في الحياة الاجتماعية. فقد خفّفوا شيئاً مما كان في قوانين الطلاق من شدة وتضييق . وردّوا إلى النساء جملة صالحة من حقوقهن الاقتصادية المسلوّبة . وتناولوا بالإصلاح والتهديب النظريات القائلة بذلّة المرأة ومهانتها . وعدّوا أيضاً قوانين العشرة والاجتماع التي كانت قد وضعت النساء في مستوى الجوّاري والإماء في واقع الأمر . كما فتحوأ لهن أبواب التعليم والتربية الماليين كالرجال . فهذه الطرق والتدابير الفعّالة المختلفة انبعثت مواهب النساء وبرزت كفاءاتهن التي كانت مغمورة تحت أثقال فادحة من قوانين المجتمع الخاطئة وتصورات الاخلاق الجاهلية . فقمّن بتعمّد البيوت وتحسين آداب العشرة وأبلّين بلاءً حسناً في سبيل الخير وأعمال البرّ . فترقية الصحة العامة وتربية الجيل الناشئ

ومواساة المرضى وتنمية النظام العائلي وآدابه كل أولئك كان من بواكير  
 ثمار اليقظة التي حصلت بين النساء بفعل الحضارة الجديدة . ولكن  
 النظريات التي تولدت من بطنها هذه الحركة ، كانت تنقسم من أول يومها  
 بالنزوع إلى الإفراط والميلان عن القصد . ثم نما هذا النزوع واشتد  
 في القرن التاسع عشر . وما كاد يبتدىء القرن العشرون حتى بلغ نظام  
 الاجتماع الغربي نهاية الإفراط والتباعد عن القصد . وهذه النظريات  
 التي أسس عليها بنیان الاجتماع الغربي الحديث ، يمكن حصرها في  
 ثلاثة عناوين :

١ — المساواة بين الرجال والنساء .

٢ — استقلال النساء بشؤون معاشهن  
 ( Economic Independence )

٣ — الاختلاط المطلق بين الرجال والنساء .

وقد ظهر من نتائج تأسيس اجتماعهم على هذه النظريات الثلاث ما  
 كان يجب أن يظهر ، وذلك :

١ — أنهم فهموا من معاني المساواة ألا يكون الرجل والمرأة  
 متساويين في الحقوق البشرية والمنزلة الخلقية فحسب ، بل أن تؤدّي المرأة  
 في الحياة المدنية ما يؤدّيه الرجل من الاعمال ، وأن يُرخى لها من عنان  
 القيود الخلقية مثل ما أُرخی للرجل من ذي قبل . فهذه الفكرة الخلطية  
 للمساواة جعلت المرأة غافلة بل منحرفة عن أداء واجباتها الفطرية

وظائفها الطبيعية التي يتوقف على أدائها بقاء المدينة ، بل بقاء الجنس البشري بأسره . وامتدتها الاعمال والحركات السياسية والاقتصادية والاجتماعية وجذبها إلى نفسها بكل ما في طبعها وشخصيتها من خصائص فشارك الانتخابات النيابية ووظائف المكاتب والمعامل ومنافسة الرجال في المهن التجارية والصناعية الحرة ، والمشاركة في الألعاب والمسابقات الرياضية وحضور مجالس اللهو والقصف والظهور على المسارح والاشتراك في حفلات الرقص والسهرات العامة هذه وأمثالها من مشاغل الحياة وممتها وأسباب اللهو والمجون التي يمنع عن ذكرها الحياء من خفايا هذه المدينة البراقة ، هذه كلها قد استوت على مشاعرها وشغلت أفكارها وعواطفها شغلاً أذهلها عن وظائفها الطبيعية وطردها من برنامج حياتها القيام بتمتات الحياة الزوجية وتربية الاطفال وخدمة العائلة وتنظيم الاسرة ، بل كرهه إلى نفسها كل هذه الاعمال التي هي وظائفها الفطرية الحقيقية . ومن عاقبة ذلك أن النظام العائلي - الذي هو أسس المدينة ودعامتها الاولى - قد تبدد شمله في الغرب . والحياة البيئية - التي يتوقف على هدوئها وطمأنينتها قوة الانسان العملية ونشاطه - تكاد تنعدم وتدخل في خبر كان . وكذلك رابطة العقد والزواج - التي هي الصورة الصحيحة الوحيدة لتعاون الرجل والمرأة على خدمة المدينة - أصبحت عندهم أوهن من بيت العنكبوت . وبجانب آخر ، قد بدأ العمل على منع تكاثر النسل وازدياد العمران بقتل الاولاد وضبط التوليد وإسقاط الحمل . وجاء التصور الخاطئ للمساواة الخلقية يساوي بين الرجال والنساء في التبدل

وفساد الاخلاق، حتى عادت تلك الخزيات التي كان يتحرّج من مقارفتها  
الرجال فيما قبل ، لا تستحي من ركوبها بنات حواء في المجتمع  
العربي الحديث .

٢ - ان استقلال النساء بما يشهن واضطلاعهن بشؤونهن الاقتصادية  
قد جعلهن في غنى عن الرجال . والمبدأ القديم - أن يكسب الرجل  
وتدبّر المرأة شؤون البيت - قد تبدل وأخذ مكانه رأي جديد ، هو أن  
يكسب الرجل والمرأة كلاهما ، والبيت يُفوّض شؤونَه الى الفنادق  
والشركات . فلم يبق بعد هذا الانقلاب بينهما من صلة ترغّبها في العشرة  
البيئية وتجبرهما على الحياة الزوجية المشتركة غير صلة الشهوات وغرائز  
النفس الحيوانية . ومن الظاهر أن مجرد إطفاء أوار الشهوة البهيمية ليس  
بأمر يضطرّ الرجل والمرأة الى أن يتعاشرا في بيت واحد ، مقرونان  
في نير الرابطة الزوجية الأبدية . فالمرأة التي تكسب عيشها بيدها ،  
وتقوم بجميع وظائفها بنفسها ، ولا تحتاج في حياتها اليومية الى راعٍ يرعاها  
أو نصير يُعينها ، ما لها تلازم رجلا بعينه لإخماد نار شهوتها فقط ؟ وما لها  
ترهق نفسها بأعباء خلقية وأثقال قانونية في غير طائل ؟ ولماذا تتحمل  
تبعات الأسرة والمنزل ؟ وإذا كانت فكرة المساواة الخلقية قد أزلت  
جميع العقبات والمراقيل التي كانت عسى أن تعترضها في سلوك طريق  
الدعارة والفجور ، فلماذا تتكسّب الطريق الأيسر والسبيل الممهّدة  
المشحونة بأفانين البهجة والمزّة ، وتسلك الجادة العتيقة البالية المحفوفة



بالمسكاره والتبعات والتضيّعات ؟ أما ما كان عسى أن يحبك في صدرها من شعور بالإثم والمصيبة ، فقد ذهب بذهاب الدين وتقلّص ظلّه ، وأما خشية المجتمع ، فلا وجهَ لها ولا داعي إليها ، لأنّه بدل أن يلومها ويؤنّبها على غوايتها وعهرها ، قد عباد يتلقّاها بالبرّشر والترحاب . وآخر ما كانت تخافه هذه وأخواتها هي المولود النّفل الذي تلده من فاجر مغمور ، ولكن قد أذهب عن نفسها هذا الخوف ما بالكسر أخيراً من أساليب التخلّص منه . وأولها تداير مَنع الحمل . فإن أخفقت ، فلا بأس بإسقاط الجنين . وإن لم يتحقّق ، فلا حرج في قتل المولود من وراء الجدران ، في جنح الظلام ، وإن أبت عاطفة الأمومة - ويالها من عاطفة خبيثة لا تكاد تموت على كل هذا الرقيّ - والتمدن - قتل المولود ، فلا لوم على الفتاة في كونها أمّاً لابن زنيّة . لأنهم قد قضوا الوطر من الدعاية لتكريم (الأم المذراء) و (ولد الحرام) ، وقد بلغ من تأثيرها في النفوس أن المجتمع الذي يتجرأ على ازدراءها والخط من شأنها ، لا جرم أن يبوء هو نفسه بتهمة الرجعيّة وحكم التخلّف والجود .

هذا هو الذي قد أتى ببيان المجتمع الغربي من القواعد وزلزل كيانه زلزلاً . ففي كل قطر من اقطارهم ترى مئات الألوف من الفتيات والنساء عوانس ، يرتدن موارد الفحشاء والشهوات من غير تحفّظ ولا خجل . وتقوقن في كثرة العدد السلائي يتزوّجن في سؤرة من

عاطفة الحب العارضة ، ولكنه لما يبق بين الرجل والمرأة من صلة - غير صلة المنفعة الجنسية - 'تحوّج أحدهما إلى الآخر، وتجبرهما على العشرة الزوجية المستمرة' ، قد عادت أمثال هذه الاواصر الزوجية كأوهن ما يكون من الامور . فالزوج والزوجة اللذان قد استغنى كل واحد منهما عن صاحبه ، لا يرضيان بأن يراعى أحدهما مصلحة الآخر ، أو يجامله ويداريه في شأن من شؤونها . أما عواطف الحب والغرام المنبعثة من الشهوة البهيمية ، فلا تلبث أن تحفّ سورتها وتحمّد نارها . ثم لا يكون بينهما إلا نزاع طفيف أو اختلاف تافه ، حتى تنصرم بينها الاسباب . وقد يكون انطفاء جذوة الحب بينهما وحده سبباً كافياً لافتراقهما . ومن ذلك ترى أن الاواصر الزوجية عندهم يؤول أمرها إلى طلاق أو فرقة . وهذه الحال الراهنة هي السبب في شيوع المفاسد من منع الحمل وإسقاط الاجنّة وقتل الاولاد وانخفاض تناسب المواليد وكثرة اولاد النفل ، وكذلك لها يد وأيّ يد في انتشار الفاحشة والخلاعة وازدياد الامراض السرية الفتاكة .

٣ - وقد استنحت الاختلاط المطلق بين الرجال والنساء غريزة التبرّج والعري في النساء ، وزواجهنّ تلوناً بالفواحش فالجاذبية الجنسية ( Sexual Attraction ) التي قد أودعتها فطرة الرجل والمرأة ولهما عليها سلطان لا يُنكر ، تزداد قوة واشتداداً باختلاط الجنسين وتنخطى حدوده بكل سهولة . ثم من شأن هذا المجتمع المختلط ان تنشأ فيه غريزة جديدة في الجنسين ، وهي الظهور بأبهى مظاهر الزينة وأجذبها

Attractive للجنى الآخر . ولما لم يعد التزبد من أسباب الزينة والتجمل شيئاً ينكر وبُعاب ، بفضل تبدل النظريات الخلقية ، بل يُستحسن التبرُّج السافر والاخذ بكل أسباب الفتنة والاستواء ، فلا يقف هذا الافتتان بإبداء الزينة والجل عند حدٍ ، بل يتجاوز الحدود كلها واحداً بعد آخر ، حتى ينتهي أمره الى آخر غايات المرئي المشين . وهذا ما قد وصلت إليه الحال في المدنية الغربية . فقد ازدادت - ولا تزال تزداد - في المرأة غريزة التجمل وحبّ الظهور بالمظاهر الجذابة للرجال الى حدٍّ أن لا تكاد تقتنع نفسها الوثابة المتطلعة بالملابس البراقة الفاتنة وأسباب الزينة المتجددة من الوشّي والتطارييف والاصباغ والحلي ، بل تطمح الى ما وراء ذلك ، فتكاد تتجرّد من ملابسها وتريد ألاّ تستر جسمها هُدبة ثوبٍ منها . هذه حال المرأة عندهم . وأما الرجال فما تزيدهم كل هذه المظاهر الخلابة من الجمال النسوي إلاّ شوقاً وطموحاً ونهمة . لان نار الشهوة والعاطفة البهيمية المتأججة في الصدور لا تخمد بكل منظرٍ جديد من الخلاعة والسفور ، بل تزداد لهيباً وتتطلب منظاراً آخر أكثر منه سُوراً وحُسوراً وتكشفاً ، منلهم في ذلك كمثل من تصيبه افحةٌ من السموم ، فيكاد لا يسكن ظمؤه . كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً وظماً ، فهم دائماً في إعداد أدوات وتهية أسباب وظروف الإطفاء أوار شهوتهم المبرح بهم . ولا يهدأ لهم دون ذلك بال ولاهم يستقرّ لهم قرار . وما هذه الصورُ العارية وهذا المادب المكتشف وهذه القصص الفرامية وهذه المراقص والمبازل

والمرحيات المشحونة بالعواطف والزغات العارمة ، ماهذه كلها إلا " نماذج من جهودهم وحيلهم - التي يتعاطونها لإخماد نار الشهوات الجامحة ولكن في الحقيقة لاستثارتها والنفخ فيها - التي أججتها هذا المجتمع الماخن وتلك الحياة الاجتماعية الضالة في صدر كل فرد من أفرادهم . ولكنهم قد سموها بالفن " (Art) لاختفاء هذا الضعف الكامن في نفوسهم وفي حياتهم !

ولا يزال هذا الداء الويل - من غلبة الشهوات البهيمية - ينخر في كيان الأمم الغربية ويتنقّص من قوة حياتها بسرعة هائلة . والتاريخ يشهد أنه ما سرى هذا الداء في مفاصل أمة إلا " أوردتها موارد التلف والفناء . ذلك بأنه يقتل في الإنسان كل ما آتاه الله من القوى العقلية والجسدية لبقائه وتقدمه في الحياة . وأنسى للناس - لعمر الله - ذلك الهدوء وتلك الدعة والسكينة التي لابد لهم منها لمعالجة أعمال الإنشاء والتعمير ، وما دامت تحيط بهم محركات شهوانية من كل جانب ، وتكون عواطفهم عرضة أبداً لكل فن جديد من الإغراء والتهييج ، ويحيق بهم وسط شديد الاستثارة قوي التحريض ، ويكون الدم في عروقهم في غليان مستمر بتأثير ما حولهم من الأدب الخليع والصور العارية والأغاني الماحنة والافلام الغرامية والرقص المثير والمناظر الجذابة من الجمال الاتسوي العريان ، وفرص الاختلاط بالنصف الخالف ؟ ! أستغفر الله : بل أنسى لهم ولأجيالهم الناشئة أن يجدوا في غمرة هذه المهيّجات الجو الهادئ المعتدل الذي لا مندوحة لهم عنه لتنشئة قواهم

الفكرية والعقلية ، وهم لا يكادون يلمعون الحلم . حتى يفتالهم غول الشهوات الهيمية ويستحوذ عليهم ؛ وإذا هم وقعوا بين ذراعي هذا الغول فأنسى لهم النجاة منه ومن غوائله وعواديته !؟

## تقصير الفكر الانساني

هذا البيان الموجز للتطورات التاريخية الممتدة على ثلاثة آلاف سنة راجع إلى بقعة كبيرة من هذه الارض ، قد كانت فيها خلا مشوى لحضارتين عظيمتين في تاريخ البشر ، وها قد نالت نجم حضارتها في سماء الدنيا مرة أخرى . ومثل هذه التطورات التاريخية قد حصلت في كل من مصر وبابل وفارس وغيرها من الممالك . وكذلك بقي وطننا - شبه القارة الهندية - أيضاً عامهاً في أمر المرأة بين طرفي الإفراط والتفريط فترى فيه بجانب أن المرأة تتخذ مملوكة وينزل الرجل منها منزلة المالك والمبود . وهي محتوم عليها أن تظل مملوكة لأبيها بكرأ ولبعليها ثانياً ولأولادها ايماً ، ثم تقدم ضحية على نيران زوجها إذا مات عنها<sup>(١)</sup> . وتحرم حقوق الملكية والإرث . وتلتزم بأشد ما يكون من قوانين الزواج مما يسبغ تسليم المسكينة إلى رجل من الرجال بغير رضاها

---

( ١ ) ان الهنادك يحرقون موتاهم . وكانوا فيما مضى يحرقون زوج الميت معه حياً ، حتى منعتهم الحكومات المسلمة ، والحكومة الانكليزية بعدها من هذا الرسم القبيح .

وامتصاصها ، ثم لا يُحيز لها أن تتخلَّص من حيازته إلى آخر أنفاس حياتها . وهي تُعتقد بعد ذلك مادَّة الإثم وعنوان الانحطاط الخلقي والروحي . ولا يسلم لها حتى بوجود الشخصية المستقلة . وبجانب آخر إذا أقبل عليها القوم بالعبادة والمطف ، فإنها تُتَّخذ لعبة للشهوات الحيوانية . وهناك تركب المرأة هوى الرجل ركوباً يمكنها من قيادته فتعسف به الطريق ، حتى تضلَّ به في بيداء الحياة وتضلَّ الأمة كلها معها . فهذه التقاليد الدينية الهندكية من تقديس فرج الذكر والاشئ ( لك ويوني ) وعبادة التهايل العارية المزوجة ، وتكريم خدامات المعابد العواهر Religious Prostitutes واختلاط الجنسين في ألعاب عيد ( هولي ) وفي النسل المطهر في المياه المقدسة في حال توشك أن تكون عرياً .. ما هذه كلها ؟ وأي شيء تذكره به وتدلل عليه ؟ إن هي في الحقيقة إلا باقيات السوء لتلك الحركة ( البام ماركية ) التي انتشرت في الهند أيضاً انتشار الوباء عقب ازدهار الحضارة فيها - كما انتشرت فيما قبل في بابل وفارس واليونان والروم - وتركت الأمة الهندكية في حال التخلف والانحطاط لمُدَّة قرون .

إنك إن تأملت هذا البيان التاريخي الموجز ، تبين لك مبلغ عجز الانسان عن الاهتمام إلى نقطة الاعتدال في أمر المرأة وكيفية تقصيره في فهمها والاستمساك بها . وهل نقطة الاعتدال في أمر المرأة إلا أن تُتاح لها الفروض الكاملة لتنشئة مداركها وإثاء كفاءاتها ، وأن تؤهل للقيام بنصيبها من العمل على ترقية المدنية والحضارة الانسانية

بكل ما تملكه من الكفاءات الراقية برقيّ التمدن . ولا تترك  
- بجانب آخر - أداة للتفسّخ والانحطاط الخلقي وسبباً لخواب  
الانسانية . بل يجب أن توضع لتعاون الجنسين في مضمار الحياة خطّة  
مستقيمة تضمن لمشاركتها في العمل كل المنافع والبركات للتمدن البشري  
ونقطة الاعتدال هذه ما زالت ضالّة الدنيا منذ قرون من السنين ،  
ولكنها لم تظفر بها بعد . وإنما بقيت تحبّط الظلماء دونها . تارة تميل إلى  
التفريط فتجعل النصف الكامل من النوع البشري عضواً معطلاً عن  
العمل ، وأخرى إلى الإفراط فتصل بين طرفي الانسانية بأسباب  
الخلاعة والإباحية والفجور ، فتفرقها معاً في لُجّة الضلال .

ليست نقطة القصد والاعتدال بمعدومة اليوم ، بل هي لمن يطلبها  
مهيأة موجودة . ولكن الناس بما دارت بهم الرحى بين الافراط والتفريط  
منذ آلاف من السنين ، قد أصبحوا لدهشتهم وذهولهم لا يكادون يعرفونها  
إذا هي مثلت امام أعينهم ، ولا يلمون ، إذا عاينوها ، أنها هي التي لم تزل  
فطرتهم تطلبها وتلتمسها . وأعجب من ذلك انهم ربما يتنكّرون لبغية  
فقوسهم هذه ، ويطعنونها ويتخذونها هزواً . ثم يمكسون الأمر ،  
فبدل أن يلوموا أنفسهم ، يلومون ويخرجون من يجدونه مستمسكاً بها  
وداعياً اليها . مثلهم في ذلك كمثل طفل انساني يولد في معدن رخام ، ولا  
يبرحه حتى يشب . فيكون جوّه الضيق المظلم في عينه جوّاً صافياً  
مشرقاً ، وهواؤه المحبوس الكدر في شعوره هواءاً خالصاً طليقاً . فإن

أنت أخرجته فجأةً من مضيق المعدن إلى براح الأرض ، لا جرم أن  
يُنكر لأول وهلة كل ما يراه في هذا الجو السافر المشرق ، ويستوحش  
منه . ولكن الانسان مهما كان من فساد بيئته وتربيته ، إنسان على كل  
حال . فلا مَ يَأْتُرَى يخفى على عينيه الفرق بين سقف من الرخام الاسود  
والسما المتلألئة بالنجوم الزواهر . وإلى متى يفوت رثيته التمييز بين الهواء  
الخافق في غيابة المعدن والهواء الطبيعي في فضاء الارض ؟ !



## موقف المسلم في العصر الجديد

إذا كان هناك من هو جدير بأن يأخذ بيد الانسانية الخائرة بين طرفي الافراط والتفريط ويهديها سواء السبيل ، فهو المسلم وحده الذي عنده مفاتيح جميع معضلات الحياة الاجتماعية . ولكن من سوء نصيب الانسانية - و اأسفاه - أن الذي كان بيده المصباح المنير في هذا الظلام الخالك ، أصيب هو نفسه بالفتساوة فجعل يحبط في سيره خبط عشواء ، وبذل أن يهدي غيره من خلق الله مازال - ولا يزال - يثني وراء كل معسف ويتبع كل ناعق .

إن جملة الاحكام التي يُطلق عليها عنوان ( الحجاب ) هي في الحقيقة مشتملة على أم أجزاء قانون الاجتماع الاسلامي ، فإذا وُضعت هذه الاحكام موضعها الصحيح في نظام ذلك القانون بكامله ، ثم تأملها أحد فيه آثاره من البصيرة الفطرية السليمة ، لم يلبث أن يعترف بأنها الصورة الوحيدة الممكنة التي تضمن القصد والاعتدال في الحياة الاجتماعية، وأن هذه المجموعة من الاحكام إن عُرِضَتْ على العالم منفردة في الحياة العملية بروحها الحقيقية الصحيحة ، لَهَرَوَات الدنيا المنكوبة إلى هذا المنبع

للسلام ، تلتبس فيه الدواء لأدوائها الاجتماعية ، بدل أن تنفر منه أو  
تطمئن عليه . ولكن من لك بهذا الامر ؟ فإن الذي كان حرياً به القيام  
به لا يزال هو نفسه صريع المرض منذ زمان . ولعله يجدر بنا ، قبل  
أن نتقدم في البحث ، أن ننظر في كيفية مرضه نظرةً :

### السياق التاريخي

في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر فوجئت  
الممالك الإسلامية بطوفان من الاستعمار الغربي . وبينما المسلمون في هجود  
الكسرى ، يستيقظوا بعد كل اليقظة ، جعل هذا السيل يمتد من قطر  
إلى قطر ، حتى شرق العالم الإسلامي وغرب ، وما ان انتصف القرن  
التاسع عشر حتى غدت معظم الامم المسلمة عبيداً للغرب الاوربي وخولاً  
له . والتي لم تدخل منها في عبوديته ، لم تسلم من الخضوع لسلطانه ورهبة  
بأسه ونجدته . ولما بلغ هذا الانقلاب تمامه ، بدأت في المسلمين آثار  
اليقظة والحركة ، فلما فتحوا أعينهم على الحال التي قد صاروا اليها ، فشلت  
ريحهم وزال عنهم بغته ذلك الفخار القومي الذي طالما تأصل فيهم لبقائهم  
في عزّ القلبة ومجد السيادة من قرون متوالية . فعادوا يفكرون في  
أنفسهم ، كالسكران يصحبه توالي الضربات من عدوشديد ، ويبحثون  
عن الاسباب التي هبطت بهم وغلبت الافرنج عليهم ، غير أن عقولهم لم  
تكن ثابت بعد إلى رشدّها ، إذ كان السكر لاريب قد ذهب عنهم  
ولكن ميزان الفكر كان بعد مختلاً فيهم . فبجانب ، كان يلح بهم شعور

بالذلة والهوان ، ويؤزّم أَرْأً على تبديل مام فيه من الحالة ، وبجانب آخر يفلهم من حب الراحة وإيثار الدّعة والارتخاء ما يحملهم على توخي أقرب الطرق وأسهلها لتبديل تلك الحالة . وقد خارت فيهم من جهة ثالثة قوى الفكر والعقل وصدّثت ملكات الفهم والذكاء ، بطول تطلّها عن العمل . زد على ذلك كله ما أخذ بمجامع نفوسهم من الدهشة والروعة التي تعترى بالطبع كل أمة منهزمة مستعبدة . وتفاعلت هذه الأسباب في محيّ الاصلاح من المسلمين وأوقفهم في كثير من الضلالات العقلية والعملية . فأكثرهم ما كادوا يفتنون للأسباب الحقيقية في ارتقاء أوربة وانحطاطهم . وأما الذين فهموها منهم وأدركوها ، فأعوزهم من بُعد الهمة والعزيمة والروح المجاهدة ما ينشجّون به على اختيار الطرق الوعرة للرقى والتقدم ، وكان من وراء ذلك كله الروعة والدهشة التي تشترك فيها كلتا الطائفتين على السواء . فلما مضوا بهذه العقلية المريضة الزائفة يريدون الاصلاح لم يروا أضمن للرقى ولا أدنى للوصول اليه من أن يحاكوا في حياتهم اليومية كل مظاهر التمدن والحضارة الغربية ، فيعودوا كالمرآة الصافية يرى فيها خيال' الروضة والازهار والرياحين ، وليس فيها من حقيقة هذه المناظر شيء .

### العبودية الفكرية

وهذه هي الفترة البُحرانية التي غدت الامم المسلمة فيها تحاكي أمم الغرب في الزي واللباس ، وتتشبّه بها في مظاهر الاجتماع . وفي آداب

المجالس وأطوار الحياة ، حتى في الحركة والمشي والتكلم والنطق . وحاولوا تشكيل المجتمع المسلم على الصيغة الغربية . وقبلوا الإلحاد والذهرية والمادية في نشوة التجدد . بدون حيلة أو شعور بالعواقب . وعدّوا من لوازم التنوير الفكري إيمان المرء بكل ما بلغه من قبَل الغرب من فكرة ناضجة أو فجأة والإفاضة فيه في مجالسه . ورحبوا بالخرم والقمار واليانصيب وسباق الخيل . وما إلى ذلك من ثمرات الحضارة الغربية . ثم سلّموا بجميع معتقدات الغرب وأعماله في الاخلاق والآداب والاجتماع والمعاش والسياسة والقانون ، حتى في العقائد الايمانية والعبادات سلّموا بكل ذلك من غير فهم وشعور أو نقدٍ وتجريحٍ ، كأنه تنزيل من حكيم حميد ، ليس لهم قبَله إلا أن يقولوا : آمناً . وأصبح المسلمون بأنفسهم يستحيون من كل ما نظر اليه أعداء الاسلام القدماء بعين التحقير أو التعمير ، من وقائع التاريخ الاسلامي ، وأحكام الشرع الالهي وآثار الكتاب والسنة ، ووظفوا يحاولون أن يحجوا تلك السبّة عن أنفسهم . . . اعترضَ أهل الغرب على ما عندهم من الجهاد . فقال هؤلاء : مالنا وللجهاد بإسادة ؟ إنا نعوذ بالله من هذه الهمجية . واعترضوا على الرّق . فقال هؤلاء : إنّا ما هو حرام عندنا أصلاً . وأطالوا لسان القدح في تعدد الزوجات . فجاء هؤلاء ينسخون آيات القرآن ويحرفون الكلم عن مواضعه . ثم قال أولئك : لا بد من مساواة الرجل والمرأة في جميع نواحي الحياة . فوافقهم هؤلاء بقولهم : هذا هو الذي يملّهُ ديننا أيضاً . وطمن القوم في قوانين الزواج والطلاق في الاسلام . فقامت طائفة من المسلمين تعالجها

بالاصلاح والتعديل . ولما علوا الاسلام بأنه عدو للفنون الجميلة ، استدرك هؤلاء قائلين : لا ، بل مازال الاسلام ، مذ كان ، يُشرف على الرقص والموسيقى والتصوير ونحت التماثيل ! .

## نساء مسألة الحجاب

كان هذا الدور أبحث الادوار وأخزاها في تاريخ المسلمين . ففي هذا العصر نشأت مسألة الحجاب . ولو كان البحث في هذه المسألة مقصوراً على تعيين الحد الذي وضعه الاسلام لحرية المرأة ، لكان الامر ، ولم يستعص حلّه . لأن أكثر ما هناك من الاختلاف بين المسلمين في هذا الباب هو منحصر في وجه المرأة ويديها : هل يجوز إبرازها أم لا ؟ وليس هذا الاختلاف بخطير جداً ، ولكن الواقع هنا غير ما ذكرنا . الواقع في الحقيقة أنه نشأت هذه المسألة في المسلمين لكون الغوب قد نظر إلى الحجاب والنقاب والحرم بعين المقت والازدراء وصوّره أقبح تصوير وأشنع فيما كتب ونشر ، وعدّ ( حبس ) المرأة من أبرز عيوب الاسلام . وأنّى كان للمسلمين أن يفضوا على هذه النقيصة التي أخذها الغرب ، عليهم فيما أخذ . ففعلوا في هذه المسألة - الحجاب - مثل ما فعلوا أيضاً في مسائل الجهاد والرق وتمدد الزوجات وما شاكلها من المسائل ، فعمدوا إلى الكتاب والسنة يتصفحون أوراقها ، وإلى كتب الفقه والاحكام ينتقبون عن اجتهادات الأئمة فيها ، لملئهم يجدون في اثناها ومطاوئها ما يعينهم على غسل هذا العار المذموم عن أنفسهم . فاذا بهم يقومون على أقوال

لبعض الأئمة تمييز للمرأة أن تبدي وجهها ويديها وتخرج كذلك من بيتها لحوائجها ، ويعلم منها أيضاً أن المرأة يجوز أن تشهد الحروب لسقي المجاهدين ومداواة المرضى . ثم وجدوا في تلك الاقوال إذناً بخروج المرأة إلى المسجد للصلاة وجلسها للتعليم والتعليم . فكفاهم هذا القدر من المعلومات لان يدعوا أن الاسلام قد أعطى المرأة حرية مطلقة ، وأن الحجاب من تقاليد الجاهل ، اتخذ المتأخرون من المسلمين الجامدين المحافظين ، ويخلو من أحكامه القرآن والحديث . وإنما القرآن والسنة يعلمان الحياء والخفض على سبيل التعليم الخافي ، وليس فيها قانون أو ضابط يقيد حركة المرأة وتنقلها بقيد ما .

### المحركات الحقيقية

ومن الضعف الطبيعي في الانسان أنه إذا ما اختار مذهباً من المذاهب في شؤون حياته يكون بدء اختياره لذلك المذهب بنزعة عاطفية غير عقلية . ثم يأتي بعد ذلك ، فيستعين بالمنطق والعقل على اثبات كون نزعته تلك صحيحة معقولة . كذلك وقع في أمر الحجاب أيضاً . فما عرضت للمسلمين مسألة الحجاب لشعورهم بضرورة عقلية أو شرعية ، وإنما كان مآلتها فيهم ذلك النزوع والميلان الذي نشأ من تأثرهم بريق حضارة أمة غالبية ، ومن ارتياحهم لدعاية تلك الامة في عداة التمدن الاسلامي .

وذلك أن رجال الإصلاح من المسلمين لما رأوا المرأة الاوربية وما هي عليه من زينة وتجميل ، وحرية في الحركة والجولة ونشاط زائد في

في الاجتماع الغربي . . . لما رأوا كل هذا بعيون مسحورة وعقول مندهشة ، تمنّوا بدافع الطبيعة أن يجدوا مثل ذلك في نسايتهم أيضاً ، حتى يجاري تمدّنهم تمدّن الغرب . ثم أثرت فيهم النظريات الجديدة من حرية المرأة وتعليم الإناث ومساواة الصنفين . . . التي كانت تنصبّ عليهم كالوابل المدرار بلغة قوية منطقية وفي طبع أنيق جذاب . حتى أمّات هذه الكتب والمنشورات الغربية بقوة دعايتها ملكة النقد والجرح فيهم . فاستقرّ في سويداء قلوبهم أنه لا بد لكل من يرغب أن يُمد من (المستفيدين الجدد) ويدفع عن نفسه تهمة الرجعية و (الديتافوسية) أن يؤمن بتلك النظريات إيماناًه بالغيب ويؤيّدّها ويحمي عنها فيما يكتب ويخطب ، ثم يروجها في الحياة العملية حسب ما أوتي من همّة وجراءة . كان هؤلاء تكاد تسوح بهم الأرض من فرط الخجل حينما يرون الغربيّين يتهاكون بنسايتهم المتنقيات المستورات في اللباس العادي ، وينبزونهن بـ (الجنائز المكفنة المتحركة) ، وإلى متى ، يا ترى ، يطبق القوم الصبر على هذه الوحزات ؟ . . . لذلك استعدوا آخر الامر - بالرضا أو بالكُره - لأن يقوموا فيدفعوا عن أنفسهم هذا العار المُخزي .

وهذه هي النزعات والمواطف التي بعثت المسلمين على القيام بحركة (تحرير) المرأة ، التي قاموا بها في أواخر القرن التاسع عشر . فمنهم من كانت هذه النزعات كامنة في شعورهم الخفي ، فلا يدرون بأنفسهم ماذا يجرّئهم ويدفعهم إلى تلك الحركة ، فكانوا مخدوعين عن أنفسهم . ومنهم آخرون كانوا يشعرون بتزعاجهم تلك شعوراً تاماً ولكنهم يستحيون

ويُحجمون عن إبداء نزعاتهم الحقيقية ، فهؤلاء لم يكونوا مخدوعين بل دُهاةٌ خادعين : وعلى كلِّ قام هذان الفريقان كلاهما بعمل واحد هو أنه مسح ذيل الخفاء على المحركات الحقيقية لحركته تلك وحاول أن يظهرها بمظهر حركة عقلية بدلاً من إظهارها حركة عاطفية ، وساق في تأييدها جميع الأدلة التي تلقّاها من الغرب مباشرةً كصحة النساء وارتقائهن في مجالي الفكر والعمل ، وحقوقهن الفطرية واستقلالهن الاقتصادي ، وتخلصهن من ظلم الرجال وأثرهم ، وانحصار رقيّ المدينة في رقيّهن ، لكونهن شطراً كاملاً من الأمة . . إلى آخر هذه الحجج ، حتى يتخدع عامة المسلمين ولا يفتضح عليهم صميم المقصد من تلك الحركة ، وهو حمل المرأة المسلمة على اقتفاء آثار المرأة الأوروبية واتّباع الطرق الاجتماعية الرائجة بين أمم الغرب .

## المخراع الأكبر

ولكن أدهى وأخبث ما عادوا يخدعون به الناس في هذا الصدد هو لاحتياهم لإثبات حركتهم الضالة موافقة للإسلام باستنباط من القرآن والسنة ، مع أن هناك بوناً بعيداً بين الإسلام والحضارة الغربية في المقاصد العامة ومبادئ تنظيم الاجتماع . ذلك أن المقصد الرئيسي الذي يريد أن يحققه الإسلام هو - كما سنبيّنه فيما يأتي - كبح جماح غريزة الإنسان الجنسية ( Sex Energy ) وضبطها وتقييدها بضابط خلقي يضمن استعمالها في بناء تمدنٍ صالحٍ مطهر ، بدلاً إهمالها وتضييعها في الفوضى



العملية والهياج الجنسي. ومقصد التمدن الغربي - بخلاف ذلك - هو حث سير التمدن بإشراك المرأة والرجل في تدبير شؤون الحياة وتحمل تبعاتها على حد سواء ، واستعمال الفرائز الشهوانية في مشاغل وفنون تحول متاع الحياة وآلامها إلى لذات ومسرات . ومن نتيجة هذا الاختلاف في المقاصد بين الاسلام والتمدن الغربي ان يكون بينهما اختلاف مبدئي في طرق تنظيم الاجتماع . فالاسلام يضع نظاماً للاجتماع حسب مقاصده قد فصل فيه بين دائرتي عمل الرجل والمرأة إلى حد كبير ، وحظر اختلاط الذكور والإناث بدون قيد خلقي ، ثم حسمت فيه جميع الاسباب التي تخل بهذا الضبط والتقييد. وبخلاف ذلك فإن ما تقتضيه طبيعة المقصد الذي يرمي اليه التمدن الغربي ، هو أن يدفع الجنسان - الرجل والمرأة - إلى ميدان مشترك في الحياة وترفع من بينهما جميع الحجب التي قد تحول دون اختلاطها الحر ومعاملتها المطلقة ، وان تتاح لهما الفرص الكاملة غير المحدودة لاستمتاع أحدهما بجمال الآخر ومحاسنه الجنسية .

ولك ان تقدّر منه أنه ما أمكر القوم الذين يريدون بجانب أن يتبعوا التمدن الغربي ، ثم يحتجون لقطعهم ذلك بقوانين النظام الاجتماعي الاسلامي ، وما أكبر خداعهم هذا الذي يخدعون به أنفسهم أو غيرهم . إن أقصى ما أوتيت المرأة من الحرية في الاجتماع الاسلامي هو أن تبدي وجهها ويديها إذا دعت الضرورة ، وأن تخرج من بيتها لأوان الحاجة ، ولكن هؤلاء يعملون هذا الحد الأقصى من حريتها نقطة البدء وبداية

المسير ، فيقومون من آخر حدود الاسلام ويتقدمون في سبيل الحرية ويعمنون ، إلى أن يخاموا عن أنفسهم كل الحياء والاحتشام . فلا يقف الامر بإنائهم عند إبداء الوجه واليدين ، بل يجاوزه إلى عرض الشعر المسرح والذراع المكشوفة والنحر العريان أو شبه العريان ، ولف ما وراء ذلك من محاسن الجسد ومفااته في لباس شفاف يمث عن كل ما يرضي شهوة الرجال . وهذه الهيئة لا تبدو فيها الازواج والبنات والاخوات أمام محارمن فقط ، بل يخرجن بكل تبرج من بيوتهن ويعشن في الاسواق ويتعلمن في السكيات مع الرجال ويأتين الفنادق والمسارح ، ويباح لهن من التكلم والمداعبة مع الاجانب ما لا يباح لهن في الاسلام حتى مع إخوانهن ! وتُحمل رخصة الاسلام للمرأة في الخروج من البيت عند الضرورة وبشرط مراعاة حدود الستر والتزام الحياء ، على ان تغدو وتروح في الطرقات وتغشى المنزهات وتتردد إلى الملاعب والسينما مرتديةً أجمل الملابس الجذابة وأفتنها للناظرين بالحركات المغرية والنظرات الجريئة . ويتخذ إذن الاسلام المرأة في ممارسة أمور غير الشؤون المنزلية ذلك الإذن المقيّد المشروط بأحوال وضرورات خاصّة - يتخذ حجةً ودليلاً على أن تودّع المرأة المسلمة كالفرنجية جميع تبعات الحياة المنزلية وتدخل في النشاط السياسي والاقتصادي والعمراني ، فتُسار الرجل وتسمى معه بل تسابقه في كل ميدان من ميادين العمل !

وإذا كان الامر واقفاً عند هذا الحد في البلاد الهندية ، فإنه قد طغى كل الحدود في بعض البلاد المسلمة حيث قد وثب به أولئك الاحرار

في سياستهم ، العبيد في عقليتهم أشواطاً طويلاً ، فقد أصبحت النساء المسلمات عندهن يلبس عین اللباس الذي تلبسه المرأة الأوربية ، حذو القنطرة بالقنطرة . وأدهى من ذلك وأمر أن تنشر المجلات من صورهن ما ترى فيه إحداهن في لباس السباحة على شاطئ البحر ، ذلك اللباس الذي لا يستر من جسدها إلا الربيع ويكشف الثلاثة الأرباع الباقية كل الكشف . وحتى ذلك الربيع لا يستره إلا بحيث تبدو من خلاله جميع مفاتيح الجسم من أحناء وتواءات .

ولا ندري أي القرآن او الحديث يُستخرج منه جواز هذا النمط المبتذل من الحياة . وإنكم يا إخوان التجدد إن شاء أحدكم أن يتبع غير سبيل الاسلام فهلا يجترىء ويصرّح بأذنه يريد أن يبغى على الاسلام ويتفلسف من قانونه ؛ وهلا يربأ بنفسه عن هذا النفاق الذميم والخيانة الوقحة التي تزين له أن يتبع علناً ذلك النظام الاجتماعي وذلك النمط من الحياة - الذي 'يحرّم' الاسلام كل شيء من مبادئه ومقاصده وأجزائه العملية - ثم بخطو الخطوة الاولى في هذا السبيل باسم اتباع القرآن كمي ينخدع به الناس فيحسبوا أن خطواته التالية أيضاً موافقة للقرآن.

### غابتنا في هذا الكتاب

هذا هو حال المسلم في هذا العصر الحديث . فبين يدينا الآن وجهاً اثنان للبحث ، منضعها نصب عينينا ، إن شاء الله في هذا الكتاب .

أولها أننا نريد أن نشرح نظام الاسلام الاجتماعي ونبينه لجميع بني آدم - مسلمين كانوا او غير مسلمين - ونوضح لهم المصالح التي من أجلها شرع الحجاب في هذا النظام .

والثاني أننا نريد أن نضع بين أيدي مسلمي هذا العصر أحكام القرآن والحديث ، ونضع أمامهم بازائها نظريات التمدن والاجتماع الغربيين . وثمراتها ونتائجها ، حتى يختاروا لانفسهم أمراً بعينه من الامرين ، شأن أهل الرزانة والجد ، ويتركوا موقفهم الحاضر الذي هو أجدر بذوي النفاق ، فيما أن يتبعوا احكام الاسلام ، إن كانوا يريدون أن يبقوا مسلمين ، أو ان يقطعوا صلتهم عن الاسلام ، إن كانوا مستعدين لقبول تلك المواقب الوخيمة التي سيسير النظام الاجتماعي الغربي بهم إليها لا محالة .

## النظريات

إن الاسباب التي من أجلها يطعن الطاعنون في الحجاب ليست من النوع السليبي وكفى ، بل هي قائمة في الحقيقة على أساس إيجابي تؤزّره الحجة والبرهان . وليس مبعثها أن القوم يرون قرار النساء في البيوت وخروجهن منها متواريات بالحجاب نوعاً من التقيد والتضييق لا يجوز ، فيريدون الغاءه . بل الأمر أن نُصَبَ أعينهم صيغة اخرى لحياة المرأة ، وهم يستقلّتون بنظرية في علاقة ما بين الرجل والمرأة ، فيودّون ألا تفعل المرأة ماهي فاعلة الآن ، بل تخرج من طورها الحالي وتفعل ( شيئاً آخر ) ولما كان الحجاب وملازمة البيت حائلاً بينها وبين تلك الصيغة المنشودة من الحياة ، وعائقاً لها من أن تفعل هذا الشيء الآخر ، فانهم يُمنحون على الحجاب بعارضونه ويعترضون عليه .

فلننظر ماهو ذاك ( الشيء الآخر ) ، وماذا وراءه من نظريات . ومبادئ ؟ وما هو مبلغه من الصحة ؟ وإلى أي حد يستسيغه العقل ؟ وما هي النتائج التي قد ظهرت له بالفعل ؟ وبديهي أننا إن سلّمنا بنظريات هؤلاء القوم ومبادئهم كما هي بدون نقد أو تجريح ، فلا جرم أن يعود

الحجاب شيئاً باطلاً ويقوم البرهان على ضلال النظام الاجتماعي الذي من أجزائه الحجاب ، ولكن ما المبرر لأن نسلّم بنظرياتهم تلك بدون أن ننتقدها ونخبرها على محك العقل والتجربة ؟ وهل يكفي كون أمر من الأمور جديداً مستحدثاً ، وكونه في الدنيا رائجاً مقبولاً لأن يقبله المرء ويؤمن به بدون تحقيق أو تمحيص ؟!

### نصور الحرية في القرن الثامن عشر

إن أساطين الفلسفة والأدب وأقطاب العلوم الطبيعية ، الذين رفعوا لواء الإصلاح في القرن الثامن عشر ، كانوا - كما سبق لنا الإشارة - يجاهون نظاماً للتمدن فيه أنواع من القيود والسدود. وفيه صلابة من غير مرونة ، وعُسْر من غير يُسر ، طائفاً بالتقاليد النائية التي لا يقبلها الطبع ، والضوابط الجامدة والطرق المناقضة للفطرة والعقل . وزاد طينه بلة انحطاط القوم المتواصل على طول القرون ، فجعله عقبةً كأداء في كل طريق للرفق . فبجانب كانت النهضة العلمية والعقلية الجديدة تبث في نفوس الطبقة المتوسطة أشد الميل إلى التقدم والنبوغ بالعمل والاجتهاد الذاتي . وبجانب آخر كانت على رؤوسهم طبقة الامراء والزعماء الدينيين تبالغ في شدّهم بالاغلال التقليدية . فمن الكنيسة إلى الجندية والقضاء ، ومن قصور الامارة إلى المزارع ودور التجارة . . . كل شعبة من شعب الحياة وكل مؤسسة للتنظيمات الاجتماعية كانت تجري على نظام يتيح لبعض الطبقات المخصوصة - بحجة امتيازاتها القديمة وحقوقها المتوارثة - ان تعسف وتجوّر

على من لا ينتمي إليها من الماملين الناهضين، فتذهب بنار أعمالهم وتستأثر بنتاج مواهبهم وكفاءاتهم ، فكل محاولة يقوم بها القائمون لاصلاح تلك الحال كانت تخيب وتفشل بإزاء أثره الطبقات المسيطرة وجباتها . لهذه الاسباب كلها غدت الطبقات الناشدة للاصلاح تثور في نفوسهم مع الايام كأثره الانقلاب الجائحة ، حتى غلبت عليهم وعمتهم آخر الامر نزعات البغي والثورة على هذا النظام الاجتماعي بجميع شعبه وأجزائه . وراج بين الناس نظرية متطرفة في الحرية الشخصية ترمي إلى اعطاء الفرد الحرية التامة والإباحية المطلقة بازاء المجتمع . فأصبحوا ينادون بأنه يجب أن يكون للفرد الحق المطلق في عمل ما يشاء والحرية الكاملة في ترك ما يشاء وليس للمجتمع أن ينتزع منه الحرية الشخصية . وأما الحكومة فواجبها أن تحافظ على هذه الحرية التي يتمتع بها الفرد في تصرفاته . وأما المؤسسات الاجتماعية فينبغي ألا تكون غايتها سوى إعانة الفرد على تحقيق مقاصده .

هذا التصور المغالي للحرية ، الذي كان في الحقيقة نتيجة غضب وسخطٍ على نظام اجتماعي قائم على الظلم والحيث ، كان يحمل في مطاويه أسباب الفساد الأكبر . والذين تقدموا بهذا التصور بادىء ذي بدء ، ما كانوا بأنفسهم عارفين بنتائجه المنطقية . ولعل أرواحهم كانت تهتز من الذعر ، لو تمثلت أمام أعينهم تلك النتائج التي كانت ستؤول إليها من هذه الإباحية المطلقة والفردية العاتية الباغية ضربة لازب . إنما أراد أولئك أن يتخذوا هذا التصور المتطرف أداة لمنع تلك الشدائد الظالمة ولفك تلك القيود الثقيلة غير العادلة التي كانت توجد في مجتمعهم ، ولكن تأصل

هذا التصور آخر الأمر في الذهن الغربي واصبح ينمو ويزكو  
ويؤتي أكله .

### تغيرات الأحوال في القرن التاسع عشر

فهذا التصور المتطرف للحرية هو الذي حدثت بفعله الثورة  
الفرنسية الكبرى<sup>(١)</sup> . فجاءت تبطل كثيراً من النظريات الخلقية  
القديمة وتهدم القواعد المدنية والدينية العتيقة . ولما تحقق عند أصحاب  
الثورة أن سقوطها وانهدامها كان سبيل الرقي ومبعث الحرية ، امتنعتجوا  
منه وقرروا أن كل نظرية وكل طريق عملي نزل اليهم من السلف ، عقبة  
معتضة في طريق الرقي والازدهار ، ولا يمكن التقدم الى الامام بدون  
إزاحتها عنه . لذلك ما إن فرغ رجال الثورة من ابطال المبادئ الخاطئة

---

(١) من هذا التصور للحرية الفردية تولد النظام الرأسمالي الحالي ، ونظام التمدن  
الديمقراطي والاباحية الخلقية ( Licentiousness ) . وجرت هذه النظم على  
أوروبا وأميركا من الظلم والعدوان في مدة قرن ونصف تقريبا ما حمل الانسانية على  
البغي والتمرد عليها . ذلك بان هذه النظم أباحت للفن إثارة مصلحته على مصالح الجماعة  
ومنافعتها وقرقت شمل الحياة الجماعية . فكانت الاشتراكية ( Socialism )  
والفاشية نتيجتين لذلك البغي والطغيان . إلا أن هذا الإصلاح والتعمير الجديد جاء منذ  
بدايته منظويا على نوع آخر من الفساد ، هو أنه قد أريد به إصلاح شيء متطرف  
بآخر مثله في التطرف . فينا كان خطأ تصور الحرية الشخصية في القرن الثامن عشر  
أنه كان يضحى بالجماعة لاجل مصلحة الفرد ، إذ خطأ تصور ( الجماعة ) في القرن  
العشرين هو من جهة أنه يريد أن يضحى بالفرد لاجل مصالح الجماعة . وأما النظرية  
المعتدلة المتوسطة لصلاح الانسانية ، فلا توجد في دنيا العمل اليوم ، كما لم يكن لها في  
القرن الثامن عشر وجود !



اللتعاليم الخلقية المسيحية ؛ حتى أنَحُوا بِمَوَل انتقامهم على التصورات  
الاساسية لنظام الاخلاق الانسانية ، يجرّحونها ويشكّكون فيها  
ويتساءلون : ماهذا العفاف ؟ وما هذا الظلم والتضييق على الشباب الجامع  
بقيود التقوى ؟ وأي نازلة تنزل بالأرض إن أحب المرء حبيبةً بدون  
زواج ؟ ثم اذا تزوّج المرء فهل يُفارق قلبه ، حتى يُحرّم عليه الحب  
فيما بعد ؟ فمثل هذه الأسئلة أخذت تنشأ وتُوجّه من كل جانب في  
المجتمع الانقلابي الجديد . وأثار ضجتها - بوجه خاص - الطبقة المنتمية  
الى المذهب الرومانتيكي (Romantic School) . كانت جورج صاند  
(Georg Sanb) زعيمة هذه الطبقة في مطلع القرن التاسع عشر . فبدأت  
بنفسها بالخروج على جميع المبادئ الخلقية التي مازال عليها مدار الكرامة  
الانسانية ، وعفاف المرأة على الأخص ، منذ الازل . اذا اتخذت الاخذان  
على كونها متزوّجة من رجل ، حتى آل الامر بينها وبين زوجها الى  
الفرقة . وغدت بعد ذلك تستبدل زوجاً بزواج ، ولم تعاشر أحداً منهم  
أكثر من عامين ويحد القارىء في ترجمة حياتها أسماء ستة اشخاص  
على الاقل كانت تخادهم علناً . ويصفها أحد هؤلاء الاصدقاء  
الستة بما يأتي :

« من عادة جورج صاند انها تصيد فراشة هائلة بجبالها ، فتحبسها  
في قفص من الرياحين والازهار ، وتمتّع بنظرها . . . وهو دور  
حبيبتها وإقبالها . ثم تأخذ بعد ذلك توجع الطائر المسكين بوخز الإبرة  
وتلنّذ بما ترى من غلظه واضطرابه . . . وهذا عهد نفورها وإدبارها ،

ولا بد من معاناة شدائد هذا العهد لكل من شاء له القدر أن يقع في  
إسارها. ثم تعود فتجزّ أجنحة الفراشة المذبذبة وتعدو تشرحها وتحملها،  
حتى تلقى بها أخيراً الى جملة الفراش التي تتخذ منها أبطالاً لرواياتها .

وكان من بين عشاقها أيضاً الشاعر الفرنسي الفرد موسه  
(Alfred musse) الذي بلغ من نفسه الأسى والالم من جفاء عشيقته  
أن اوصى حين وفاته : الا "تحضرن" جنازته جورج صاند . فهذه هي  
الأخلاق والسلوك العملي الذي كانت عليه تلك الزعيمة العظيمة التي  
بقيت تؤثر في نفوس النشء الفرنسي أبلغ الأثر بكتاباتها الغضة-  
الرائعة . وقرأ ماتكتب عن (ليليا) إلى (استينو) في روايتها المشهورة  
ليليا (Lelia) :

«كلّما أسترى من النظر في هذه الدنيا وأتقدم في تجاربها، أستشعر بمدى  
الخطأ البعيد في أفكار شبيبتنا، فما أخطأ الفكرة القائلة-يا صديقي- بأن الحب يجب  
أن يكون مقصوراً على حبيب واحد. ثم يكون ذلك الحب المحدود مستولياً  
على القلب نافذاً آمنه إلى الصميم، ويجب أن يكون أبدياً سرمدياً.. لا ريب أنه  
ينبغي للمرء ان ينفس ذرعه لجميع الافكار والنظريات المختلفة. ومن ثمّ انا  
أعترف بأنه يحقّ لبعض النفوس أن تلتزم الوفاء في حياتها الزوجية .  
ولكن الحق أن أكثر النفوس لها حاجات أخرى وفيها مواهب  
وكفاءات لا وراء ذلك . ويلزم لذلك أن يتسامح الجانبان فيما بينهما وبرضى  
أحدهما الآخر بالحرية في الفكر والعمل ، ويدحر من نفسه الأثرة التي

تبعث في النفوس الحسد والغيرة والمنافسة... كل أصناف الحب صحيح ، شديداً جامعاً كان أو هادئاً معتدلاً ؛ وشهوانياً كان أو روحياً ، وأبدياً كان أو عارضاً متحولاً ، وسواء أكان يدفع الناس إلى الانتحار أو يُدخل عليهم المتع والذات ؛ وفي رواية لها أخرى جاك ( Jacques ) تذكر جورج صائد صفة الزوج الذي كان أمثل نموذج عندها للزوجية . وذلك أن امرأة بطل الرواية ( جاك ) تتعلّق أجنياً وترقي في حضنه ، فلا يبغضها عليه الزوج السّمح الواسع الظرف ولا يفر منها . ويبين السبب في عدم نفوره منها . بقوله : « ان الزهرة التي تنفوح لأحدٍ غيري وتُمتّعه برّياها ، مالي اداكها بيديّ أو أطاها تحت قدمي » . وتمضي الكاتبة في روايتها وتقول في مقام آخر منها على لسان ( جاك ) :

« لم أبدل رأبي ، ولم أصالح المجتمع ، وإن النكاح في رأبي لأفظح الطرق الاجتماعية وأكثرها همجية » . وإن كُتِبَ للجيل الانساني أن يتقدّم حقاً في طريق العقل والمدل ، فليأتين عليه حين من الدهر يُبغى النكاح ويستبدل به طريقة أخرى لا تقلُّ عنه قداسةً وطهراً ثم تكون أدنى منه إلى التهذيب والانسانية . حينئذٍ سيتألف الجيل الانساني من رجال ونساء متساعين لن يتحجّر أحدهم منهم على حرية الآخر . أما الآن فقد بلغ من أثره الرجال وفُسولة النساء ألاّ يطالب أحد منهم بقانونٍ أكرم وطريقةٍ أمثل من هذا القانون . وما دام القوم

على هذه الحال من فَقْد الصلاح وضعف الضمير ، فليَرسفوا في هذه القيود الفادحة ، ولا أبالي . »

هذه الافكار ، تقدّموا بها حوالي سنة ١٨٣٣ م . وهي أقصى ما استطاعت جورج صاند أن تُؤمن إليه . أما الماضي بهذا التصوّر إلى نهايته المنطقية ، فلم تجترأ عليه حتى هذه الزعيمة ، إذ كانت مع كل حريتها الفكرية واستنارتها العقلية ، لا يخلو ذهنها من ظلمة الاخلاق المتوارثة القديمة . ثم خلفتها في أرض فرنسا بعد ثلاثين سنة ونيف ، طائفة أخرى من رجال الادب وعلماء الاخلاق وكتّاب المسرحيات ، كان على رأسهم الكسندر دوما ( Alexander Dumas ) والفردناك ( Alfred Naquet ) استفرغوا جهودهم لإشاعة الفكرة القائلة بأن الحرية والتمتع بلذات الحياة في ذاته حق فطري للانسان ، ومن عدوان المجتمع على الفرد أن يقيّد حقه هذا بسلاسل الاخلاق والتمدّن وبينما كانت المطالبة بحريّة الفرد في أعماله تُقدّم فيما قبل باسم عاطفة الحب المقدّسة ، استضعف المتأخرون هذا الأساس الماطني المحض ، فاجتهدوا لدعّم الحرية الشخصية والجموح والفوضى الفردية ، على أسس محكمة من العقل والحكمة والفلسفة . حتى يأتي الفتية والفنيات كلّ ما يشاؤون بقلوب هادئة وضامئ مطمئنة ، ولا يجترأ المجتمع على التشكي من غلواء شبابه ، بل يستحسنها منهم ويمدّها جائراً في شرع الاخلاق .

وفي أواخر القرن التاسع عشر قام بول آدم ( Paul Adam )

وهنرى باتالى ( Henry Bataille ) وبيير لوي ( Pierre Louis )  
وكثير من الادباء غيرهم بمهمة نفخ الجراة الماسنة في الشباب ، حتى  
تتخلص النفوس من الإحجام والنكول الباقي فيها بتأثير التصورات  
الخلقية القديمة . فهذا بول أدام يسترسل في ملامه للشباب في كتابه  
( La moral - de - L'amour ) لسخفهم وحماتهم إذ يحاول أحدهم أن  
يقنع حبيبته أو حبيبته - صدقا وكذبا - أنه متهاك عليها متفان في حبها  
ولن يتحول عنها أبد الدهر . ويمضي بعد ذلك يقول :

والسبب في كل ذلك أن شهوة الذات - هذه الشهوة الصحيحة التي  
قد رُكبت في فطرة كل إنسان ، وليست من الإثم أو السيئة في شيء -  
تُصاب وتزدرى لغلبة الأفكار القديمة على النفوس ، فيحتال المرء بلا سبب  
لإخفائها وراء كلمات ملفقة مزوقة . ومن أكبر ما يؤخذ على الأمم  
اللاتينية أن الاثنين المتحابين منها يتأثم أحدهما من مصارحة الآخر بأنه  
لا يلاقيه ولا يجتمع به إلا للتلذذ وقضاء شهوة جسدية ليس غير .  
فينصح الشباب بعد ذلك :

« عليكم بالتهذب والتعقل والرشد : فلا تتخذوا أدوات متعتكم  
وأسياب لذتكم (١) إلها . لكم لا تنصرفون عنه إلى غيره . فإنه لأحق  
من يختار لنفسه صتما واحداً في صومعة الحب ، ويقيم على عبادته

---

( ١ ) المراد بهؤلاء الرجال والنساء الذين يستعملهم رجل أو امرأة لقضاء  
شهوته الحيوانية .

دون غيره . وإنما ينبغي للمرء أن ينتخب صاحباً جديداً لكل ساعةٍ من ساعات لذته ومجونه .

وتقدم بيير لوي هؤلاء جميعاً، فأعلن بلاء فيه أن القيود الأخلاقية حائلة في الحقيقة دون نموّ الذهن الانساني ونشوء مداركه . وما دام الإنسان لا يحطّم أثقالها ، ولا يتمتع بالذات نفسه وجسده بتمام الحرية فلا يمكنه ارتقاء عقلي أو علمي أو مادي أو روحي . فإقول هذا الأديب بكل ما وسّمه من قوة وحزمٍ أن يبرهن في كتابه أفروديت ( Aphrodite ) أن بابل والاسكندرية وأثينا وروما والبندقية وكل ما عداها من مراكز المدنية والحضارة كانت على أوج مجدها وأتمّ ازدهارها حينما كانت الميوعة والاباحية واتباع الأهواء (Licentiousness) فيها على أشدها . ولكنه لما مُنيت الشهوات الانسانية فيها بقيود الاخلاق والتزامات القانون ، تقيّدت روحُ المرء وجمدت في تلك القيود ، كما تقيّدت فيها أهواؤه وشهواته .

بيير لوي هذا كان في زمانه أديباً ذائع الصيت وكاتباً بارعاً الاسلوب . وزعيماً لمذهبٍ أدبيٍّ مستقلٍّ في فرنسا . وكان من ورائه فوج من كتّاب الروايات والمسرحيات والمتكلمين في مسائل الاخلاق ، يؤيدون فكره وينشرون دعوته . فاستنفذ قوة بياانه وإنشائه في تحسين العربيّ ومدح الحرية والانحلال في الذكور والاناث . وقد كتب في كتابه ( افروديت ) بمدح وينوء بذلك المصير اليوناني :

« إذ كانت تستطيع الانسانية العريانة - أي تلك الصورة التي هي  
 أكمل ما يمكن أن يتصور ، والتي قد علمنا عنها من أهل الديانات انها  
 قد خلقها الله على صورته نفسه - أن تعرض نفسها على عشرين ألف ناظر  
 في شخص عاهرة مقدسة ، تتكسّر في مشيتها وتتنسّي في غنجها ودلالها .  
 وحينما لم يكن الحبّ الشهواني المتناهي الدرجة - أي ذلك الحبّ السماوي  
 المقدّس الذي قد تولّدنا منه جميعاً - لم يكن إنمّا ولا عاراً ولا نجساً » .

وبلغ به الغلو في فكرته هذه أنه صرّح بدون كناية أو تعريض  
 بياي بأنه : « يجب علينا أن نستأصل بالتعليم الاخلاقي القويّ ، تلك  
 الفكرة السّميحة القائلة بأن صيرورة الفتاة أمّاً قد تكون في حال من  
 الاحوال غضاضةً أو أمراً محظوراً أساقطاً من مستوى الكرامة والشرف » .

### مظاهر الارتقاء في القرن العشرين

هذا هو الحدّ الذي بلغه الرقي الفكري في القرن التاسع عشر . ثم  
 ظهر في سماء الفكر مع بداية القرن العشرين صقورٌ جُدد ، حاولوا أن  
 يخلّقوا في سماء أعلى مما سما إليه من تقدمهم : فصدرت سنة ١٩٠٨ م  
 مسرحية لبيير وولف (Pierre Wolff) وغاستون ليرو (Caston Leroux)  
 توجد في إحدى مناظرها فتاتان تناقشان أباهما بحضور من أخيهما الشاب  
 في حريتها لأن تلقيا قلبها حينما تشاء آن ، وتبينان له كيف تكون الحياة  
 بدون الحب أمرّ من الملحم لفتاة في مستقبل الشباب . وهناك فتاة أخرى

يعذلهأ أبوها الشيخ على مخادتها لفتى ، فتُجيبه الابنة ( الآنسة ) : « لله  
كيف أفنعمك يا أبتِ : فانت تكاد لاتفهم أنه لاحق لأحد أيتاً كان ،  
في أن يأمر فتاة - ابنته كانت أو أخته - أن تُفني زهرة عمرها بدون  
أن تحب » !

وجاءت الحرب العالمية الأولى ، فزادت مسورة حركة التحرر هذه  
بل انتهت بها إلى غايتها القصوى ، وذلك أن كان أكثر الأمم تأثراً بحركة  
منع التناسل ، هي فرنسا ، فكانت نسبة المواليد فيها إلى الانخفاض منذ  
أربعين سنة على التوالي ، ولم تكن إلا عشرون مقاطعة من مقاطعات  
فرنسا السبع والثمانين ، تربو فيها نسبة المواليد على نسبة الوفيات . وأما  
المقاطعات السبع والستاتون الباقية ، فكانت نسبة الوفيات فيها أكثر من  
نسبة المواليد . وكان معدل الوفيات في بعض مقاطعاتها يتراوح بين ١٣٠  
و ١٧٠ بزاء كل مائة مولود . فلما نشبت الحرب العالمية الأولى ودفعت  
بالأمة الفرنسية إلى موقف حرج بين الموت والحياة ، أدرك أرباب فكرها  
بجثة أن هذه الأمة البائسة تفنقر إلى شباب مقاتلين ورجال محاربين ، وأنه إن  
ضُحّي - على الفرض - بذلك العدد القليل من شباب الأمة وفتيانها في  
سبيل الدفاع عن الوطن في تلك الآونة ، فإنه لن تتمكن النجاة من كرة  
« امدو » الثانية ، فكان من انبعاث هذا الشعور في نفوس الفرنسيين أن  
تملكت مشاعرهم فكرة الاستزادة من النسل ، حتى خبلتهم . وجعل  
الكتّاب والصحفيون والخطباء ، وحتى أهل الجد من رجال الدين وزعماء  
السياسة ، كلهم يهيبون بالناس ، من كل جانب ، وبصوت واحد : أن



يُكثِّروا من التوليد والتناسل ولا يبالوا القيود التقليدية من النكاح والزواج . ونادوا أن المذراء التي تتبرع برحمها للتوليد خدمةً للوطن ، تستحقّ العزّ والكرامة ، لا القتب والملام . وكان هذا العصر المضطرب بطبيعة حاله حافزاً قوياً لدعاة الحرية والاباحية ، فانتهزوا الفرصة السانحة ، وبشّوا جميع ما كان قد بقي في جعبة فكرهم الشيطاني من النظريات .

فهذا رئيس تحرير مجلة لا ليون ريبليكان ( La Lyon Republi - cain ) الذي كان من رجال الصحافة البارزين في عصره ، يبحث أنه ما المبرر لأن يُعدّ الزنا بالإكراه جريمة ؟ فيبدي رأيه بما يلي :

« إذا أعوز الفقراء القوت وحملتهم المسغبة على ارتكاب السرقة والقتل والسلب ، قيل هيئتوا لهم الخبز ، يكفّوا عن السلب والنهب بأنفسهم . ولكن ياليت شعري لماذا تأخذ النفوس هذه العاطفة - من النصح والمؤاخاة - لضرورة من ضرورات الجسم الطبيعية ، ولا تتسّع لضرورة طبيعية أخرى مثلها - لا تقلّ عنها خطورة - وهي الحب . فكما أن السرقة يلجأ إليها المرء من شدة الجوع ، كذلك ينبعث فيه الأمر الذي يؤول إلى الزنا بالإكراه وربما ينتهي إلى القتل ، من شدة إلحاح تلك الضرورة التي ليست أقلّ ركوزاً في فطرة الانسان من الظمّ والجوع ... إن من الحق أن الشاب الذي هو في عافية صحّة ووفرة قوّة ، لا يستطيع كبح جماح شهوته العارمة كما لا يستطيع الصبر على جوعه مدّة أيّام رجاء أن يجد الطعام في الاسبوع القادم . وإن افتقار أحداً إلى ما يُسكّن شهوته

الجنسية في بلادنا هذه التي تتوفر فيها كل حاجات الانسان ، لا يقل خزيًا وعارًا من فاقة أحدنا من الجوع . وإذا كنا نوزّع الخبز مجانًا على الجياع ، فيجب علينا أن نمهد الأسباب لإشباع الهالكين من جوع آخر . بقي أن نذكر أن مقالاته هذه لم تكن من باب الهزل والفكاهة ، بل كتبها الكاتب بكل جدٍ ، وقرأها الناس بحمدٍ أيضاً .

وفي تلك الايام اختارت كلية الطب ( Faculty of medicine ) في جامعة باريس ، مقالاً لدكتور فاضل ، ليمنحه شهادة الدكتوراه عليه ، فنشره في جريدتها الرسمية ، وكان من مضامينه مثل هذه العبارات :

إننا نؤمل أن يأتي علينا زمان ندع فيه الأنفة الكاذبة ، فنصرّح من غير استحياء ولا خجل ، بأننا مرضت - مثلاً - بمرض الزهري في سن العشرين ، كما أننا نقول الآن بدون تردد قد بثوني إلى الجبل لكوني مريضاً بالسل . . . ذلك بأن هذه إن هي إلا ثمن يؤدّيه المرء لتمتّعه بلذات الحياة . فمن لم يذق مرارتها وقضى شبابه سليماً منها ، فإنه لا ريب وجود ناقص لم يبلغ كماله بمد ، وقد قصر في وظيفة كانت من أبسط وظائفه الطبيعية ، لجبّنه أو لعمود غريزته أو سوء فهمه للناس عن ديانته .

### ادب الحركة الماطوسية الجبرية

ويجمل بنا ، قبل أن نظرد في البحث ، أن نلقم نظرة على

الأفكار التي قدمها القائمون بحركة منع التناسل . ولعله ما كان في  
حسبان الاقتصادي الانكليزي الاحصائي مالطوس ( malthus ) حينما  
عرض في أواخر القرن الثامن عشر اقتراحه بضبط التوليد منعا لزيادة  
العمران ، أن اقتراحه هذا سيعود بعد قرن من السنين أكبر عامل  
في اشاعة الفاحشة والفجور . فإنه لم يقصد به حينئذٍ إلا أن يُشير على  
قومه بضبط النفس وعقد الزواج في السن المتقدمة تقادياً من زيادة النسل  
وتزاحم العمران . ولكنه لما نشأت في آخر القرن التاسع عشر الحركة  
المالطوسية الجديدة (Neo malthusian movement) كان مبدؤها الرئيسي  
أن تُقضى شهوة النفس بجرية تامة ، ثم تُمنع نديجتها الطبيعية - أي الحمل  
والولادة - بوسائل العلوم التجريبية . فجاء هذا المبدأ الجديد يُزيح العقبة  
الاخيرة التي كانت عسى أن تعترض طريق الناس إلى المخادنة والمعاشرة  
الجنسية المطلقة . إذ عادت المرأة الآن تستطيع أن تسلم نفسها لأجنبي بلا  
حذر من أن تحمل منه ويقع عليها ما يتبعه من تبعات . وليس هنا موضع  
ذكر النتائج التي آلت إليها حركة منع التناسل وإنما يريد أن نسرد بعض  
النماذج من الأفكار التي قد أكتروا من بشتها ونشرها في الآداب التي  
سأرت حركة ضبط التوليد .

إن الأسلوب الذي تعرّض به هذه الآداب مقدّمة المالطوسية  
الجديدة يتلخص في أن : كل انسان يواجه - من فطرتة - حاجات  
ثلاث ، هي أشد واعنف من سائر الحوائج . أولاها حاجة الغذاء ، والثانية :

حاجة الجاهل والثالثة : الشهوة الجنسية وقد ثبتت القدر جميع هذه الحاجات في نفس المرء تمييزاً ، وجعل له في قضائها لذّة مخصوصة حتى يرغب فيها ، ويحرص عليها فمن مقتضى العقل والمنطق ان يشب المرء الى تحقيق تلك الحاجات . وهو يفعل ذلك في الواقع بالنسبة للحاجتين الا انه من العجب أن صنيعه بشأن الثالثة يختلف عن صنيعه في الاولين اذ تلتزمه الاخلاق الاجتماعية بان لا يحقق شهوته الجنسية إلا في حدود النكاح . ثم توجب على الرجل والمرأة المرتبطين برباط النكاح ان يلتزما الوفاء والتعفف ، وتشترط عليها فوق ذلك كله الا ينمسا التوليد . كل هذه الامور عبث وباطل ، ومناقضة للعقل والفطرة ومخطئة في صميمها ومبادئها وعائدة على الانسانية بأسوأ المواقف .

فانظر الآن هيكل الانكار الذي يُشاد على هذه المقدمات الاساسية . يكتب بيبيل زعيم الحزب الديمقراطي الالمانى بلا تحرج :

« وهل الرجل والمرأة الا نوع من الحيوان ؟ وهل يكون بين أزواج الحيوانات شيء من قبيل النكاح ... بله النكاح الابدى ؟ »

ويكتب كذلك الدكتور دريسدل (Drysedale) :

« ان الحب كسائر رغباتنا وشهواتنا شيء قابل للتغير فحصره في طريقة مخصوصة ادغال في قوانين الفطرة . وان شبابنا يميلون بطباعهم الى هذا التغير بوجه خاص ونزعتهم هذه مطابقة لذلك النظام المنطقي

الفطري الذي يتقاضى الانسان ان تكون تجاربه في الحياة متنوعة متلونة...  
 ان العلاقة المطلقة من قيد النكاح مظهرٌ للخلق العليّ  
 لأنها ادنى الى نواويس الفطرة ، ولأنها تنشأ عن العواطف والأحاسيس  
 والحب المحض مباشرة . وان الشوق والنزوع الذي تولّد منه هذه  
 العلاقة ، شيء عظيم القدر غالي القيمة في الاخلاق . وأنسى تيسر هذه  
 الميزة لتلك المعاملة التجارية التي تجعل من النكاح في الحقيقة مهنة  
 (Prostitution) يُحترف بها .

فانظر كيف تبدّل النظرية - بل كيف تنقلب رأساً على عقب .  
 فبينما كان يحاول القوم فيما قبل ، ان يحجوا عن النفوس فكرة استئناس  
 الزنى ، حتى يستوي النكاح والسفاح في نظر الاخلاق ، اذ هم يجاوزون  
 ذلك الى ان يحطّوا من قدر النكاح فيجعلوه ناراً وبرفموا السفاح إلى  
 درجة الفضيلة الخلقية . ويكتب هذا الدكتور نفسه في موضع آخر :

« الحاجة ماسة الى اتخاذ التدابير التي تجعل الحب بغير قيد الزواج  
 شيئاً يُجَدّ ويُكْرَم ... وما يسرّ أن سهولة الطلاق في هذا الزمان  
 لاتزال تحقق طريقة النكاح رويداً رويداً ولم يعد النكاح الآن إلا  
 معاهدة بين شخصين على المباشرة ، لها الخيار في إلغائها متى شاء : وهذه  
 هي الطريقة الصحيحة الوحيدة للارتباط الجنسي . »

ويصرح بول روبين (Paul Robin) الزعيم الماطوسي المشهور

في فرنسا :

« من المقتنم أننا قد بلغنا من النجاح في مساعينا لمدة ربع القرن الماضي أنه قد أصبح ولد الزنية في منزلة اولاد الحلال فلا يبقى بعد هذا إلا أن يكون أولادنا جميعاً من هذا النوع الاول فقط . حتى نستريح من هذه الموازنة بين النوعين من الاولاد . »

وهذا الفيلسوف الانكليزي (مل) يقر في كتابه « حول الحرية » (On Liberty) على أن يُحظر الزواج على كل من لا يستطيع أن يبرهن أنه يملك من وسائل العيش ما يكفي لحوائج الحياة . ولكنه لما نشأت في انكلترا مسألة محاربة البغاء (Prostitution) عاد هذا الفيلسوف نفسه يعارضها بكل شدة وقوة ، بحجة انها تحامل على الحرية الشخصية وإهانة للعُصَمال ، لانها بمثابة معاملة لهم كمعاملة الاحداث الصغار .

فتأمل كيف يُكبرون ويحترمون الحرية الشخصية اذا استعملها المرء في ارتكاب الفاحشة . ولكنه إن أراد هبتة - في نظرهم - أن يستعملها لمقد النكاح ، فلا يمود حقيقةً بل تراعى حرّيته او تحترم . ولا يرضى القوم ان يتدخل فيها القنون فحسب ، بل يمدُّ أحرارُ الفكر من فلاسفتهم هذا التدخل من القانون عين المُقتضى والمطلوب . وهنا يبلغ انقلاب النظرية الخلقية مداه الأبد وغايته القُصوى التي لا مطمع بعدها لطامع ، حيث ينقلب كلُّ عارٍ فضيلةً ، وتصبح كلُّ فضيلة عاراً ورذيلة .

# النّـتـائـج

من شأن الآداب أنها تتقدّم في النهج الجديد، والرأي العام يتبعها  
ويقفو آثارها ، حتى تخضع لها آخر الأمر أخلاق الامة وقواعد المجتمع  
وقوانين الحكومة كلها . وإن مجتمعاً تتفاعل فيه جميع الادوار لتربية  
الاذهان ولترويض الافكار ، كالفلسفة والتاريخ وتعاليم الاخلاق وفنون  
الحكمة ، والرواية والدرامة والمسرحيات والفن الجميل ، وتستمرّ مدة  
قرن ونصف على التوالي تُثبّت في صميم الذهن الانساني أسلوباً فكرياً  
بمينه ، فلا يمكن أبداً ألاّ يتأثر ولا يفعل بذلك الاسلوب الفكري .  
ثم ان كان نظام الحكومة وسائر الادارات الاجتماعية في ذلك المجتمع  
قائمة على المبادئ الديمقراطية ، فلا يمكن فيه كذلك ألاّ تبدّل  
القوانين بتبدل الرأي العام .

## الثورة الصناعية وآثارها :

من غرائب الاتفاق أنه قد واثت هذا الانقلاب الفكري ، وهو  
في صدر شبابه ، أسبابٌ تمدنية اخرى . ففي هذا العصر قامت الثورة

الصناعية الشهيرة . وأعقبها تغيرات هامة في الحياة الاقتصادية ، كان من آثارها المترتبة على الحياة التمدنية ما هو عَوْنٌ على تحويل وجهته سَيَرُ الاجتماع الى حيث تريد الآداب الانقلاية ان تحوّلها . وذلك أن تصوّر الحرية الشخصية ، الذي نشأ عليه النظام الرأسمالي ، جاءت الاختراعات الميكانيكية وإمكانات وفرة الانتاج الصناعي Mass production تحكمه وتقويه . فأقامت الطبقات الرأسمالية مؤسسات صناعية وتجارية كبرى . ونحوّت المراكز الجديدة للصناعة والتجارة الى مُدن عامرة . أصبح ينجرُّ اليها من اقصى والارياف أضعاف الملايين من النفوس . وغلّت تكاليف الحياة غلاء فاحشاً . وارتفعت أسعار الحاجات للحياة ، من الطعام والملبس والسكن ، الى ما فوق طاقة العامة . زد على ذلك أن أضيف الى حاجات الحياة ما لا يحصى من وسائل المعيشة المتجددة ، لاسبابٍ راجع بعضها الى ارتفاع التمدُّن وبعضها الى مساعي أهل الثروة . ولكن النظام الرأسمالي لم يوزّع الثروة بين الناس بما يكفل للجميع وسائل الحصول على تلك المُتَع والذّات وادوات الزينة والزخرفة التي أدخلها في لوازم الحياة بل هو لم يهبىء للعامة من وسائل المعاش ما يسدّون به عوزهم بسهولة من حاجات الحياة الحقيقية - وهي السكنى والطعام واللباس - في تلك المدن التي قد زجّ بهم اليها . كان من نتائج ذلك أن أصبحت المرأة كلاً على زوجها ، وأصبح الولد عبثاً على أبيه . وتمذّر على كل فرد أن يقيم أوّد نفسه ، فضلاً عن أن يمول غيره من المتعلّقين به . وقضت الاحوال الاقتصادية أن يكون كل واحد من أفراد المجتمع



عاملاً مكتسباً . فاضطرت جميع طبقات النساء - من الابطكار والايامي  
والثيبات - أن يخرجن من بيوتهن لكسب الرزق رويداً . ولما كثر  
بذلك اختلاط الصنفين واحتكاك الذكور والاناث ، واخذت تظهر عواقبه  
الطبيعية في المجتمع ، تقدم هذا التصور للحرية الشخصية وهذه الفلسفة  
الجديدة للاخلاق ، فهذا من قلق الآباء والبنات والإخوة والاخوات  
والبعولة والزوجات ، وجملاً نفوسهم المضطربة تطامن إلى ان الذي هو  
واقع أمام أعينهم ، لا بأس به ، فلا يوجد منه خيفة ، إذ ليس ذلك  
هبوطاً وتردياً ، بل هو نهضة وارتقاء ( Emancipation ) ، وليس فساداً  
خلقياً ، بل هو عين اللذة والمتعة التي يجب أن يفتن بها المرء في حياته .  
وان هذه الهاوية التي يدفع بهم اليها الرأسمالي ، ليست بهاوية النار ، بل  
هي جنة تجري من تحتها الانهار .

### اثرة الرأسماليين

وما وقف الأمر عند هذا الحد . بل جاء النظام الرأسمالي الذي  
رفعت قواعده على هذا التصور للحرية الشخصية ، فمنح الفرد حقاً مطلقاً  
من كل قيد أو شرط ، في اكتساب الثروة بكل ما أمكنه من الطرق . وتبعته  
فلسفة الأخلاق ، فأباح له كل وسيلة يمكن أن تستخذ لجمع الاموال ،  
وإن كان إثراء الفرد الواحد بتلك الوسائل والطرق مهلكة أفراد  
كثيرين . وبذلك تألف نظام التمدن من أوله إلى آخره على صورة  
تؤثر الفرد على الجماعة من كل وجهة ، وليس فيها ضمان للمحافظة على

مصالح الجماعة بإزاء أثره الفرد . فانفتحت السُّبُل على إخوان الطمع والأثرة ليعيروا ويعتدوا على المجتمع كيف يشاؤون . فعمد هؤلاء إلى الفرائز الانسانية بتجسُّسون فيها مواطن الضعف والخلل ، وراحوا يتفتنون في استغلالها لاغراضهم . فقام واحد منهم ، وروج في الناس سيئة الخمر ، جلباً للثروة إلى جيبه ، ولم ينهض منهم من يُنقذ المجتمع من غوائل هذا الطاعون . وقام آخر ، وابتلى خلق الله بآفة الربا ونصب شبكته في القاصية والدانية ، وما هنالك من يدفع عن دماء حياة الناس . ضرَّ هذا العلق ، بل حافظت القوانين على مصلحة هذه الدويبة الفتَّاكة كي لا يسلم منها أحد بقطرة من دمه . وجاء ثالث . وأشاع في المجتمع طرْقاً مبتكرةً للقمار ، حتى لم تسلم شعبة من شعب التجارة من عُنصره ، وما ثمة من يتقدّم لحفظ الحياة الاقتصادية من هذه الحُمى المحرقة . وما كان من الممكن في هذا العصر من الانانية والبغي والعدوان الفردي ، أن يعزُبَ عن إخوان الأثرة والطمع ذلك الضعف الانساني الاكبر، الشهوة الجارحة التي يمكنهم باستئثارها جلب كثير من المنافع . فلم يفتهم ذلك فعلاً . بل استخدموا غريزة الشهوة العارمة في الانسان ما وسعهم وما أمكنهم . إذ أصبح مدار العمل والعناية كله في المراقص والمسارح ومرا كز اخراج الافلام على أن تُستخدم لها الغيد الحسن ، ويُعرضن على النصبة في صورة أكمل من التبرُّج ، وفي هيئة أقرب إلى العُري ، ويُجلب الذهب من جيوب الرجال بأكثر مما يمكن من إضرار نار الشهوة فيهم . وجاء قوم ، فهّدوا الاسباب لإكراه النساء ، وتقدّما بحرفة البغاء إلى أن أصبحت

تجارة دولية منظّمة . وجاء آخرون ، فتفتّنوا في صنع أدوات الزينة والزخرفة ، ثم عموها في المجتمع ، ليزيدوا من غريزة التبرج التي أُجبلت عليها المرأة ، إلى أن يجمّلوها فيهن هوساً ، ويجمعوا بذلك الذهب والفضة ملء أكفهم . وجاءت فئة أخرى ، فاخترعوا الملابس النساء أزياء كاشفة مغرية ، واستخدموا كل فائدة الجمال ، لتلبسها وتفتش بها النوادي والحفلات حتى يُقبل عليها الشباب ويُفتنوا بها ، فتُغرم الفتيات بتلك الأزياء الجديدة من اللباس ، وتربيع تجارة مخترعيها . واذرّع آخرون بإشاعة الصور العارية والقصص الغرامية والمقالات الخليعة ، إلى استدرار الاموال ، وأخذوا كذلك يملؤون جيوبهم بإصابة العامة بالجرام الخلق ، حتى انتهت الحال ، على مضي الأيام ، الا أن لم تبق ناحية من نواحي التجارة خالصة من عنصر الإغراء . وهأنذا صرت لا ترى في زمانك هذا إعلاناً من الاعلانات التجارية في الجرائد والمجلات ، إلا وسيمنته الملازمة البارزة صورة امرأة عارية أو في حكم العارية . كأنه لم يعد من الممكن أن يكون إعلاناً ما وافياً بالفرض بدون وجود المرأة . ولا تجد كذلك فندقاً من الفنادق ولا مقهى ، ولا صالة عرض ، الا وقد استخدمت فيها المرأة لتعمل عملها المغناطيسي في الرجال . وكان المجتمع المسكين المخدول لا يملك - حيال ذلك كله - إلا وسيلة واحدة للمحافظة على مصالحه ، وهي أن يستعين بتصوراته الخلقية على دفع تلك الغارات عن نفسه ، ويتحفظ من استيلاء غريزة الشهوة عليه . ولكن النظام الرأسمالي لم يكن من الضعف والهوان بحيث يمكن رده حملته بسهولة . وإنما كان من ورائه فلسفة كاملة الأداة ، وعسكر شيطاني عرمرم ، من العلوم والآداب ، كانا لا يزالان

يعملان عملها في نسخ النظريات الخلقية ومحوها عن النفوس ، ومن براعة  
القاتل - والله - أن يحمل قتيله على الاستسلام للقتل بطيب خاطره ورضاه.

### النظام السياسي الديمقراطي

وما انتهت النكبة بهذا كله . بل جاء هذا التصور نفسه للحرية  
فأنتجَ في الغرب نظام الحكم الديمقراطي الذي أصبح ، على الأيام ،  
أقوى سبب لاستكمال هذا الانقلاب الخلقى .

ان المبدأ الرئيسى الديمقراطية الجديدة أن الناس يبد أنفسهم حكمهم  
وتشريعهم ، وإلى أنفسهم كل التصرف في القوانين ، يضمنونها كإشأؤون  
ويبدلونهم حسب ما يرضون إذا كرهوا فيها أشياء . فمن النتائج الطبيعية  
لهذا المبدأ أنهم لا يسلطون بسلطة قاهرة من فوقهم تنزله عن نقائص  
الطبع البشرى وضعفه ، فيتجنب الإنسان ضلال الفكر والعمل باستسلامه  
لهدائتها . وأنه ليس عندهم قانون أساسي يثبت على غير الإزمان ويتعالى  
عن أن يتدخل في شأنه الإنسان ، ويؤمن بكون مبادئه أبدية لا تقبل  
النسخ ولا التبديل . ثم إنهم لا يجدون مقياساً يتمتعن به الصحيح من  
الزائف ، لا يعمل مع الأهواء والرغبات الإنسانية بل تكون صفته الدوام  
والاستحكام . وهكذا جاءت النظرية الجديدة للديمقراطية فأزلت الإنسان  
منزلة المختار المطلق الخلقى من كل مسئولية ، وجعلته شارع نفسه بنفسه  
وجعلت مدار كل نوع من التشريع على الراى العام لحسب .

ومن البديهي أنه اذا كانت قوانين الحياة الجماعية كلها تابعة الراى  
للعام ، وكانت الحكومة كالعبد لإله هذه الديمقراطية الجديدة ، فلا يمكن

سلطات القانون والسياسة أن تصون المجتمع عن الانحلال الخلقى ... وماذا أقول ، بل هي تعود بنفسها عوناً على إفساد المجتمع ودفعه إلى المهالك . ذلك بأن كل تغيير في الرأي العام يتبعه لاحالة تغيير في القانون ، وتبديل مبادئه وضوابطه مع تبديل نظريات العامة حتى تلائمها وتطبق عليها . ولا يكون للحق والخير والصالح مقياس غير كثرة الاصوات بحق هذا الجانب أو ذلك . وان اقتراحاً مهما بلغ من خبثه وضرره ، ان كان قد نال من رضى العامة ما يكسبه ٥١ صوتاً في المائة ، فلا شيء يمنعه من أن يسمو إلى مرتبة الشرع . ومن أقبح الامثلة لذلك وأجدرها بالاعتبار ما حصل في ألمانيا قبل العصر النازي . وذلك أن فاضلاً من أبنائها يدعى الدكتور ماغنوس هرشفيلد (Magnuz Hirschfeld) وكان في الماضي رئيساً لرابطة الاصلاح الجنسي العالمية (World League of Sexual Reform) قام فيها بأشد ما يكون من الدعاية بحق "سوءة قوم لوط مدة ست سنين ، حتى رضى إله هذه الديمقراطية ان يحلل هذا الحرام ، فقرر المجلس التشريعي الألماني بأكثرية الاصوات ، أن لم يعد الآن هذا الفعل جريمة . بشرط أن يرتكب برضا الجانبين . وان كان المفعول به دون سن البلوغ فيمكن الرضا بيد وليه في هذا الشأن .

على أن القانون بطيء بطبيعة حاله في الخضوع لهذا الإله الديمقراطي . ولا ريب أنه يتبع أوامره وينزل على ارادته ولكن بشيء من التواني والتكاسل . وهذا التقصير الذي يبقى في عبوديته الكاملة للمعبود الديمقراطي ، تداركه الايدي العاملة في جهاز الحكومة . فان الذين يديرون أمور الحكومات الديمقراطية يتقدمون في هذه الجهة ويتأثرون

بتلك الآداب والفلسفات والميول العامة التي تنتشر فيما حولهم ، قبل أن يتأثر بها القانون ، فتُبَّاح بفضل عنايتهم وعطفهم كل رذيلة عمّ رواجها في المجتمع وتقبل ( رسمياً ) . وتعود كثير من الأشياء المحرّمة في القانون ، في درجة الحلال لكون الشرطة والمحكمة تتسامح فيها وتجنب تنفيذ القانون في أمرها . خذ لذلك مثلاً أمر الاجهاض الذي لا يزال حراماً في القوانين الغربية ، ولكنه ليس هناك قطر من الاقطار إلا وتُقرّف فيه هذه الجريمة الشنيعة علناً وعلى نطاق واسع . فهذه انكاثرا يسقط فيها تسعون الف حمل في كل سنة على أقلّ تقدير ، وتكون في كل مائة من المتزوجات فيها خمس وعشرون - على الأقل - إما يباشرن الاسقاط بأيديهن أو يستعنّ عليه بالمختصين . وترتفع هذه النسبة فوق هذا في غير المتزوجات ثم قد أنشئت في بعض المدن هناك نوادي منظّمة للاسقاط ، تؤدي النساء ثمن اشتراكهن فيها كل أسبوع ، لكي يتسنى لهن استخدام مختصين في الإسقاط يوم الحاجة . ويكثر في لندن عدد دور التمريض ( Nursing Homes ) التي تكون معظم المريضات فيها من المسقطات <sup>(١)</sup> ولكن مع هذا كله لا يزال الاسقاط في كتاب القانون الانكليزي في عداد الجرائم بعد .

### الحقائق والسنوهد

والآن أريد ان أبيّن بشيء من الشرح والتفصيل فساد هذه العناصر الثلاثة - أي النظريات الخلقية الجديدة ، ونظام التمدّن الرأسمالي ، والنظام السياسي الديمقراطي - وكيفية تفاعلها وتأثيرها في الأخلاق الجماعية

---

(١) هذه التفاصيل قد ذكرها الاستاذ (جود) في كتابه (Guide to Modern Wickedness) الذي صدر منذ عهد قريب .

والملاقات الجنسية بين الرجل والمرأة ، ونوعية النتائج التي قد أعقبتها في واقع الامر . ولأنه كان أكثر كلامي في الصفحات الماضية في ارض فرنسا - التي نشأت منها هذه الحركة - فسأقدم فرنسا ايضاً في الاستشهاد بأحوالها فيما يأتي (١) .

### فدر الشعور الخلقي

ان ماذكر آتفا من النظريات . كان من اول آثار شيوعها في الناس وأبرزها ، ان اصبح يخدر فيهم الاحساس الخلقي في الشؤون الجنسية . وغاض فيهم الحياء والاحتشام ، والغيرة والنخوة ، وزال عن نفوسهم الفرق بين النكاح والسفاح ، حتى أصبح الزنا عندهم عملاً بريئاً ، لا يعاب ولا ينكر ، وليس لإخفائه من لزوم .

وإلى منتصف القرن التاسع عشر بل الى خاتمته ، لم يصب النظرية الخلقية عند عامة الفرنسيين من التغير إلا ان اصبح زنى الرجال شيئاً طبيعياً . يفضي الآباء عن دعارة ابنائهم بشرط ان لا نصيبهم بالامراض السرية ولا تدخلهم في الإجراءات القانونية ، بل ربما يستبشرون بها اذا أنسوا لهم من ورائها ربحاً مادياً ، ولا يرون غشاضة في تعلق رجل بامرأة بدون الزواج . وفي رواياتهم أمثلة من كون الآباء قد الحسوا بانفسهم على اولادهم في مخادنة امرأة ذات مكانة اجتماعية او ذات مال وثروة ، ضمناً للمستقبل الزاهر . ولكن نظريتهم بشأن المرأة كانت

(١) قد استفدت معظم هذه المعلومات من كتاب العالم الاجتماعي الفرنسي الشهير: بوليورو (Paul Bureau) المسمى: (Towards Moral Bankruptcy) الذي نشر في لندن سنة ١٩٢٥ م .

مختلفة عن ذلك جداً إلى تلك الآونة . فكان عفاف المرأة شيئاً له قدره وقيمته في كل حال . وأولئك الآباء الذين كانوا لا يرون بأساً بخلاعة أبنائهم وينسبون كل ذلك منهم إلى سورة الشباب ، ما كانوا يرضون أن يروا بأعراض بناتهم دَنَساً أو وصمة . وكانت الفاجرات من النساء لا يتبرأن من العيب كالأجربين من الرجال . وإنَّ قالة السوء التي تنصب على المومسة في المجتمع ، كانت لا تنال الرجل الذي يماشرها . وكذلك ما كانت التبعة الخلقية في الحياة الزوجية متساوية بين الرجل والمرأة فبينما كان فجور الزوج هنةً يفض عنها الطرف ، كان فجور الزوجة شيئاً عظيماً يقوم له الناس ويقعدون .

ولكن تغيرت هذه الحال مع مطلع القرن العشرين . إذ كان من آثار المساواة بين المرأة والرجل ، التي نفخت في صورها حركة تحرير المرأة ، أن جعل الناس يتهاونون بفجور المرأة كتهانواهم بفجور الرجل . ولم يعد تعلق المرأة أيضاً بالرجل بدون الزواج شيئاً يدنس عفتها وكرامتها . فيقول بول بيورو :

« لم يقف الأمر عند المدن الكبيرة فحسب ، بل قد أصبح الشُّبَّان في القرى والارياف أيضاً ، يمتدحون بأنه ليس لأحد حق في توخي العفة والبكارة في مخطوبته ، إذا كان هو نفسه لا يتنصف بالعفاف . وقد عاد من الهين المعتاد في ( برغندي ) و ( يون ) وغيرها من الأقاليم أن تكون الفتاة قد عاشرت عدةً من الأخدان قبل زفافها ، ثم لا تجد في نفسها حرجاً من حكاية قصة حياتها الماضية لحاطبها عند الزواج . وكل هذا الفجور منها لا يشير سخطاً أو كراهية حتى في أقاربها الأذنين ، بل هم



يخوضون في أحاديث غرامها بانبساط، كأنهم يتحدثون عن لعبة رياضية أو شغل تجاري . وإذا كان موعد النكاح قد دخل الزوج الذي يكون عارفاً ، لاجتماع عروسه السابقة فحسب ، بل بأخذائها الذين قد بقوا يتمتعون بجسدها إلى تلك الآونة أيضاً ، فإنه يحاول جهده ألا يبدو منه مايؤهم الناس أن بنفسه كدراً ، في شيء مما يعلم من مشاغل عروسه الماضية . ويمضي كاتبنا :

« كثير ما نعهد في الطبقات المتوسطة من المتعلمين ، حتى قد اعتدناهم ، أن فتاة متعلمة ، من أسرة كريمة ، تعمل في مكتب أو شركة تجارية على منصب لا بأس به وتعيش في مجتمع مهذب ، إذا هم استأنس بشاب ، وتروح تعاشره وتصاحبه . ولا يكون لزاماً عليها بعد ذلك كله أن يتزوجها بل هما يؤثران أن يتعاشرا بدون قيد الزواج ، لحرر أن تكون لاحدهما الحرية ، إذا شبع من الآخر وقضى لبانة نفسه منه ، أن يفارقه ويتخذ له خليلاً آخر . وكل من حولهم من الناس يعلمون هذا الوضع من علاقة ما بينهما . ثم هما يفشيان الاوساط العالية والمهذبة جنباً لجنب ، لاهما يخفيان علاقتهما تلك ، ولا يجد أحد من غيرهما سوءاً في حياتهما على ذلك النحو . وقد كان الذين جروا على هذه الطريقة بادية ذي بدء هم العاملون في المعامل والمصانع ، فلكيت من الناس أشد ما يكون من السخط والانكار لأول وهلة . ولكنها قد شاعت الآن في الطبقات العالية ، وتبوأت في الحياة الاجتماعية تلك المنزلة التي كانت للنكاح في الزمان الغابر » الصفحة ٩٤ - ٩٦

فأصبح هذا النوع الجديد من الميومة ألفها الناس ويسلمون

بوجودها الشرعي. فهذا موسيو بر تليمي أستاذ القانون في جامعة باريس يكتب : ان المومسة تكاد تنال في المجتمع نفس المنزلة التي كانت فيه للزوجة فيما قبل . فقد عاديجري ذكرها في البرلمان ، وأصبحت الحكومة تحافظ على مصالحها . ولمومسة الجندي الآن من النفقة مثل ما لزوجه . وان مات ، نالت مومسته من راتب التقاعد ما تناله الزوجة التي كان قد عقد عليها .

ولك أن تقدّر تهاون الفرنسيين بالزنى وكيفية كونه غير معيب في اخلاقهم ، أن معاملة في بعض المدارس جاءت بحمل في سنة ١٩١٨ م على كونها عذراء . وكان بين رجال المعارف أشياح للفكر القديم . فرفعوا عقيرتهم بالسخط والانكار . فوفد على وزارة المعارف نفر من أعيان الأمة ووجوهها ، واحتجوا عندها على ما فعلت المعاملة . ولكن الوزارة دافعت عنها بالحجج الآتية التي وجد فيها من القوة والرجاحة ماسوًغ ان يخلى سبيل المعاملة :

١ - ما للناس وللتدخل في الحياة الشخصية لغيرهم ؟

٢ - وما هي الجريمة التي قد ارتكبتها المعاملة ؟

٣ - ليست صيرورة المرأة أمأ بدون الزواج أدنى الى الطريق الديمقراطي ؟

ومن جملة ما يمتّم الجنود الفرنسيون من الامور الهامة ، التدابير التي ينبغي ان تتخذ لا تقاء الامراض السرية ولمنع الحمل . كأنه من المعلوم المسلم به ان كل جندي لا بد ان يزني . وفي يوم ٣ مايو من سنة ١٩١٩ م ، نشر قائد لبعض الفرق العسكرية إعلاناً للجنود التابعة له ، فيه :

«قد بلغنا ان عامة الرجال والخيلة يشكون من تراحم رجال البنادق على دور البناء الجندي فيقولون إنهم قد كادوا يستبدون بها ولا يدعون غيرهم يتمتعون بها . وإن مكتب القيادة لا يزال يسعى لزيادة عدد النساء ، حتى يكفين لجميع الجنود . ولكن قبل أن يتم ذلك ، نوصي رجال البنادق ألا يطيلوا مكثهم داخل تلك الدور ، ويتمتعوا بقضاء شهواتهم ما استطاعوا ...»

ليتأمل القارئ هذا الاعلان الذي ينشره رسمياً قسم الدفاع لدولة من أرقى دول العالم ثقافة وتهذباً . أفلا يُستنتج منه أن لم يبق في قلوبهم حبة خردل من الاعتقاد بشناعة الزنى وكونه عيباً خلقياً . وأنه قد خلا من هذا التصور عندم كل من المجتمع والقانون والحكومة (١) .

وانشئت في فرنسا قبل الحرب العالمية الاولى بقليل ، وكالة كان مبدؤها أن كل امرأة مها كانت يبتئها وظروفها وحالتها الاقتصادية وسلوكها

---

(١) وقد يقدر القارئ أن جنداً هذه حالته الخلقية ، إذا دخل فاتحاً قطراً من أفطار العالم فأى فيجعة عسى أن تصاب بها الامة المغلوبة في عفتها وطهارتها ونزاهتها على أيديه . هذا طرف المقياس الخلقى في الجنود ، يقابله طرف آخر من المقياس الذي يعرضه القرآن بقوله (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف) . فبجانب جندي يعمي في الأرض كالجل الهائج المغتلم وبجانب آخر جندي يخرج في أرض الله مستميتاً في سبيل المحافظة على الاخلاق الانسانية ودعوة أهل الأرض الى الطهارة والصلاح . أفد بلغ من عمى الانسان أن لا يدرك الفرق بين هذا وذاك ؟

العملي والخلقي، قد تُنفع بضرورة ( تجربة جديدة ) وتُحمل على ممارستها.  
فليس على من كان يودّ الاتصال بأنسة من الاوانسى إلا أن يعلم الوكالة  
بمنوان تلك الأنسة وبؤدي ٣٥ فرنكا على سبيل الاجرة البدائية ، وعلى  
الوكالة بعد ذلك أن تراود الأنسة على الأمر. ودلت سجلات هذه الوكالة  
على أنه لم تكن طبقة من طبقات المجتمع الفرنسي ، إلا وعامل كثير من  
أناسها هذه الوكالة وتغنموا بخدماتهم لم يكن هذا الشغل خافياً على الحكومة..  
( بول بيورو : الصفحة ١٦ )

وقد بلغ هذا الانحطاط الخلقي الى الدرك الاسفل أن :  
« لم يعد الآن من الغريب الشاذ وجود العلاقات الجنسية بين الاقارب  
في النسب ، كالأب والبنات ، والاخ والاخت ، في بعض الاقاليم الفرنسية  
وفي النواحي المزدهمة في المدن » .

### كثرة الفواحش

ولقد كان عدد النساء اللاتي كن يحترفن البغاء قبل الحرب العالمية  
الاولى : نصف مليون ، حسبما أعلن موسيو ببولو ( M . Bullo ) محامي  
فرنسا العام في تقريره . ولكن لا يقيسن القارىء أمر تلك العواهر المثقفة  
المهذبة على ما يجد من حالهن في بلاد الشرق . ذلك بأن فرنسا قطر مهذب  
متمدن ، فلا بد أن تكون جميع أموره على درجة عالية من الأناقة  
والتهذيب والتنظيم . فهناك يُستخدم لهذه الحرفة من الجرائد والبطاقات

المصورة ، والتليفون ورقع الدعوة الشخصية ، لاستمالة قلوب الورّاد . ولا يلوم ضمير الرأي العام على شيء من ذلك ، بل ربما عادت اللائي يبرّزن على غيرهن في هذه التجارة ، ذوات سلطة ونفوذ غير قليل في السياسة الوطنية والمسائل الاقتصادية وطبقات الأعيان والأمرء ، وبكلمات أخرى ينلن من الرقي مثل مانالته المومسات في النمدن اليوناني فيما قبل .

وصرّح موسيو فردينان دريفوس ( M . Ferdinand Dreyfus ) أحد أعضاء المجلس الفرنسي منذ بضعة سنوات ، « أن حرفة البغاء لم تعد الآن عملاً شخصياً ، بل قد أصبحت تجارة ( Business ) برأسها ، وحرفة منظمة ( Organized Industry ) بفضل ماتجلب وكالاتها من الأرباح الغزيرة . فلها في هذه الأيام وكلاء يهيئون ( المواد الخام ) ، وآخرون يتجولون في البلاد ، ولها الآن أسواق منظمة ، تُستورد فيها وتُصدر منها الفتيات والصبايا كالأموال التجارية . وأكثر ما يُطلب في هذه الاسواق من الاموال هو بنات دون العاشرة » . ويكتب بول بيورو : « ان هذا العمل ( أي احتراف البغاء ) قد أصبح في زماننا نظاماً محكم التركيب ، يجري بما شئت من التنظيم على أيدي الموظفين والعاملين المأجورين . ويخدمه ويعمل فيه ارباب القلم وناشرو الكتب والخطباء والمحاضرون والاطباء والقبالات والسياح التجاريون ، ويُستعمل له كل جديد من فنون النشر والمرض والاعلان » .

ثم لم يقف أمر هذه الفاحشة على دور البغاء ومكانم الدعارة المعروفة .

بل هو قد جاوزها إلى الفنادق والمقاهي والمراقص فيجري فيها البغاء علناً وعلى مشهد من العالم وربما تبلغ البهيمية في القائمين بها أقصى حدود الظلم والقساوة ، فيقال إن محافظ بلدية في شرقي فرنسا اضطر إلى التدخل في الامر سنة ١٩١٣م ، لإنقاذ فتاة كانت قد فرغت في يومها من سبعة وأربعين وارداً ، وكان عدد منهم بعدد باللب يترتبون !

وجاءت الحرب العالمية الاولى ، فابتدعت بدعة ( البغاء المتطوع ) علاوة على ( البغاء التجاري ) المعروف . وبلغ هذا النوع المبتكر للفحشاء من عظم الشأن أن أكرمت النساء المحجبات للوطن اللاتي كنّ خدمنَ الأبطال المدافعين عن أرض فرنسا وولدن جزاء تلك الخدمة أولاداً لا يُعرف آبائهم ، فلقبن بلقب « أمهات زمان الحرب » War-God - mothers ) . . تصوّر قد بلغ والله من الطرافة أن تكاد لغات الشرق تعجز عن ترجمته . فخلعت هؤلاء النساء يتعاطين البغاء بصورة منظمة . وأصبح ( تشجيعهن وإعانتهم ) فضيلة خلقية عند أولي الدعارة والفجور . وعُنت الجرائد اليومية الكبرى عناية بالغة باستمالة ( رجال العمل ) إليهن . وقامت بهذه الخدمة أكثر من غيرها الجريدتان المصورتان السيّارتان : فنتاسيو ( Fantasio ) ولافي باريزيان ( La vie Praisienne ) حتى جاء عدد واحد من هذه الجريدة الأخيرة يشتمل على ١٩٩ إعلاناً عن أمرهن .

### طوفان الوقاحة وصموح الشرهات

إن الهيجان الجنسي الذي يؤدي إلى كل هذه الكثرة والرواج

لأنواع الفواحش، إنما ينبعث من تأثير الآداب والصور والسينا والمسرحية والرقص ، وما إليها من مظاهر التمثيل والتبذل .

فلا تزال هناك عصابة من أصحاب الثروة الانانيين يضرمون نار الشهوة في العوام بكل ما يمكنهم من انتدائير ، يروجون بذلك بضاعتهم ويؤمنون تجارتهم. ثم هناك الجرائد اليومية والاسبوعية ، والمجلات الشهرية ونصف الشهرية ، المصورة ، التي تظهر كلها بقصص ومقالات متناهية في الفحش ، وصور عارية فاضحة ، لأن ذلك أضمن لشيوعها وكثرة انتشارها ويستخدم اصحابها لهذا الامر اعلى ما حباهم الله من مواهب الفطنة والذكاء والحذق الفني ، ومعرفة أسرار النفس البشرية لكي لا يفلت من كيدهم القاريء المسكين . وليس هذا فقط بل تأتي من وراء ذلك كتب ورسائل تصدر كل يوم من المطابع مملوءة بما شئت من معاني الخلاعة والوقاحة حول المسائل الجنسية وتبلغ من كثرة الشيوع أن تطبع للواحدة منها خمسون ألف نسخة في طبعة واحدة ، وربما طبع الكتاب الواحد متين طبعة أو تزيد . وهناك بعد ذلك ، دور للطباعة والنشر قد اختصت بنشر هذه الآداب الجنسية، ولرب كاتب نال الشهرة والمز من طريق الكتابة في هذه المواضيع . وإنه لم يعد الآن تأليف كتاب فاحش مخزاة أو مهانة المؤلف، بل المؤلفون مثل هاتيك الكتب ، إن نالت لدى الناس حظوة وقبولاً ، يجازون إما بمضوية المجمع العلمي الفرنسي ، أو يشرف « كروي دونور » ( Creix d' honour )

وتنظر الحكومة إلى كل هذه المظاهر للتبذُّل والإغراء والتهيج نظر  
المشاهد المتفرِّج ولا تُسْكَر من امرها شيئاً .. اللهم إلا أن يذاع شيء  
متاد في الفحش ، فتعرضه الشرطة على الرغم منها ، وترفع أمره إلى  
الحكمة . ولكن لا بأس ! فإن هناك محاكم سمحة واسعة العفو لأمثال  
هؤلاء المجرمين ، فتخلي سبيلهم بعد شيء من الزجر . ذلك بأن الذين  
يجلسون للحكم في تلك المحاكم ، يكون معظمهم بأنفسهم من المتمتعين بهذا  
الصف من الأدب. ومنهم من يكون قلبه نفسه منلوئاً بتأليف أدب جنسي  
خليع . وإن اتَّفَق أن يكون فيهم قاضٍ من أنصار الفكر القديم  
يُخْشَى منه ( جور وعدول ) في تلك القضية ، اتَّفَق أكبر الكُتَّاب  
والادباء على التدخل في الأمر ، فأعلموا صياحهم في الجرائد بضرورة  
وجود الجوّ الحرّ في المجتمع لترقية الفنون والآداب ، ونادوا أن تقيّد  
الإنسان بقيود الاخلاق على طريقة أهل القرون المظلمة ، معناه الاخذ  
بجناق الفنون الجميلة ومنها من الرقيّ والازدهار .

ولننظر بأيّ الطُّرُق يتمّ للفنون الجميلة هذا الرقيّ والازدهار إنه  
يتمّ في أكثره بإشاعة تلك الصوَر العارية و ( الفوتوغرافات ) المُظْهَرة  
لممليّة الفحشاء، التي تُعدّ منها آلاف مؤلفة من المجموعات ( Albums )  
فتوزَّع ، لا في الاسواق والفنادق والمقاهي خُصْبُ ، بل على المدارس  
والكليات أيضاً . وقد كتب أميل بوريسي ( Emile Puerisy ) في  
تقريره الذي قدّمه إلى الجلسة العامة الثانية لرابطة منع الفواحش :

« هذه الفوتوغرافات الداعرة المتهتكة تصيب أحاسيس الناس بأشدّ



ما يمكن من الهيجان والاختلال ، وتحت مشتريها البؤساء على المعاصي والاجرام التي تقشعر من تصوّرها الجلود . وإن أثرها السيئ المهلك في الفنية والفنيات لمّا يعجز عنه البيان فكثير من المدارس والكلّيات قد خربت حالتها الخلقية والصحية لتأثير هذه الصور المبيّحة . ولا يمكن أن يكون للفنيات - على الاخص - شيء أضرّ وأفتك من هذه .

ثم لهذه الفنون الجميلة ، تعمل المسارح والمقاهي والسينما وأبهاء الموسيقى وغيرها من انواع الملاهي ، فإن المسرحيات التي يشاهد تمثيلها أعلى الطبقات الفرنسية بإقبال واشتياق ، والتي ينال مؤثفوها ويمثلوها الناجحون أو فر حظّ من إعجاب الامة ورضاها ، تكون كلها مملوءة بدواعي الشهوة البهيمية ، ولا تكون ميزتها البارزة إلا أن تعرض على النظارة أخطأ ما يمكن من خلق إنساني بمعرض أسوة حسنة ومثل أعلى يمثّل . فيقول بول بيورو : « أن من أراد من الباحثين أن يطالع حياتنا المدنية من خلال هذه التماذج للحياة ، التي لا يزال يمرضها كتاب مسرحياتنا ، منذ ثلاثين أو أربعين عاماً ، فلا جرم أنه يستنتج أن جميع الأزواج المتزوجة في مجتمعنا قومٌ خونة متجردون من الوفاء اللازم للعشرة الزوجية . فيكون كل زوج منّا إمّا غافلاً ، أو يكون لزوجته بلاءً ونكبةً . وأما الزوجة فاحسن خصالها أن تكون في كل حين متبرمة من زوجها ، تكاد تميل بهواها عنه إلى غيره . »

وإذا كانت هذه حال المسارح التي تتفرّج بها الطبقات العالية فقد

في نفسك ما عسى أن تكون عليه ملاهي العامة ومسرحياتهم فكل ما قد  
يُعجب أو غاد الناس وسفلتهم ، من أمسايب الكلام وحركات الدلال  
ومناظر العُري ، تعرضه هذه المسارح على منابرها بدون حياءٍ وتذمير ،  
وبغير قناع من تعريض أو كناية . وتؤكد للعامة من طريق الاعلان  
أن كل ما تتطلبه شهواتهم النفسية مهياً عندها ، وأن عرضها على المنصة  
يكون واقعياً ( Realistic ) لاتشينه الصنعة والتكلف . وقد جاء أميل  
بوريسي في تقريره بامثلة متعددة من أحوال تلك المسارح ، دُوِّنت بعد  
جولات في مختلف الملاهي والملاعب . فيقول وقد كنى عن أسمائها  
بحروف الهجاء :

• « كانت أغاني المثلة وفردياتها ( Monologues ) وحركاتها في  
مسرح ( ب ) غايةً في الخنا والفحش . وكان المنظر الخلقى من ورائها  
يكاد يصور آخر مدارج الاختلاط الجنسي . أما نظارة المسرح فكانوا  
أكثر من ألف ، يُرى من بينهم الأشراف أيضاً . وكان المجمع كله  
كالمسحور بسحر العرض ، يرفع صوته بالترحيب وانتحسين كل  
حين وآخر ! »

• « وفي مسرح ( ن ) كانت الأغاني القصار وما تخللها من كُليّات  
وما صحبها من حركات ولفات ، بالغةً من الوقاحة والتبذل أقصاه . وكان  
هناك صبيان وفتية أصاغر ، يشهدون هذا العرض مع الأكبر ، ويصفقون  
بأيديهم عند كل منظر شديد الوقاحة . »

• « وفي ( ل ) صاح الحضور خمس مرات بالمثلثة يطلبون منها تكرير تمثيلها الذي كانت تختمة بأغنية ثمينة في الخنا والمهجر . »

• « وفي ( س ) ألح النظارة على ممثلة ، فحملوها مرة بعد أخرى ، على إعادة عرض متباد في الفحش ، حتى صاحت بهم غاضبة : قاتلكم الله يا فجار ! ألا ترون أن بجانبكم في هذه القاعة صفاراً ، ثم انصرفتم من المنصة بدون أن تستكمل دورها في ذلك الفصل من المسرحية . فكان ذلك العرض بالغاً من الدناءة والفحش أن لم تصبر على تكراره حتى تلك الماحنة المعتادة . »

• « وفي مسرح ( ز ) اقترحوا على الممثلات ، بعد ختام المسرحية ، وكن بأنفسهن يعين تذاكر اليا نصيب بمشرة ساتيات . فإني من طارأت له إحداهن ، بات معها تلك الليلة . »

ويكتب بول بيورو : إنه ربما تعرض على المنصة نساء غاريات لا تكون على أجسامهن خرقه ثوب . وقد كتب أدولف برياسون ( Adolphe Briason ) في جريدة طان ( Tamps ) الفرنسية المشهورة ، يحتج ويعترض على مثل هذه المنكرات : « لقد بلغ السيل الزبى . ولم يبق بعد هذا كله سوى أن تعرض على أنظار الناس منظر الفاحشة بعينها والحق أن ( الفن الجميل ) لن يستكمل بدون ذلك . »

ولا يقل نصيب حركة منع الحمل وما يسمونه العلوم والآداب الجنسية

في إشاعة الفواحش وإفساد أخلاق الناس . إذ يذيع القوم لأجلها من تفاصيل الحمل ومتعلقاته ، وطرق استعمال الآلات المنمى ، بالخطب والفانوس السحري ( Magic Lantern ) في الحفلات العامة ، وبالصُور والبيانات الإيضاحية في الرسائل والكتب ، مالا يبقى بعده شيء من أفعال الأعضاء الجنسية ، يحتج إلى شرح وبسط . وكذلك يفعلون في كتب العلوم الجنسية ، إذ لا يدعون ناحية من نواحي الأفعال الجنسية - من شرح الأعضاء إلى آخر ما شئت - إلا يجلونها ويبرزونها لكل كبير وصغير ، ويتخذون لكل ذلك قناعاً من أسماء ( العلم ) و ( التحقيق ) و ( العلوم التجريبية ) حتى يجلب عن سهام النقد والتفريع . بل يتقدمون ، فيدعون إشاعة كل ذلك ( خدمة اجتماعية ) . ويقولون : إنا لا نريد بذلك إلا أن نجلب الناس مزلق الشئون الجنسية . ولكن الحق أن نشر هذه الآداب والتعاليم الجنسية ، وتمميمها على هذا النطاق الواسع ، قد أذهب الحياء عن نفوس النساء والرجال والشبان والشواب . وبعث فيهم أشد ما يكون من الوقاحة وقلة الحياء وقد آلت الحال بهذا النشء اليوم إلى أن صبية المدرسة التي لم تبلغ الحلم بعد ، تعرف من الشئون الجنسية ما لم تكن تعرفه الثيبات فيما مضى . وكذلك الصبيان دون سن البلوغ ، ثور فيهم النزعات الجنسية قبل أنهما ، فيشتاقون إلى مزاولة التجارب الجنسية ، ويُعطون قيادهم لشهوات النفس العارمة . وإذا كان الزواج المشروع حدة من العمر معين ، فإن هذه التجارب لا تقيّد بحد من العمر . بل يأخذ فيها الشباب من السنة الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمرهم .

## أعراض الرهوك القومي الشامل

وإذا كان انحطاط الأخلاق ، واتباع الأهواء ، وتعبد الشهوات ، قد بلغ من أمة ما هذا المبلغ الهائل ، وكانت هذه حالة الرجال والنساء والشيوخ والشبان في انغماسهم في الذات ، وكان الهيجان الجنسي قد خلبهم من المس حتى أخرجهم من طورهم ، فمن الطبيعي أن تتوافى في تلك الأمة كل أسباب الهلاك والبوار . وهذه الأمم المتدرجة إلى الزوال ، القائمة على شفا حفرة من النار ، إذا شاهدتها الناس في ظاهر السلطة والشوكة فيستنتجون أن انها كها في الملامهي والذات ليس بمانعها من الرقي بل هو عون لها عليه ، وإن الأمم تكون في أعلى مجدها وأزهى رقيها أمعن ما تكون في الأهواء والشهوات . ولكنهم ساء ما يحكون وما يستنتجون إذ أن قوى التعمير وقوى التخريب إذا كانت متفاعلة في أمة في الوقت الواحد ، وكان جانب التعمير هو الغالب في أعمالها ونشاطها ، فمن السخف والحماقة أن تُعَدَّ قوى التخريب أيضاً من أسباب تعميرها .

افهم ذلك بمثل تاجرٍ بارعٍ في مهنته ، يكتسب ملايين بفضل ذكائه واجتهاده وتجربته ، ويستمر مع ذلك في شرب الخمر والمقامرة والقصف فهل من خطأ أكبر من عدك كلا هذين الوجهين المتعارضين لحياته من أسباب رفاهته ورقته ؟ إنما الحق أن الجملة الأولى من صفاته هي السبب في تعمير كيانه ، والجملة الأخرى من صفاته هي عاملة على تخريبه . فإذا كان كيانه ثابتاً بفضل قوة الصفات الأولى ، فليس معناه أن الصفات

الآخري ليست بفاعلة فعلها التخريبي في الكيان . بل إذا دقت النظر وسهّرت غور الامر ، بدا لك أن تلك القوى المدمرة الخربة لا تزال تنقّص مما أودعه من قوى العقل والجسد ، وتأكل من ثروته التي قد اكتسبها بكد يمينه وتستدرجه إلى الموار ، وتنحين - في الوقت نفسه - فرصة الايقاع به دفعة واحدة . فشیطان المقامرة الغالب عليه قد يفني ثروته المدخرة في ساعة واحدة من أشأم ساعات حياته ، وهو متربص به الدائرة في كل حين . وشیطان الخمر المتمكن منه قد يركب به زللاً في حالة نشوة ، فيتركه صفر اليدين ، وهو أيضاً له بالمرصاد . وكذلك شیطان الدعارة والفجور لا يزال ينتظر الفرصة ليدفعه إلى القتل أو مهلكة أخرى تفجؤه . وأنت لا تستطيع أن تقدّر ماذا كان مبالغ رقي هذا التاجر وتحسن حاله ، لو لم يكن واقفاً في برائث تلك الشياطين !

قسّ على هذا كله حال أمة من الأمم . فإنها تصعد في مدارج الرقي بادیء ذي بدءٍ بفضل ما فيها من قوى التعمير والإنشاء ، ولكنها لا تتقدم في سبيل الرقي خطواتٍ ، إلا تمود ، لفقد القيادة الرشيدة ، تهیء بنفسها أسباب خرابها . صحيح أنها لا تزال إلى مدّة من الزمان تمضي قدماً بدافع ما يملكها من قوى التعمير والإنشاء . ولكن عوامل الفساد والتخريب لا تنفك في الوقت نفسه تأكل من قوّة حياتها من الداخل ، حتى تجوف بنيانها وتضعف كيانها إلى حد أن تهدمه صدمة فاجئة من صدمات الدهر . وفيما يلي نذكر عوامل الخراب والدمار البارزة التي قد أورثها الأمة الفرنسية نظامها الاجتماعي الفاسد .

## اضمحلال القوى الجسدية

إن أوّل ما قد جرّ على الفرنسيين تمكّن الشهوات منهم اضمحلال قوam الجسدية وتدرجها إلى الضعف يوماً فيوماً . فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم ، وتعبد الشهوات يكاد يأتي على قوة صبرهم وجلدهم ، وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب في الخطوة للجند الفرنسي ، على فترة كل بضع سنين ، لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر في الأمة ، على مسير الأيام . وهذا مقياس أمين يدلنا كدلالة مقياس الحرارة - في الصحة والتدقيق - على كيفية اضمحلال القوى الجسدية في الأمة الفرنسية . ومن أهم عوامل هذا الاضمحلال : الأمراض السرية الفتاكة . يدل على ذلك أن كان عدد الجنود الذين اضطرت الحكومة إلى أن تعفيهم من العمل وتبعثهم إلى المستشفيات ، في السنتين الأوليين من سني الحرب العالمية الأولى ، لكونهم مصابين بمرض الزهري : خمسة وسبعين ألفاً . وابتلي بهذا المرض وحده ٢٤٢ جندياً في آن واحد في ثكنة متوسطة . وتصور - بالله - حال هذه الأمة البائسة في الوقت الذي كانت فيه - بجانب - في المضيق الحرج بين الحياة والموت ، فكانت أحوج ما يكون إلى مجاهدة كل واحد من أبنائها المحاربين ، لسلامتها وبقائها ، وكان كل فرنك من ثروتها مما يضمن به ويوفر ، وكانت الحال

تدعو الى بذل أكثر ما يمكن من القوة والوقت وسائر الادوات  
والوسائل في سبيل الدفاع . وكان - بجانب آخر - أبنائها الشباب هؤلاء  
الذين تطل آلاف منهم عن أعمال الدفاع من جراء انغماسهم في اللذات ،  
وما كفى أمتهم ذلك خسراناً ، بل هم ضيعوا جانباً من ثروة الأمة  
ووسائلها في علاجهم ، في تلك الاوضاع الحرجة .

ويقول طبيب فرنسي نطاسي يدعى الدكتور ليريد : « إنه يموت في  
فرنسا ثلاثون الف نسمة بالزهرى وما يتبعها من الامراض الكثيرة ،  
في كل سنة . وهذا المرض هو أفنك الامراض بالأمة الفرنسية بعد  
حمى الدق » . وهذه جريرة مرض واحد من الامراض السرية التي  
فيها عدا هذا ، أمراض كثيرة أخرى .

## فساد النظام العائلي

والنكبة الثانية العظيمة التي قد جرّها على التمدن الفرنسي ، طغيان  
لالشهوة المطلقة ورواج الإباحية وقبولها : هي خراب النظام العائلي ،  
وتقويض بنيانه . إن النظام العائلي - كما هو معلوم - يتألف ممّا يُعقد  
بين الرجل والمرأة من الرابطة الأبدية التي يُبَسّر عنها بالإنكاح فهذه  
الرابطة فيما بينها تسود حياة الافراد السكينة والدوام والاستحكام ،  
وهي التي تحوّل (فرديتهم) إلى الجماعية . وتُذلل ما فيهم من نوازع  
الفوضى والشتات وتخضعه للتمدن . وفي دائرة هذا النظام ينبعث ذلك



الجو المطهر من المودة والأمن والإيثار ، الذي يتهيأ للأجيال الناشئة فيه أن يدرجوا على الاخلاق الزكية والتربية الصحيحة والتنشئة الصالحة ولكن مجتمعاً كان الرجال والنساء فيه فارغى الأذهان من تصوّر النكاح ومقاصده ، ولم يكن لاملقة الجنسية بين الصنفين عندهم من غاية سوى قضاء بعض الشهوات الحيوانية ، ثم كان في ذلك المجتمع أرسال من الذواقين والذواقات يهيمون كالفراس بكل زهرة من أزهار الروض يستنشقون عبقها ويمتصّون رحيقها ، فلا يمكن أن يقوم فيه هذا النظام العائلي . وإن قام ، فلا يمكن ان يستقر : ذلك بان رجاله ونساءه لا يمدون يصلحون للاضطلاع بأعباء الزواج وتبعاته ، وحقوقه وواجباته والتزاماته الخلقية ، ويكون من تأثير هذه الحالة العقلية والخلقية فيهم أن ينشأ كل جيل لاحق على خلق أسوأ مما كان عليه الجيل السابق . ويبلغ من أثره الافراد وأنانيتهم ما يشتمل المجتمع ، ومن زرق النفوس وتلوّثها ما يجعل سياستهم الوطنية وسلوكهم الدولي كريشة في مهب الرياح ، لاندوم على موقف . ويتكدّر عيش الافراد بجحلو بيوتهم من الهدوء والسكون . ويلج عليهم قلق نفسي دائم يحرمهم فراغ الخاطر وهدوء الذهن ، وكل هذا عذاب من جحيم الدنيا ، يلقي الانسان فيه بنفسه لغرامه ، بل لهيامه المتطرف بالمتع واللذات .

سبعة أو ثمانية في الالف هو معدل الرجال والنساء الذين يتزوجون في فرنسا اليوم . ولك ان تقدّر من هذا المعدل المنخفض كثرة النفوس التي لاتتزوج من أهاليها . ثم هذا التزوال القليل من الذين يعقدون الزواج

قلّ فيهم من ينوون التحصن والتزام المعيشة البهية الصالحة ، بل هم يقصدون به كل غرض سوى هذا الغرض . حتى إنه كثيراً ما يكون من مقاصد زواجهم ، أن يُحلّلوا به الولد النفل الذي قد ولدته المرأة قبل النكاح ، ويتّخذوه لهم ولداً شرعياً . فقد كتب بول بيورو : « من العادة الجارية في طبقة العاملين في فرنسا أن المرأة منهم تأخذ من خدنها شيئاً ، قبل أن يعقد بينها النكاح ، أن الرجل سيتّخذ ولداً الذي ولدته قبل النكاح ولداً شرعياً له . وجاءت امرأة في محكمة الحقوق بمدينة سين ( Siene ) فصرّحت : « إني كنتُ آذنتُ بعلي عند النكاح بأنني لا أقصد بالزواج إلاّ استحلال الأولاد الذين ولدتهم نتيجة اتّصالي به قبل النكاح . وأما أن أعشره وأعيش معه كزوجة ، فما كان في نيّتي عند ذلك ، ولا هو في نيّتي الآن . ولذلك اعتزلتُ زوجي في أوّل اليوم الذي تمّ فيه زواجنا ، ولم ألتقِ به إلى هذا اليوم ، لأنني كنتُ لا أنوي قط أن أعشره معاشرّة زوجيّة » ( الصفحة ٥٥ )

قال عميد كلية شهيرة في باريس لبول بيورو : « إن عامة الشباب يريدون بعقد النكاح استخدام بغيٍّ في بيتهم أيضاً . ذلك أنهم يظنون مدّة عشر سنين أو أكثر يهيّمون في أودية الفجور أحراراً طلاقاً ، ثم يأتي عليهم حين من دهرهم يملّون تلك الحياة الشريفة المتقلّبة ، فيتزوّجون بامرأة بعينها ، حتى يجمعوا بين هدوء البيت وسكينة ، ولذّة المخادنة الحرّة خارج البيت » . ( الصفحة ٥٦ )

وإنّ زنا المُحصّنين والمُحصّنين لا يُعدّ من العيب أو اللوم في

مفرنسا . فإذا كان أحد من المحصنين متخذاً خلية دون زوجته ، فلا يرى لإخفاء الأمر من لزوم . ويمدّ المجتمع فملأه ذلك شيئاً عادياً طبيعياً في الرجال . ( الصفحة ٧٦ - ٧٧ )

ولهذا كله قد ضُمَّتْ رابطة النكاح ، وبلغت من الوهن أن ينبت حبسها لأدنى مناسبة . وربما تزد مدة هذه الرابطة على أكثر من ساعات معدودة . فيقال عن رجل فاضل من الفرنسيين ، كان قد تولى الوزارة بضع مرّات : انه طلقته امرأته بعد خمس ساعات من انعقاد الزواج بينها ، وربما كان من أسباب الطلاق هنات تافهة تضحك الناس ، كاشتمزاز أحد الزوجين من غطيط الآخر في النوم ، أو كون أحد منها لا يحبّ كلب الآخر . وقد بلغ من تفاخُش الطلاق أن محكمة الحقوق بمدينة سين فسخت ٢٩٤ نكاحاً في يوم واحد . ووقع في سنة ١٨٤١ م التي قرّر فيها قانون الطلاق الجديد : أربعة آلاف طلاق . وبلغ هذا العدد سبعة آلاف سنة ١٩٠٠ م ، وستة عشر ألفاً سنة ١٩١٣ م ، وواحداً وعشرين ألفاً سنة ١٩٣١ م

## وأد الفصل

إن تربية الاولاد عمل خلقي سامٍ ، يتطلب من المرء مغالبة النفس ، وترك الاهواء والرغبات ، واحتمال المتاعب والمشاق ، وبذل النفس والاموال . فلا يمكن أن يتأتى لهذه الخدمة السامية قوم أنانيّون عبيد بالنفس ، تغلب عليهم البهيمية وحبّ الذات .

فمن سنين سنة أو سبعين ، لا تزال الدعاية بحق حركة منع الحمل على أشدها . وقد زوّدت هذه الحركة كل رجل وكل امرأة من الامة الفرنسية بمعرفة التدابير التي يستطيع معها المرء أن يتمتع بالذات الملاقة الجنسية ، ثم يتقني عاقبتها الطبيعية أي الحمل والتوليد . وإن من بلدة أو قرية إلاّ تباع فيها عقاقير وآلات منع الحمل في بياض النهار ، حتى صارت في متناول كل يدٍ ومن نتيجة ذلك أن لم يعد استعمالها مقصوراً على أهل الدعارة وحدهم ، بل صار يستخدمها كثير من الأزواج المتزوجين . وأصبح من أماني كل زوجين منهم ألاّ يقتحم بينها الولدُ هذا الدغل الويل الذي يكدر صفو اللذات . وإن السرعة التي لا يزال ينخفض بها معدل التوليد في فرنسا ، قد حدى منها العلماء والاختصاصيون . أنه يُمنع توليد مئتي ألف نسمة - على الأقل - في كل سنة ، من جراء هذه العادة المنتشرة في البلاد .

وأما المحول التي تستمضي على كل تلك الحيل والتدابير ، وتستقرّ ، فيتخلص منها بالاسقاط ، ويُمنع بهذا التدبير أربع مائة ألف نسمة أخرى من البروز . ولا تباشر هذا الاسقاط العوانس والابكار وحدهن ، بل تجارهن في هذه السيئة المتزوجات أيضاً على قدم المساواة . وبُعدت هذا الفعل بريئاً من كل عيب في نوااميس الاخلاق ، بل يعد حقاً من حقوق المرأة واجباً . والقانون ، كأنه قد أغمض عينيه عنه ، ومع أن الفعل جريمة في سجل القانون ، إلا أنه لا يؤخذ ولا يُرفع إلى المحكمة إلاّ

واحداً في كل ثلاثمائة من مرتكبيه . ثم إن الذين يرفع امرهم إلى المحاكم ، يُبرأ منهم هناك قدر ٧٥ في المائة . وقد يسّروا من تدابير الإسقاط ونشروا عليها في العامة نشرأ جعل معظم النساء يباشرنه بأنفسهن . وأما اللاتي لا يقدرن عليه ، فيجدن المعونة الطيبة منهن على كسب . مما عاد به قتل الولد في الرحم أهون على القوم من قلع الضرس الموجه في الفم .

وقد مسخت هذه العقلية عاطفة الامومة في المرأة مسخاً جعل الأم التي ما زالت الدنيا تعتبر حنائها أسمى مدارج الحب الانساني تتضجر من الاولاد ، بل تكرهمهم ، بل تُمادهم ، فالذين يسلمون من الاولاد من غوائل تدابير المنع والإسقاط ويخرجون إلى حيز الوجود ، يُعاملون بأشد ما يكون من العظلة والقسوة . ويذكر بول بيورو هذه الحقيقة المؤلمة بما يأتي :

« كثيراً ما نطلع في الجرائد على مصائب الاطفال الذين يسومهم آباؤهم سوء العذاب . وهذه الجرائد لا تذكر من تلصم الاحداث إلا ما يكون له خطر . ولكن الناس يعلمون : أي قسوة يُعامل بها هؤلاء الضيوف الثقلاء ، الذين قد برم بهم آباؤهم لما هم قد نفّسوا عليهم لذّة الحياة .. وهذه الارواح المسكينة لا تجد إلى الوجود سبيلاً إلا حينئذ تنكص بعض النساء عن الإقدام على الإسقاط . ولكنهم إذا جاؤوا في هذه الدنيا ، يذوقون وبال مجيئهم فيها حق مذاقه . »

وربما تبلغ هذه الكراهية الأولاد من بنات حواء أن يأتين

بالمضحكات المبكيات . فقيل انه مات لامرأة ابن ستة اشهر ، فوضعت  
نعشه بين يديها ورقصت بالفرح وغنت . ثم طافت بجاراتها تقول : « إنا  
لن نلد ولداً آخر بعده ويا راحة نفسي ونفس بعلي من موت هذا المَلِيق .  
أفلا ترين أي مخلوق حقير هو هذا الذي لا ينقطع عن البكاء ، ويظلّ  
ييثّ القدر في الفناء . بكاد المرء لا يتخلص منه أبداً » . ( الصفحة ٧٥ )

وأدهى من ذلك وأمرّ أن قتل الاولاد هذا إلى الزيادة ولا تتشاور  
بسرعة عظيمة . والحكومة الفرنسية ومحاكمها متهاونة مستخفة بهذه  
الجريرة العظيمة كصنيعها في إسقاط الحمل . فقد رُفِعَ إلى محكمة (لوران)  
فتاتان قتلتا اولادهما . ولكنها أعفيتا من العقوبة . وكانت إحداها قد أهلكت  
ولدها بالاغراق على حين كان اقاربها لا يزالون يربون لها ولداً سابقاً ، وكانوا  
مستعدين لتربية هذا الآخر . ولكن الظالة أثبتت إلا ان تقتل المسكين .  
وارتأت المحكمة ان جرمها هين يقتفر . واما الاخرى فخنقت طفلها ، ولما  
رأت فيه بعد ، حشاشة نفس تضطرب ، رمت به عرض الحائط  
فشجّت رأسه . وهذه المرأة أيضاً لم يرها القضاة الفرنسيون تستحق  
العقوبة او القصاص . وفي سنة ١٩١٨ م نفسها جيء إلى محكمة (سين)  
هراقصة ، حاولت بزع لسان ولدها من حلقه ثم حطمت رأسه . واخيراً  
حطمت منه الوتين . ولم تكن هذه المرأة أيضاً مجرمة عند القضاة أو  
المحامين .

فهل ترى من حيلة او تدبير ينقذ من البوار أمة تمن إلى هذا الحد  
بالفاحش في عداتها لنسلها . إن التنازل أمر لا بد منه لاطراد بقاء أمة من

الامم . فكل أمة تعادي نشأها فإنها تعادي نفسها وترمي بنفسها الى الانتحار . وهي تكفي بذاتها أن تمحو وجودها بأيديها . وإن لم يكن من حولها عدو . والامة الفرنسية — كما أسلفت — لا تزال تهبط فيها نسبة المواليد منذ سنتين عاماً متوالية ، ففي بعض السنين تزيد نسبة الوفيات على نسبة المواليد ، وفي الاخرى تتساويان ، وفي الثالثة لا تزيد نسبة الوفيات إلا بقليل جداً . وبجانب آخر ، لا يزال عدد الجالية المهاجرين في فرنسا ينمو ويكثر . فكانوا قرابة ثلاثة ملايين من بين اثنين وأربعين مليوناً من سكان فرنسا الاصليين سنة ١٩٣١ م . وإن استمرت الحال على ما هي عليه الآن ، فلا يستبعد أن تعود الامة الفرنسية ، عند ختام القرن العشرين ، أقلية في وطنها هي .

أما بعد ، فهذه كلها هي نتائج تلك النظريات التي أقيمت على أساسها حركة تحرير المرأة والمحافظة على حقوق النساء في فجر القرن التاسع عشر !!

## مزِيد من الأمثلة

لم تقتصر في الصفحات الماضية على ذكر نظريات أهل فرنسا وتأثيرها الحاصلة فيهم ، إلا مراعاةً للاطراد التاريخي . ولا يحسن أحد أن الامة الفرنسية تنفرد بذلك كله وتشذ عن غيرها في هذا الباب . بل الامر أن جميع الأمم التي قد آمنت بما ذكر آنفاً من نظريات الاخلاق ومبادئ الاجتماع المتطرفة ، تماثلها وتجاريها في تلك الحال . وهالك مثلاً بالولايات المتحدة الاميركية التي قد بلغ فيها هذا النظام الاجتماعي أوج شبابه :

### تأثير البيئة المرسية في الاطفال

يكتب القاضي بن لندسي ( Ben Lindsey ) الذي قد أتبع له الاطلاع الواسع على اخلاق النشء الاميركي ، لكونه رئيساً لمحكمة جنابات الصبيان ( Juvenil Court ) بدَنور ( Denwer ) يكتب في كتابه « تمرد النشء الجديد » ( Revolt of modern youth ) : « أن الصبئية في أميركا قد أصبحوا يراهم قوت قبل الاوان ، ومن السن الباكرة جداً يشتد فيهم الشعور الجنسي » . وبحث هذا القاضي عن أحوال ٣١٢



صبيّة على سبيل النموذج. فلم أن ٢٥٥ صبيّة ممن كن أدركن البلوغ فيما بين الحادية عشرة والثالثة عشرة من سني أعمارهن . يُوجد فهن من أمارات الشهوة الجنسيّة والمطالب الجسديّة مالا يكون عادةً إلا في بنات الثامنة عشر فن فوقهن سنّاً ! ( الصفحة : ٣٢٨ ) .

وكذلك يذكر الدكتور ادث هوكر ( Edith Hooker ) في كتابه : « القوانين الجنسيّة » ( Laws of sex ) : أنه ليس من الغريب الشاذّ حتى في الطبقات المثقفة أن بنات سبع أو ثماني سنين منهم يخادّنّ لداهن من الصبيّة وربما تلوثن معهم بالفاحشة ، فيقول :

« بنتٌ في السابعة من عمرها ، من بيت عريق في الشرف والمجد ، ارتكبت الفحشاء مع أخيها وعددٍ من أصدقائه . ونقّر آخر من خمسة أولاد يشتمل على صبيّتين وثلاثة صبيان متجاورين متقاربين البيوت وجدوا متعلّقين بعضهم ببعض بالعلاقات الجنسيّة ، وقد حفزوا على ذلك غيرهم من الاولاد أيضاً . وكان أكبر أولئك سنّاً ابن عشر سنين . وبنتٌ أخرى في التاسعة ، كانت في ظاهر الامر تحت رقابة شديدة ، وُجدت مصيدةً بكونها حبيبة عشاقٍ ذوي عدد ! »

وقد جاء في تقرير طبيب من مدينة بالتي مور ( Balti more ) أنه قد رُفِع إلى الحاكم في تلك المدينة أكثر من ألف مرافعة في مدة سنة واحدة ، كلها في ارتكاب الفاحشة مع صبايا دون الثانية عشر من العمر . ( الصفحة : ١٧٧ )

وهذا كله ثمرة بكرة للبيئة المهيبة التي تنمى فيها عوامل الإثارة والإذكاء للمواطن من كل جانب . فيقول كاتب أميركي : « ان الاوضاع التي يعيش فيها معظم أناسنا في هذه الايام تبعد عن الفطرة بعداً يجعل الفتية والفتيات يشعرون بدبيب الحب في نفوسهم من السن الخامسة عشرة ، وساء ذلك مصيراً . لان هذا الولوع بالامور الجنسية الناشئ فيهم قبل الاوان قد يعود عليهم - بل هو دائماً يعود - بأسوأ ما يكون من النتائج . وأهونها أن البنات في سن الصبا يفررن مع أخدانهن أو يتزوجن في السن الباكرة . ويتحرن إن هن لقين في غرامهن الخيبة والفشل .

### مرحلة التعليم

وكذلك فإن الاولاد الذين يتحدث فيهم الشعور الجنسي قبل أوانه يجدون المدارس أوّل مجال لممارسة التجارب الجنسية ، وتكون هذه المدارس نوعين : أحدهما المخصصة بالجنس الواحد من الاولاد ، والآخر : المختلطة .

فالنوع الاول من المدارس ، تنتشر فيها سيئتنا تمتع الجنس بالجنس ( Homo Sexuality ) والاستمتاع ( العادة السرية ) وذلك لان المواطن التي قد أذكيت جمرتها في عهد الصبا ، ثم جاءت البيئة زاخرة بأسباب إشعالها وإضرارها ، لا بد أن تجد سبيلاً إلى ما يسكن لهيها ويظفي نارها

فيكتب الدكتور هوكر : انه لا تزال تحدث في مثل هذه المدارس والكليات ودور التربية للممرضات والمدارس الدينية حوادث من تسافح الولدين من الجنس الواحد فيما بينها . وقد تلاشى - أو كاد - ميلهم الطبيعي إلى الجنس المخالف (١) . ويسرد في هذا الصدد حوادث متعددة من تلوث الصبية مع الصبية ، والصبايا مع الصبايا بالفحشاء ، ومن كونهم لا قوا من وباله ما يسوء ويؤلم . ويعلم أيضاً من كتب أخرى مدى انتشار هذه السيئة - مخالطة الجنس بالجنس - في الناس : فيكتب الطبيب لوري ( Dr. Lowry ) في كتابه ( Herself ) : انه كتب عميد مدرسة من المدارس ذات مرة إلى أربعين أسرة يفضي إليها بأن صبيانها وجدوا على حال مروعة من الدناءة الخلقية ، فلم يعد يمكنه الآن إبقاؤهم في المدرسة (٢) .

وأما المدارس من النوع الآخر . التي يختلط فيها الطلبة والطالبات في الدرس ، فتوجد فيها أسباب التهييج مقترنة بأسباب التسكين . وإن الهيجان العاطفي الذي كانت بدايته في عهد الطفولة يشتد في هذه المدارس ويوفي على نهايته . فأدب متناه في الخلاعة والفحش يطالمه الفتيّة والفتيات . وقصص غرامية ومجلات داعرة مشتملة على ما يسمونه ( الفن ) وكتب فاحشة فاضحة حول المواضيع الجنسية ، ومقالات مملوءة بمعلومات التدابير لمنع الحمل هذه كلها هي أكثر ما يستهوي الطلاب والطالبات في عنفوان الشباب . ويقول المصنف الاميركي الشهير : هاندرش فان لون

---

(١) الصفحة ٣٣١

(٢) الصفحة ١٧٩

(Hendrich Von Loon): « هذا الادب الذي كثر رواجه في الجامعات الاميركية هو أبشع مجموعة للخنا والفحش والدناءة، لم يمرض قط مثلها على العامة قبل هذا ، بكل هذه الحرية . ثم إن المعلومات التي تحصل من دراسة هذا الادب ، يتناولها الشباب والشواب فيما بينهم بالبحث والنقاش بما شئت من الحرية والجرأة . ثم يعالجونها بالعمل والتجربة ، فيخرج الفتية والفتيات إلى حفلات البهجة والانس ( Petting parties ) حيث يسترسلون في شرب الخمر والتدخين ، ويمتعون انفسهم بالرقص والغناء (١) . وما يخمنه القاضي لندي الاميركي أن خمسا واربعين في المائة من فتيات المدارس يدنسن اعراضهن ، قبل خروجهن منها . وترتفع هذه النسبة كثيراً في مراحل التعليم التالية فيكتب :

« إن طالباً في مدرسة ثانوية تكون عواطفه دون عواطف الطالبة شدة والتهاباً فالصبية هي التي تقدم أبداً وتأمر . وما يفعل الصبي إلا أن يتبع ويأتمر . »

### ملاحظة محررات شديدة

إن المدارس والكليات ، على مساوئها تلك ، يسودها ولا شك جو من النظم والرقابة يحول دون الحرية العملية قليلا او كثيراً . ولكن هؤلاء الشبان حينما يخرجون من معاهد التعليم بتلك العواطف الملتبسة

---

(١) الصفحة ١٧٣ من كتاب « كيف استطيم ان اتزوج »

والعادات الفاسدة ، ويدخلون في غمار الحياة ، تنشط سورة شبابهم من كل عقال ، فيجدون فيما حولهم سعيراً من نار الشهوات يزيد عواطفهم طهيماً ؛ ويجدون في الوقت نفسه ما يطفىء أوارها بدون صعوبة ولا عسر .

وقد ذكرت في مجلة امير كية هذه الاسباب التي لا تزال تؤدي الى رواج الفحشاء وقبولها هناك ، بالكلمات الآتية :

« عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثلوثها بديننا اليوم ، وهي جميعها في تسعير سمر لأهل الارض . أولها : الادب الفاحش الخليع الذي لا يفتأ يزداد في وقاحته ورواجه بعد الحرب العالمية بسرعة عجيبة . والثاني : الافلام السينمائية التي لا تدكي في الناس عواطف الحب الشهواني فحسب ، بل تلقفهم دروساً عملية في بابه . والثالث : انحطاط المستوى الخلقي في عامة النساء ، الذي يظهر في ملابسهن ، بل في عريهن ، وفي إكثارهن من التدخين واختلاطن بالرجال بلا قيد ولا التزام . هذه المفاصل الثلاثة فينا الى الزيادة والانتشار بتوالي الايام ، ولا بد ان يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءها آخر الامر فإن نحن لم نجد من حفيانها ، فلا جرم أن يأتي تاريخنا مشابهاً لتاريخ الرومان ومن تبهم من سائر الامم الذين قد اوردهم هذا الاتباع للأهواء والشهوات موارد الهلكة والفناء ، مع ما كانوا فيه من خور ونساء . ومشغل رقص ولهو وغناء ! »

هذه الاسباب الثلاثة التي قد طبقت اجواء التمدن والاجتماع لا تنفك

أبدأ عن تحريك المواظف في كل شاب وشابة يجري في عروقه ولو قليل من الدم الحار . وما كثرة الفواحش هذه إلا نتيجة لازمة لهذا التحريك المستمر .

## كثرة الفواحش

إن النساء اللاتي قد اتخذن من الفحشاء حرفة برأسها في اميركا ، يقدر مجموعهن - على أقل تقدير - بين أربعمائة وخمسمائة الف . ولكن لا يقيسن القارىء امر العاهرة الاميركية على ما يعمد من امر العواهر في الشرق . فإنها لا تكون عاهرة بالنسب ، بل هي امرأة من سواد النساء كانت إلى الامس الدابر تحترف مهنة حرة ، فابتليت بمشيرالسوء ، ففسدت ، ولجأت إلى حي البغايا ، وستقضي فيه بضعة اعوام ، ثم تغادر هذا الشغل وتتولى الوظيفة في مكتب أو معمل . وقد دل الفحص والتحقيق على أن نصف البغايا الاميركيات يأتين من خوادم البيوت ، والنصف الباقي منهن يكن من العاملات في المكاتب والخوانيت والمستشفيات ، ممن يتركن وظائفهن إلى هذه الحرفة . كل هؤلاء يبدأن بهذه المهنة في السن الخامسة عشرة أو العشرين . في عامة الاحوال . حتى إذا بلغت إحداهن الخامسة والعشرين أو الثلاثين ، هجرت البغاء إلى عمل آخر . فتعود تلك المرأة التي كانت إلى الامس عاهرة فاجرة ، موظفة ذات منزلة وشرف <sup>(١)</sup> ويستطيع القارىء من ذلك أن يدرك الحقيقة من وراء وجود خمسمائة الف عاهرة في القطر الاميركي .

---

(١) « البغاء في الولايات المتحدة الاميركية » : الصفحة ١٣٨-١٣٩

وإن البغاء في الغرب ، كما مر في الباب السابق ، هو بمثابة الشغل التجاري الدولي المنظم . فمن أكبر أسواقه في أميركا عواصم نيويورك وريودي جنيرو وبونس آيرس . ولكل من المراكزين الأكبرين من مراكزه التجارية في مدينة نيويورك مجلس تنفيذي يُنتخب رئيسه وأمينه بطريقة الانتخاب المألوفة . ولكل تلك المراكز مستشارون من رجال القانون ، يراقبون مصالحها إذا هي وقعت في قضية قانونية . ثم تستخدم تلك المراكز نخاسين لمرادة الفتيات عن أنفسهن ، يتجولون في البلاد بحثاً عن صيدهم . ومن امتداد نفوذهم في المجتمع أنه عُيِّنَ رئيس رابطة الجالية بشيكاغو ، ذات مرة ، بإحصاء عدد الفتيات المغويات في مدة خمسة عشر شهراً ، فعُلم أنه وردت على مكتب الرابطة رسائل مائتين وسبعة آلاف فتاة ، أُخبرن فيها المكتب بكونهن في الطريق إلى شيكاغو . ولكنه لم تبلغ النهاية منهن ، إلا ألف وسبعمائة . وما عُلِمَ بشيء عن مصير الباقيات .

ثم هناك ، علاوةً على دور البغاء ، دورُ اللقَاء ( Assignment Houses ) ومحالِّ الزبارة ( Call Houses ) مفرَّشة بالآثاث والرياش ومهيأة في كل حين لالتقاء السادة والسيدات إذا ما أراد أحدهم الاجتماع بالآخر . ودل الفحص أن كان في بلدة من البلاد الاميركية ثمان وسبعون داراً من هذا الطراز . وكان في الاخرى سبع داراً ، وفي الثالثة سبع داراً<sup>(١)</sup> وتلك الدور لا تقشاهها الآنسات فحسب ، بل تختلف اليها كثير

---

(١) الصفحة ٣٨ من كتاب ( البغاء في الولايات المتحدة )

من المتزوجات أيضاً<sup>(١)</sup> . ويقول كاتب اصلاحي شهير : إن تلك الطبقة المتزوجة في نيويورك لا يلتزمون الوفاء في تبعاتهم الزوجية ، مما يتعلق بأخلاقهم وأجسادهم . ولا تختلف حال نيويورك في هذا الباب عن المدن الأخرى<sup>(٢)</sup> .

والمصلحين الاخلاقيين في القطر الاميركي مجلس يُعرف « بالجنة الاربعة عشرية » ( Committee of Fourteen ) يُعنى بالفحص عن مكامن الفجور والتحقيق في حالة البلاد الخلقية واتخاذ التدابير العملية لاصلاح الاخلاق ، على نطاق واسع وقد جاء في تقريرها : ان كل ما يوجد في البلاد الاميركية من المراقص والنوادي الليلية ومجالي الزينة ( Beauty Saloons ) وأماكن التدريب ( Manicure shops ) وحجرات التدليك ( Massage Rooms ) ومراكز تمويج الشعر ( Hair Dressings ) قد أصبح جلثها مواطن للفجور ودوراً للبقاء ، بل هي لأقبح منها وأشنع ، لما يُرتكب فيها من الرذائل التي لا تصلح للذكر .

### الامراض السرية الفناكة

وهذه الكثرة من الفواحش قد جرّت - ولا غرو - كثرة الامراض وانتشار عدواها في الناس . فقد قدّروا ان تسعين في المائة من أهالي القطر الاميركي مبتلون بهذه الامراض . ويعلم من دائرة المعارف البريطانية

---

(١) الصفحة ٩٦

(٢) الصفحة ١١٦ من كتاب ( Herself )



أنه يعالج في المستشفيات الرسمية هناك مائتا ألف مريض بالزهري ،  
ومائة وستون ألف مصاب بالسيلان البني ( Conorrhea ) في كل سنة ،  
بالمعدل . وقد اختص بهذه الامراض الجنسية وحدها ستائة وخمسون  
مستشفى على انه يفوق هذه المستشفيات الرسمية نتائج الاطباء غير الرسميين  
الذين راجعهم ٦١٪ من مرضى الزهري و ٨٩٪ من مرضى السيلان (١) .

هذا ويموت في اميركا ما بين ثلاثين وأربعين ألف طفل بمرض الزهري  
الموروث وحده في كل سنة . وإن الوفيات التي تقع بسبب جميع الامراض  
- عدا السل - يربو عليها جملة عدد الوفيات الواقعة من مرض الزهري  
وحده . وأقل ما يقدره المسؤولون في مرض السيلان أنه قد أصيب به  
٦٠٪ من النفوس في سن الشباب ، فيهم المنزب والمتأهلون . وقد أجمع  
الماهرون في امراض النساء على أن ٧٥٪ من اللاتي تجرى العملية الجراحية  
على اعضائهن الجنسية يوجدن متأثرات بمرض السيلان (٢) .

### الطرق والتفريق

ومن البديهي أنه لا يمكن في مثل هذه الحال أن يسلم النظام العائلي  
والرابطة الزوجية من الفوضى والاضطراب . ذلك بأن النساء اللاتي  
يكسبن قوتهن بأيديهن ، ولا يحتجن الى الرجال في شأن من شؤونهن ،

---

(١) الصفحة ٤٥ من الجزء الثالث والمقررين .

(٢) الصفحة ٣٠٤ من كتاب القوانين الجنسية ( Laws of Sex )

عدا قضاء الشهوة ، ويجدون الرجال لهذا الغرض قريباً منهم ، بدون أن يتقيدوا بالزواج ، لاجرم ان يعددوا الزواج شيئاً فضولياً لاحاجة اليه ولا طائل تحته . زد على ذلك أن الفلسفة الجديدة والافكار المادية قد نفت من ضمائرهن الشعور بأن مخادعة الرجال بدون الزواج عار أو إثم . وأن البيئة الفاسدة قد جعلت المجتمع أيضاً بليد الحس فاقد الشعور ، حتى لم يعد ينظر إلى أمثال أولئك الفاجرات بعين المقت أو الملام . فيكتب القاضي لندسي الاميركي يعبر عن أفكار سواد البنات والفتيات :

« مالي أزواج ؟ وهؤلاء أزائي قد تزوجن في السنتين الماضيتين ، فإذا جنين منه ؟ إلا أن كان نصيب نصفهن منه الطلاق ! وإني أعتقد أن لكل فتاة في هذا العصر حقاً طبيعياً في حرية العمل والتصرف فيما يتعلق بالحب . إذ نعرف في هذه الايام كثيراً من التداير لمنع الحمل ، فستطيع أن نلقي بها خطر المولود المتفعل وما عسى أن يتبع ولادته من أزمات . ونحن على ثقة بأن استبدال هذه الطريقة الجديدة بالطرق القديمة التقليدية هو من مقتضيات العقل في هذا الزمان . »

هؤلاء الوقحات اللاتي يفكرن هذا التفكير ، ما كان ليحفظهن على الزواج إلا عاطفة الحب وحده . ولكن هذه العاطفة أيضاً كثيراً ما لاتصدر من صميم النفس وسويداء القلب ، بل يكون من أسبابها جاذبة عارضة في جمال المحبوب . فإذا قضى الوطر من شهوات النفس ، لم يبق بين الزوجين عين للحب ولا أثر . وبكفي عندئذ أهون ما يكون بينهما

من خلاف في العادات والطباع ، أن ينزع بينها نزاعاً ويبدل جهها بفضاً  
وفركاً ، حتى ينتهي الأمر إلى تقديم المرافعة إلى المحاكم فيكتب القاضي  
الندسي : « في بلدة دنور ، في سنة ١٩٢٢ ، أعقب كل زواج تفريقاً  
بين الزوجين . وبإزاء كل زواجين عرضت على المحكمة قضية الطلاق .  
وهذه الحال لا تقتصر على بلدة دنور بل الحق أن جميع البلدان الأميركية  
على وجه التقريب تعانيها في ذلك قليلاً أو كثيراً . »

ومضي في كتابته : « ان حوادث الطلاق والتفريق بين الزوجين  
لا تزال تكثر وتزداد . وإن اطردت الحال على هذا - كما هو المرجو -  
فلا بد أن تكون قضايا الطلاق المرفوعة إلى المحاكم في معظم نواحي القطر  
على قدر ما يُمنح فيها من الامتيازات للزواج ، (١) . »

ومنذ قليل من الزمان نُشر في جريدة ( Free Press ) بدترويت  
( Detroit ) مقال يبحث في هذه الاوضاع ، قد جاء فيه :

« إن ما قد نشأ بيننا اليوم من قلة الزواج وكثرة الطلاق وتفاخُش  
العلاقات غير المشروعة - الدائمة أو العارضة - بين الرجال والنساء ، يدل  
كله على أننا راجعون القهقري إلى البهيمية ، فالرغبة الطبيعية في التسلل  
إلى الثلاثي ، والجيل المولود مُلقي حبله على غاربه ، والشعور بكون  
تعمير الأسرة والبيت لازماً لبقاء المدنية والحكم المستقل يكاد يتقني من

---

(١) الصفحة ٣١١ - ٣١٤ من كتابه : Revolt of Modern Youth

النفوس . وبخلاف ذلك أصبح الناس ينشأ فيهم الإغفال عن مآل المدنية والحكومة وعدم النصيح لهما .

والعلاج الناجع الذي قد اقترحوه بأخـرة لهذه الكثرة الفاحشة من الطلاق والتفريق ، هو ترويض النكاح الاختباري . (Gompanionate marriage) ولكن الدواء جاء أضرّ وأفتك من الداء . والمراد بهذا النكاح الاختباري ان يعاشر الرجل المرأة حيناً من الزمان ، بدون أن يعقدا بينهما زواجا من النوع القديم ، فإن تآلف قلبهما في أثناء هذه العشرة ، تزوّجا . وإن تكن الاخرى ، افترقا وراح كلٌّ منها لسبيله يبحث عن زواج آخر . على أنه يجب عليها خلال مدة التجربة هذه أن يمتنبا النسل ؛ لأنها إن جاء في أثناءها بولد ، تحتم عليها أن يعقدا النكاح ويدخلا في حظيرة الزواج . وهذا هو الذي يُسمّى في روسيا بالحُبّ الطليق : ( Free Love ) .

### الزواج القومي

كل هذا الاتّباع لأهواء النفس ، والنفور من تبعات الزوجية ، والتبرُّم بالحياة العائلية والارتقاء في الروابط الزوجية ، يكاد يذهب في المرأة عاطفة الامومة الفطرية التي هي أشرف العواطف الروحية وأسمّاها في النساء ، والتي لا يقف عليها بقاء الحضارة والتمدّن فحسب ، بل بقاء الانسانية جمعاء . وما نجمت سيئات منع الحمل وإسقاط الجنين وقتل الاولاد إلاّ بنضوب هذه العاطفة في نفس المرأة فالمعلومات عن

تدابير منع الحمل موفورة لكل فتى وكل فتاة، في الولايات المتحدة الاميركية على الرغم من قيود القانون . والآلات والمقايير المانعة للحمل معروضة للبيع في الحوانيت كالمسلعة المباحة، تستصحبها دائماً بنات المدارس والكليات، بلهامة عامة النساء . لكي لا تفوت إحداهن لذات عشية من عشيات الشباب ، إن نسسي خدينها أن يأخذ أدواته معه . فيكتب القاضي لنديمي :

« ١٩٥٠ » بنتاً في السن الباكرة من بنات المعاهد الثانوية ، اعترفت لي بأنهن كنّ جربن العلاقة الجنسية مع الصبيان . إلا أنه لم تحمل منهن إلا خمس وعشرون . وأما الباقيات ، فلم بعضهن من الحمل بمحض الاتفاق . ولكن كانت لأكثرهن خبرة كافية بتدابير منع الحمل . وهذه الخبرة قد عمّت فبين إلى حدٍ لا يكاد الناس يُصيرون في تقديره .

هذه الادوات المانعة للحمل ، تستعملها الأبكار توفيراً لحرّيتهم ، وتستمتع بها المتزوجات دفعاً للنسل عن أنفسهن ، ذلك بأن الولد لا يكتفهن متاعب التريبة والتعليم فحسب ، بل يحول كذلك دون حرّيتهم في تطليق الأزواج . ومما جعل عامة النساء يكرهن الأمومة هو الرأي : أنه لا بُدّ لمن إن أردن استيفاء نصيبهن من لذّة العيش ، أن يجتنبن هذه القيود والسلاسل ، وأن الحمل والولادة تذهب بجاملهن وبهجتن<sup>(١)</sup> .

وأياً كانت الاسباب ، فالواقع أن ٩٥٪ من العلاقات الجنسية الحاصلة اليوم بين الرجال والنساء ، يحولون بينها وبين نتائجها الفطرية بتدابير منع

( ١ ) الصفحة ٨٢ من كتاب « الرجولة والزواج » ( Manhood and

Marriage ) لمكفادن ( Macfadden )

الجل . وأما الخمس الباقية في المائة ، التي تُنتج الحمل ، فتُعالج بتدابير أخرى من الإسقاط وقتل الاولاد . يقول القاضي لندسي : إنه يُسقط في أميركا مليون حمل على أقلّ التقدير في كل سنة ويُقتل آلاف من الاطفال من فور ولادتهم .

### الحانة في انكلترا

لا أريد أن أسهب في هذه التفاصيل المؤسفة المُحزنة . ولكن أرى مع ذلك ألاّ أختتم هذا الجانب من البحث بدون أن أورد فيه مقتبسات من كتاب تاريخ الفحشاء ( A History of Prostitution ) لجورج راثيلي اسكات - هذا الانكليزي الذي يكتب ، وهو يُشير إلى حالة بلاده ، في الغالب - :

« عدا النساء اللاتي لا يملكن من وسائل الكسب غير أن يبعن أجسامهن ، هناك كثرة كثرة - لا تزال تزداد - من النساء اللاتي يملكن وسائل أخرى لاكتساب حاجتهن ، ومع ذلك يتعاطين البغاء حرصاً على زيادة الأيراد . وهؤلاء لا يختلفن عن عامة البغايا والمواهر في شيء ، ولكن لا يُطلق عليهن هذا الاسم بل لنا أن ندعوهن : الماهرات غير المحترفات ( Amateur Prostitutes ) . وقد بلغ عدد هؤلاء الماهرات غير المحترفات في هذه الايام مبلغاً لم يُعهد قط فيما قبل . فهؤلاء يوجدن في كل طبقة من طبقات المجتمع ، من الدنيا إلى العليا . ويبلغ من نخوتهن

أنك إن دعوت إحداهن عاهرةً ولو بكناية ، ثارت ثأرتها غضباً إلا أن غضبهن ما كان ليغير من وجهه الحقيقة شيئاً ، والحقيقة الواقعة ، على كل حال ، هي أنه لا فرق بينهن وبين بغيٍّ ماجنة من بغايا ( بسكاديلي ) من الوجهة الخلقية . وقد أصبح تماطي الفجور وعدم التصون ، بل اتخاذ الاطوار السوقية ، معدوداً عند فتاة العصر من أساليب العيش المستجدة ( Fashion ) ويدخل في هذه الأساليب أيضاً : التدخين واستعمال الخمر الحامضة وصبغ الشفاه بالاصبع الاحمر ، وإظهار الخبرة بالمعلومات الجنسية وتدابير منع الحمل والتحدث في الادب الفاحش . ولا تزال تكثر النساء اللاتي يزاولن العلاقات الجنسية قبل الزواج من غير ما تخرج . وفي حكم النادر والشاذ وجود الابكار اللاتي يكنن في الحقيقة والواقع أبكاراً عندما يمدن النكاح - عقد الوفاء الابدی - أمام منبر الكنيسة .

ويعني هذا الكاتب في بحثه ، فيحلل في مقام آخر الاسباب التي قد أفضت بأحوال المجتمع إلى هذا الحد المتطرف . ومن الاخرى أن نسرّد تحليله ذلك في كلماته هو :

« أولها هذا الولوع الفاحش بالتبرّج ، الذي قد بحث في نفس كل فتاة أشد الحرص على الازياء الفاتنة القالبة من أحدث الطرُز ، وأدوات الزينة والزخرفة من شتى الانواع ! وهذا من أكبر أسباب هذه الفحشاء غير المحترفة . فكل من له عینان بصیرتان ، ينظر أن من تمرّ به لیل

نهار من مئات الفتيات وآلافها ، كثيراً ما يكون عليهن من الملابس الفاخرة الثمينة ما لا يمكن أن تتسع له مكاسبهن الطيبة . ولذلك يصدق القول ، في هذه الآونة أيضاً ، كما كان يصدق قبل نصف قرن ، إن تلك الازياء الفاخرة لا يشتريها لهن إلا الرجال . أما الفرق بين هذه الآونة وتلك الايام ، فهو أن كان الذين يشترون لهن تلك الملابس إذ ذاك هم بدواتهن أو آباءهن أو إخوتهن . والذين يشترونها لهن الآن هم رجال آخرون غير أولئك . »

« وإن حرية النساء أيضاً بدأت لا تُنكر في إيجاد هذه الاحوال . وقد بلغ من ضعف رعاية الآباء ورقابتهم لبناتهم أن قد تهاى لهن من الحرية والانطلاق ما لم يكن ميسوراً حتى للابناء قبل ثلاثين أو أربعين عاماً . »

« والسبب الآخر الخطير الذي قد دعمت لاجله الفوضى الجنسية في المجتمع أن النساء لا يرلن يتهاقن على الاشغال التجارية ووظائف المكاتب والحرف المختلفة ، حيث تسنح لهن فرص الاختلاط بالرجال صباح مساء وقد حط ذلك من المستوى الخلقي في الرجال والنساء، وقلل جداً من قوة المدافعة في النساء لاعتداءات الرجال على عفّتهن ، ثم أطلق العلاقة الشبوانية بين الجنسين من كل القيود الخلقية . . فالآن أصبحت الفتيات لا يحظر بياهن الزواج أو الحياة العفيفة الكريمة حتى صار اللهو والمجون الذي كان يطلبه في الزمان الغابر أوغاد الناس ، تطلبه كل فتاة اليوم . وأمست البكارة والقنوة شيئاً من آثار الماضي، يؤود حفظها فتاة العصر الجديد فليست متعة الحياة عندها إلا أن يعبّ المرء كأس اللذات إلى صبايتها . »



في الشباب . فهي تسمى وراء تلك الا ذات وتبحث عنها في المراقص  
والأندية الليلية والفنادق والمقاهي . وربما أعمت ، في بحثها هذا ، إلى  
أن تصحب رجلاً أجنبياً إلى 'زهة' نازحة في السيارة . وبذلك تلقى  
بنفسها راضيةً مختارةً ، إلى بيئةٍ وأوضاعٍ تشمل النزعات الجنسية إشباعاً  
ثم هي لا تخاف النتائج الطبيعية لذلك ، بل ترحب بها وتستقبلها  
بطيبة نفس . .

## السؤال الفِصل

إن الذين يُنكرون الحجاب في وطننا وفي سائر أقطار الشرق ،  
ووجهة أنظارهم في الحقيقة هذا النمط من الحياة . وهذه الحياة هي التي  
قد تأثرت بمظاهرها الخلابـة أحاسيسهم ومشاعرهم . وهذه النظريات ،  
وهذه المبادئ الخلقية ، وهذه المنافع المادية ، واللذات ،  
هي التي قد فتنت جوانبها المشرقة عقولهم وأفئدتهم . فليس السبب في  
كراهيتهم الحجاب إلا " كون فلسفته الأساسية مناقضة لفلسفة الاخلاق ،  
الغريبة التي آمنوا بها ، وكونها حائلة بينهم وبين ما يطمحون إليه .  
بأبصارهم من الفوائد واللذات . أما هل هؤلاء مستعدون لقبول  
الجوانب المظلمة من تلك الحياة أم لا ؟ وبكلمة أخرى هل هم يرضون  
الوصول إلى النتائج العملية لتلك المبادئ والنظريات ؟ فأمره ليس حالهم  
فيه سواء . ففريق يعرف تلك النتائج كل المعرفة ويرضاها لنفسه ،  
ويعدّها أيضاً جوانب مشرقة ، لا مظلمة ، للحياة الغريبة . وآخر  
يعتقد هذا الجانب من حياة الغربيين مُظلماً ، فلا يريد أن يقبله ، ولكنه  
يتمالك على الفوائد التي تتصل بذلك النمط من الحياة . وثالث لا يفهم

تلك النظريات ولا يعرف نتائجها، ولا هو يريد أن يعمل فكره ورويته في تبين ما بين تلك النظريات ونتائجها من علاقة ، بل قُصاراه أن يتّبع ما هو معمول به في العالم . وقد اختلطت هذه الطبقات الثلاث ببعضها ببعض اختلاطاً ربما لا يتيسّر معه للمرء تعيين طبقة مخاطبه إذا حاوره . وكثيراً ما يؤدي هذا الاختلاط والنماذج إلى ارتباك في البحث والتواء في الموضوع . فالحاجة داعية إلى أن يفرّق بين هذه الطبقات الثلاث وتمييز إحداها عن الأخرى . ثم يتناول الكلام في كل واحدة منها ، على حسب أفكارها ومنازعها .

### المستغربون <sup>(١)</sup> من أهل الشرق

فأصحاب الطبقة الاولى قد آمنوا ، على علم وبصيرة ، بتلك الفلسفة والنظريات ، وتلك المبادئ العمرانية التي قد بُنيت عليها حضارة الغرب ومدنيته . فهم يفكرون في شؤون الحياة بفكر الغرب ، وينظرون إليها بتلك الانظار التي نظر إليها مؤسسو النهضة الاوربية الجديدة . ويودّون أن يبنوا الحياة المدنية في دولهم أيضاً على الطراز الغربي . فالغاية القُصوى عندهم من تعليم المرأة ، هي أن تستأهل اكسب الرزق ، وتكون مع ذلك

---

(١) المستغربون : المائلون إلى الغرب المفتنون بحضارته . هكذا استعمل هذه الكلمة الكاتب الكبير العلامة محمد البشير الابراهيمي في بعض مقالاته في مجلة (اليسائر) ، فاختارناها على غيرها من الكلمات في هذا المعنى كاللغريين والمتفرغين . (المعرب)

بهجة المجالس ، بارعة في فنون التسلية والإمتاع . ومنزلتها الصحيحة  
عندهم في العائلة ، هي أن تكون - كالرجال - عضواً من أعضائها -  
الكاسبين ، توفى ميزانية الأسرة المشتركة ما في دمتها من الدخل .  
ومقامها الحقيقي عندهم في المجتمع ، هو أن تُضيف إلى الحياة الاجتماعية  
عنصراً لطيفاً من زيتها وجمالها ودلالها ، فتدفيء القلوب بكلامها العذب ،  
وتشغف الآذان بغنائها الساحر وتنشط الأرواح برقصها المغري  
وتعرض كل مفاتن جسمها على الرجال بترجُّرٍها واضطرابها ، لكي  
تتمتع به نفوسهم وتلذذ أبصارهم ، ويسري في دمائهم الباردة شيء من  
الحرارة . وكذلك إن وظيفة المرأة في الحياة الوطنية لا تعدو ، في رأيهم ،  
أن تتولى الخدمة الاجتماعية ، فتعمل في المجالس والبلديات ، وتحضر  
الحفلات والمؤتمرات . وتبذل عقلها ووقتها في فضِّ المشاكل السياسية  
والمدينة والاجتماعية ، وتساهم في كل نوع من الألعاب والرياضات ،  
حتى تضرب الرقم القياسي في السباحة والعَدْو والقَفْز والطيران  
البيد... وبكلمة أخرى تعنى بكل ما يتصل بخارج البيت ولا يتبالي ما يتصل  
بداخله . فهذه هي الحياة المثلى في نظرهم ، وهذا هو الطريق المؤدي إلى الرقي  
الذي يوي عندهم وكل ما يترضه ويحولونه من النظريات الخلقية البالية ، فهو  
عبث وباطل محض . ولأجل هذه الحياة المتجددة قد استبدلوا القيم الخلقية  
(Moral Values) الجديدة بالقيم العتيقة المتوارثة على نحو ما فعلته  
أوروبا . فالمنافع المادية والذات الجسدية أحظى وأرجح عندهم من  
كل شيء . بل هي وحدها ذات قيمة وقدر حقيقي . وأما ما أزاها

من الحياء والمفنة وطهارة الاخلاق ، ووفاء الحياة الزوجية ، وحفظ النسب ؛ وما هو من قبيلها من الامور ، فكل ذلك شيء رَدُّه لا قيمة له . بل هو من اباطيل الفكر المظلم والنزعة الرجعية التي لا يمكن التقدم الى الامام بدون القضاء عليها .

هؤلاء - كما رأيت - مؤمنون حقاً بالدين الغربي ، فلا يزالون يجتهدون لنشر تلك النظريات التي قد آمنوا بها ، في هذه البلاد الشرقية ، بكل تلك الطرق والتدابير التي قد اتخذها الغرب ، لذلك فيما مضى !

### الادب الجديد

فتناول - قبل كل شيء - أدبهم الذي هو بلا ريب أكبر عامل في تربية العقول ، تر القوم لا يزالون يُحاولون في هذا الذي يسمونه (الادب) - وهو أبعد شيء عن الفضائل والآداب - أن يربّثوا للنشء الجديد هذه الفلسفة الخلقية الجديدة ، وينتزعوا من نفوسهم وأذهانهم كل أثر الأقدار الخلقية القديمة . وهانحن نعرض فيما يلي نماذج من هذا الادب الاردني الجديد :

قد ظهر في مجلة شهرية هندية ، ذات مكان مرموق في الادب ، مقال عنوانه ( الآنسة شيري في الدرس ) ، وكاتبه فاضل من أهل الثقافة العليا والذي ذكرنا به في الاوساط الادبية ، ويشغل منصباً أعلى من مناصب الحكومة . مُحصل هذا المقال أن بنتاً من بنات الأسر الشريفة تجلس أمام أستاذها للدرس ،

وفي أثنائه تقدم إلى أستاذها رسالة حُبٍ قد جاءت من صديق شاب ، للقراءة والمشورة . والصديق قد كانت صادفته في حفلة شاي ، حيث عرفت أحدهما بالآخر آنسة "أوروبية" ، ومن يومئذ جرى بينها اللقاء والاجتماع والمراسلة ، حتى وقع في نفس الفتاة اليوم أن تتعلم من أستاذها كتابة الاجوبة لرسائل صديقتها الغرامية حسب مقتضى الآداب . فالاستاذ يحاول أن يشغل تلميذته عن تلك السقامسف بالقراءة والدرس ، ولكن الفتاة تقول :

« التعليم لاريب أطلبه وأتوخاه . ولكنه التعليم الذي يساعد على الظفر باماني النفس التي أحلم بها في يقظتي ، لا الذي يجعل مني في هذه السن الباكرة عجوزاً خادمة الشعور . »

فيسأل الاستاذ: «هل لك أصدقاء غير هذا الصديق الذي ذكرت؟» فتجيب الفاضلة : « نعم لي أصدقاء متعددون ولكن ميزة هذا الشاب على غيره جميعاً أنه يحسن الزجر . »

— أرايت إن اطلع أبوك على هذه المراسلة بينك وبينه !

— وهل ترى أبي لم يكتب مثل هذه الرسائل في شبابه قط . لا ياسيدي ! إنه رجل ذو حظٍ لا بأس به من الثقافة الجديدة وملة أدراك ، لعله لا يزال يكتبها حتى هذه الآونة ، فإنه لم يدخل في الشيخوخة بعد ، بفضل الله .

— أما قبل خمسين سنة من هذا العصر، فما كان يخطر ببال أحد أن يكتب الى آنسةٍ شريفة كتاباً في الغرام .

— وهل كان الناس لا يحبون إلا الرذلات السافلات في تلك الايام، إذ ما كان أطيب عيش الرُذّال في تلك الايام ، وما أخبث عيش الاشراف !

وآخر كلمات شيري التي هي مقطع القصيد وقد بلغ فيها الكاتب نهايته من التفلسف الادبي هي : « نحن - معشر الشباب - نواجه اليوم تبعية مضاعفة ، هي ان 'نجي' - بجانب - تلك المستع والذات التي قد ضيما أسلافنا ، ونقضي - بجانب آخر - على خصال الكذب والغضب التي قد أحيوها وخلّفوها . »

وفي مجلة أدبية اخرى ذاتمة الصيت ، نُشرت قصة موجزة بعنوان (الندامة) ، قبل سنة ونصف ، خلاصتها في كلمات موجزة ان عذراء من بيت كريم تعاشق رجلاً ، وتدعوه الى بيتها في غيبة أبيها وفي خفيةٍ من أمها ، فيتلوثنان بالفحشاء ، فتحمل ، ثم تجلس بعد ذلك يوماً تناجي نفسها وتحتج لتبرير فعلتها الدنسة بالكلمات الآتية :

« لم يي هذا الاضطراب ؟ وممَّ يخفق قلبي ؟ هل يلومني ضميري ؟ وهل أنا نادمة على ما وقع مني ؟ لعله كذلك ! ولكن ما حيلتي بعدُ ، وحديث تلك الليلة المقمرة قد كُتب في صحيفة حياتي بما الذهب ، »

وذكرى تلك الساعات السابحة في نشوة الشباب هي أعز ما قد ادخرته  
في حياتي ؟ الست مستعدة لبذل كل ما أملك لاسترداد تلك  
الساعات العذاب ؟ »

« ومم ! إذا خفقان قلبي ! أمن خشية إثم ركبته ؟ وهل ارتكبت  
إثماً ؟ هيئات هيئات ! فمن الذي اذنبت إليه ؟ ومن آذيته بذني ؟ وانما  
أقدمت على بذل وتضحية . فبذلتُ أنفسي ماعندي لذلك الحبيب وباليتم  
كنت أستطيع أن أبذل له أكثر منه ! ولست أخاف الإثم . ولكني أخف...  
نعم أخاف هذا المجتمع السمج البغيض الذي يرمقني ويحدق إلي بنظرات  
فيها الشك والريبة والاتهام »

« ولماذا أخاف هذا المجتمع يصاح ؟ ألاني قد أئمت ؟ ولكن ماهو إثم  
أما كانت غيري من بنات المجتمع صانعة مثل ماصنعه ؟ .. في تلك الليلة  
البيضاء الناعمة وفي تلك الخلوة ، آه ما كان أجمل ! وكيف وضع فاه على  
فمي ، وضمني إلى صدره العريض ! أواه على تلك المتعة الذاهبة ! كيف  
لصقت بصدره الدافئ المتعطر بكل دعة وطمانينة . ثم آثرت كل هذه  
الدنيا وما أملك فيها من تلك اللحظات من اللذة والنشوة والسرور . فماذا  
كان بعده ؟ وماذا يصنعه غيري عندئذ ؟ أكانت امرأة من هذه الدنيا  
تملك أن تأتي عليه في مثل تلك الساعة ؟ »

« أفإثم هو ؟ كلام أرتكب إثماً . وما بي من خجل عليه . وها أنا  
ذي مستعدة لإعادة ما فعلت . وما العفة ؟ وماذا يريدون بها ؟ أهى العذارة



لاغير ؟ أم هي طهارة الافكار ؟ لم أعد عذراء ولكن هل يعني ذلك  
أنني قد فقدت عفتي ؟!؟»

« ألا فليصنع هذا المجتمع الفاسد البغيض ما هو صانعه ، ولا أبالي .  
وأي ضير قد ينالني منه ؟ لاشيء والله ! فلماذا أستخذي إذاً من اعتراضه  
السفيه الآخرق ، ولم أشفق من نجواه ومحساته ؟ وأصفر وجهي من  
الدُعر ؟ ولماذا أهرب من تهكمه الفارغ ؟ .. وهذا قلبي يشهد بأنني لم آت  
نُكراً ، بل حسناً فعلتُ ونعماً صنعت . ومالي إذا أناأثم منه ، ولماذا  
لا أعلن بملء في أني قد فعلته وياحبذا ما فعلت !»

هذا هو الاسلوب الفكري والمنطقي الذي يريد الاديب المتجدد في  
عصرنا هذا أن يلقنه كل فتاة من فتياتنا - ولعلّه يريد ذلك لابنته وأخته  
أيضاً - فهو يدعوهم إلى أنه أيما صدر دافىء متعطر وجدته إحداهن في  
ليل مقمر ، فلتلتصق به ولتنضم اليه ، لأنه هو الطريق الواحد الممكن  
في تلك الظروف . وليس لامرأة أن تفعل غير ذلك في مثل تلك الحال .  
وليس هذا من الإثم في شيء ، بل هو بذل وتضحية . وأيضاً لا يضير  
هذا بالمفئة ، فإن العفة هيأت أن تنال منها التضحية بالبسكرة ، مادامت  
تصحبها الافكار الصالحة المنزهة ، بل هو مما يقويها ويحكمها ، بل هو  
مأثرة جليلة يجب أن تُكتب في صحيفة حياة المرأة بماء الذهب . ولتجتهد  
كل امرأة أن تكون صحيفة حياتها ملأى بمثل هذه المآثر الذهبية .  
وأما المجتمع ، فإن كان يعيب مثل هؤلاء الآنسات المعائف ، فلا شك في

فساده وسماجه . والذنب في الحقيقة ذنبه ، إذ هو يعترض على تلك القتيات ذوات البذل والإيثار ، لاذنب البنت الكريمة التي لا تأبى الانضمام إلى صدر مفتوح في ليلة من ليالي الغرام . وإن المجتمع الظالم الذي يستقبح هذا الفعل ، لا يجدر بأن يخشاه المرء ، وأن يتوارى منه بعد قيامه بتلك المأثرة . لا وربك ، بل ينبغي لكل فتاة أن تعالين بتلك الفضيلة الخلقية وتجاهر بها بكل جرأة وقوة جأش . وبدل أن تحجل بنفسها ، يجب أن 'تججل' المجتمع وتنحي عليه باللائمة ، إن استطاعت ! فانظر إلى هذه الوقاحة والجرأة التي لم تكن تُقدم عليها حتى القواعد في حيّ البغايا ، في زمن من الأزمان . لأن أولئك البائسات ، لم تكن بأيديهن مثل هذه الفلسفة الخلقية التي تجعل الاثم صوابا والصواب مائة . ولئن كانت المومسة في ذلك العهد الماضي تبيع عقمتها وكرامتها ، فقد كانت ولاشك تعدّ نفسها مهيّنة ومرتبطة في حمأة الآثام . ولكن هذا الأدب الجديد قد جاء يشب بينت كل أسرة كريمة إلى ما قصرّت عن شأوه مومسات الغابر ، لأنه قد ابتدع - ولا يزال - لتأبيد فجورها ودعارتها فلسفةً خلقية جديدة .

وفي مجلة أخرى ، ذات رواج عظيم في أوساطنا الادبية ، قد نُشرت قصة بعنوان ( أخو الزوج ) . وكتبه نجيب أبٍ كان له فضل لا ينكر في إخراج أدب خلقي عالٍ للأنثى . وكان لهذه الخدمة التي أسداها إليهن أخطى وأحبّ إلى النساء الناطقات باللغة الاردية في الهند . ففي هذه القصة يضع الاديب الشاب بين يدي أخواته القارئات أسوة فتاة كانت

ترسل في جسمها مثل مسة الكهرباء ، بما تصوره في أخي زوجها من  
سورة الشباب ونزوات الفتوة ، قبل أن تتزوج . والتي كان من نظريتها  
الثابتة منذ صباها : أن الشباب الذي ينقضي في خمود النفس ومسكونها ،  
لا يختلف عن الشيخوخة والهرم في شيء . فكانت تقول : عندي أنه  
لا يبدل للشباب من الثورة والاضطراب الناشئ من النزاع بين العشاق  
والأحبة . فلما زُفت هذه الأنسة ، وهي تحمل في ذهنها هذه النظرية  
وذلك التصور ، انطلقت في نفسها جذوة المواطف بمنظر اللحية على وجه  
زوجها . فأزمت ، حسبا بديته في نفسها من قبل ، أن تميل بهواها عن  
الزوج إلى شقيقه . ولم تلبث أن منحت لها الفرصة لذلك . إذ غادرها  
زوجها إلى أوربة لتحصيل العلم . فملتفت بأخيه وتساقيا كؤوس الحب  
مترعة في غيابه ، وخانت الزوجة الزوج وغدر الأخ بأخيه بأفعى  
ما شئت نفوسهما . وقد كتب الكاتب قصة هذا الفعل بقلم الفاجرة  
نفسها فهي تكتب إلى صديقة لها لم تتزوج بعد ، كل ماتأتيه وما ترتكبه ،  
وتبسط لها ذكر جميع المراحل التي قد اجتازها جبهها إلى أن بلغ الغاية .  
وفي بيانها هذا لا تتحرج من تصوير كل ما قد يروى المرء من كيفيات  
النفس والجسد في الاختلاط الجنسي مما لا يبق بعده إلا أن يُصور عمل  
الفاحشة بعينه . ولعلها قد تركت لخيالة القراء والقارئات أن تسد هذه الثلمة  
في التصوير بنفسها .

فإن أنت قارنت بين هذا الأدب والأدب الفرنسي الذي قد سقنا لك  
بعض نماذجه فيما سبق ، تبين لك أن هذا الرعيل من أدباءنا الشرقيين

لا يزالون يقيمون في سيرهم خطي أسانذتهم الغربيين . فالطريق هو الطريق والغاية هي الغاية . وهم يربون العقول ويمدون الأذهان لذلك النظام الغربي للحياة ، من الجهة الفكرية والخلقية . وعنايتهم في ذلك مصروفة إلى المرأة على وجه خاص ، لكي لا يترك فيها أثر للخفر أو الخياء .

### التمرد الجديد

ثم ليست هذه الفلسفة الخلقية وهذه النظرية للحياة بقوة وحيدة في مضمار العمل . بل أصبحت تؤازرها فيه مبادئ الديمقراطية الغربية ونظام التمدن الرأسمالي . وهذه القوى الثلاث لا تزال تتعامل لسبب الحياة الاجتماعية في صيغة من صنع الغرب . فلا يزال يُدّاع حول المواضيع الجنسية أردأ نوع من الأدب وأفحش ، مما يكثر دورانه في أيدي الطلبة والطالبات في المدارس والكليات . ولا تزال الصور العارية وصور الفاجرات من النساء زينة الجرائد والمجلات وتحاسين المقاهي والمنازل . وأصبحت البيوت والاسواق كلها تدوي بالثناء الفاحش الركيك . وأصبح مدار العمل في السينما إثارة العواطف وتحريك الشهوات فتزبّن للناس الدعارة والفجور على شاشتها البيضاء كل مساء ، تزيّناً يجعل حياة الممثلين والممثلات أسوء تتبع ، لكل فتى وفتاة . فإذا خرج الشبان والشابات من تلك الملاهي المشوّقة المستفزة ، غدت نفوسهم الثائرة المتقلقلة ترتاد فيها حولها موارد الهوى ، وتلتمس فرصَ العشق والغرام .. كل هذه مظاهر شتى للانتفاع

الرأسمالي . ولأجل هذا النظام الرأسمالي للحياة لاتزال تطرأ على المتمدن والحواسر - بسرعة - تلك الأوضاع التي لاتجد فيها النساء مندوحة عن كسب الرزق ، بأيديهن . وهذا النظام هو الذي قد ساعد على ظهور الدعاية بحق منع الحمل ، بكل ما تبعه من الآلات والأدوات والعقاقير .

إن النظام الديمقراطي الجديد الذي وصلت إلى بلادنا الشرقية ( بركاته ) بواسطة انكلترا وفرنسا في الغالب ، قد جاء بسيئات ثلاث : ففتح - أولاً - باب النشاط السياسي والاجتماعي على مصراعيه أمام طبقة الإناث . وأقام - بجانب آخر - هيئات ومؤسسات لا مندوحة فيها للصنفين عن الاختلاط . وثالثاً قد أرخى من عنان القانون وقيوده إرخاءً أصبح معه الجهر بالفواحش ، بل ارتكابها فعلاً ، لا يُعَدُّ من الجرائم في أغلب الاحوال .

فالذين قد عزموا اتباع هذا الطريق في حياتهم بقلب مطعنين مقتنعين ، قد اكتمل الانقلاب - أو كاد - في حياتهم الخلقية والاجتماعية . فعادت نساؤهم يخرجن من بيوتهن في ملابس شفافة عارية يخيل إلى الناظر كأن كل واحدة منهن ممثلة من ممثلات ( هوليوود ) وأصبح يرى فيهن كل الجسارة والصفافة . بل يتبين المرء من ملابسهن الفاضحة وألوانهن البراقة ، وعنايتهن بالتزيين وحركاتهن من التثني والتفتيح ، أنه لا مطمح أمام أعينهن إلا أن يكن مغنطيساً جنسياً يجذب الرجال إليهن جذباً . وقد قلَّ الحياء فيهن إلى حد أن عدن لا يستحيين من

الفصل مع الرجال شبه عاريات ، بل من عرض أنفسهن في تلك الحالة  
 التؤخذ صورهن وتُنشر في المجلات . والحياء لم يعد له وجه عندهن  
 حقاً . إذ أن جميع أجزاء الجسد الإنساني بمنزلة سواء في التصويرات  
 الخلقية الجديدة . فإذا جاز للمرأة أن تبرز من جسمها الكف وأخص  
 القدم ، فأَيّ ضيرٍ عليها في الكشف عن مَغْنَبٍ فَخْذَهَا وَحُلْمَةِ ثَدْيِهَا .  
 وممتعة الحياة ولذتها التي يُعْبَرُ عن جملة مظاهرها باسم الفن ( Art ) ، هي  
 عند هؤلاء القوم أجلّ وأسمى من كل قيد خلقي ، بل هي في  
 نفسها مقياس للأخلاق . ومن ثم ترى الآباء منهم والاخوان يكاد أحدهم  
 يخرج من إهابه غفراً وسروراً ، إذا شهد ابنته أو أخته الأنسة تُعْجَب  
 بمئات الحضور والسامعين المتشوّقين ببراعة غنائها ورقصها وتمثيلها الفرامي  
 وتقال رضام وتحسينهم . وإن النجاح المادّي الذي يعدّونه غاية الحياة  
 ومقصودها ، أرجع وأعلى في رأيهم من كل ما يمكن أن يُنال هذا  
 ببذله . فالفتاة التي تؤهّل نفسها للظفر بهذا المقصود - النجاح المادّي -  
 وتنبّل الخطوة لدى المجتمع ، إن فقدت عقبتها في هذا السبيل ، فكأنها لم تفقد  
 شيئاً ، بل حازت كل شيء . ومن ذلك لا يكاد هؤلاء يفقهون وجه  
 الطعن على تعلّم فتاة مع الفتيان في المدرسة أو الكلية ، أو على ذهابها  
 منفردة في سنّ الشباب ، إلى أوربة لتحصيل العلم .

### فصل الخطاب مع المستقرئين

هؤلاء هم أشد الناس اعتراضاً على الحجاب . وهو في رأيهم شيء

حقير" ظاهر' البطلان ، يكفي لردّه وإبطاله التّهم به والسخرية منه .  
ولكن مثلهم في ذلك كمثل من كان لا يجد ضرورة وجود الأنف على  
وجه الانسان ، فقد استهزئ بكل من رأى على وجهه أنفاً . فهذا الدليل  
الجاهلي لا يرعب إلا الجاهل ويجب أن يفهموا - إن كانوا يعقلون - أن بيننا  
و بينهم اختلافاً أساسياً يتعلق بأقدار الاشياء . فالأمور التي نقالي بقيمتها نحن ،  
هي عند أولئك القوم رخيصة تافهة . ولذلك فإن الطريق العملي الذي نراه  
واجب الاتباع حسب معيارنا لتقدير الاشياء ، لا بد أن يكون في ظنهم فضولياً  
نكداً . ولكنه ما دام بين الجانبين مثل هذا الاختلاف الاصلي الرئيسي ،  
فمن الطيش وخفة العقل أن يبدأ المرء بحملته على الفروع ، قبل أن  
يبحث ويتكلم في أصل الاختلاف ومبدئه . أما الاقدار الانسانية فليس  
الحكم الفيصل في تمييزها وتحديدّها إلا " قوانين الفطرة . وذلك أن كل  
ما اقتضاه تركيب الوجود الانساني تبعاً لقوانين الفطرة وما كان فيه  
فلاح الانسان وصلاحه ، هو وحده في الحقيقة يستحق العناية والتقدير ..  
فتمالوا إذا ! نخبر ما عندكم بهذا المقياس وننظر أيّنا على الحق في تمييز  
قيم الاشياء وأقدارها . فهاقوا براهينكم العلمية ونأتي ببراهيننا . ثم نضع  
هذه وتلك في كفتي الميزان ونوازن بينهما كأهل النصدق والرشاد ، انرى  
أيها ترجح في الميزان وأيها تشول . فإن أثبتنا لكم بذلك أن معيارنا  
للاقدار هو الصحيح ، كان لكم الخيار في أن تقبلوا هذه الاقدار  
المستندة إلى العلم والعقل ، أو تبقوا متمسكين بتلك الاقدار التي اخترعوها  
تبعاً لأهواء أنفسكم غصب . ولكن موقفكم في هذا الاخير لا بد أن

يكون من الخطأ والضعف بحيث يجعلكم أنتم موضع الهزء والسخرية ،  
بدل أن تسخروا من غيركم .

### الطائفة الثانية

ثم هناك طائفة ثانية ، تواجهنا بعد الاولى . وإذا كانت الاولى متألفة  
من المسلمين وغير المسلمين ، فهذه الثانية تشتمل في الغالب على المسلمين .  
وهؤلاء قد راج بينهم خِلط عجيب من بعض السفور وبعض الحجاب ،  
ولا يزالون (مبذيين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) فيجانب تنزع  
نفوسهم نزعة إسلامية ، وهم لا يؤمنون بتلك المعايير التي قد جاء بها الاسلام  
للأخلاق والتهذيب والكرامة وحسن الفعل ، ويريدون أن 'يحلّسوا'  
نساءهم بحلي العفة والحياء ، ويطهروا بيوتهم من الأدناس الخلقية ، وليسوا  
مستمعين لقبول تلك النتائج التي قد ظهرت - ولا بد أن تظهر أبداً -  
لاتّباع مبادئ التمدن والاجتماع الغربيين . وبجانب آخر ، هم زاحفون  
بأزواجهم وبناتهم وأخواتهم إلى الطريق الذي قد سلكته الحضارة الغربية ،  
متمدين حدود النظام الاجتماعي الاسلامي ، كارهين حيناً ومترددين آخره ،  
تارة 'يحبسون' ، وأخرى يُقدّمون ، وقد ظنوا غلطاً في الفهم أنهم بالجمع  
بين بعض الطريق الغربي وبعض الطريق الاسلامي على هذا النحو ،  
سيجنون منافع الطريقين وبركاتهما جميعاً ، فستبقى الاخلاق الاسلامية في  
بيوتهم محفوظة موفورة ويبقى نظام حياتهم العائلية مجموعاً محكماً ،  
وسيجمع نظامهم الاجتماعي محاسن الاجتماع الغربي لامساوئه ولذاته



ومنافعه دون مضارّه . ولكن الحق أنه لا يصح - أولاً - تلقيح فرعين اقتطعا من حضارتين مختلفتين في المقاصد والغايات ، لان هذه المزاوجة المتكلفة بين المتناقضين أخرى - في القياس - بأن تجمع مضارّهما جميعاً من أن تجلب منافعهما جميعاً . ثم إنه مما يناقض الفطرة ويخالف العقل أنك بعد أن تُرخي لنفسك من عنان النظام الخلقى الاسلامي المحكم وتُموّدها التعمدي لحدود القانون قد تتمكن من كبح جماحها عند الحد الذي ترى الوقوف عنده خالياً من الضرر . فهذا الشغف بالازياء العارية والتفاني في الزينة والتبرّج ، والبدء بتموّد الجراءة في مجالس الخلان ، والإقبال المتزايد على الصور العارية والقصص الغرامية ، وتعليم البنات على الطراز الغربي . كل هذه المظاهر تجاوزت حدود الاجتماع الاسلامي إن كانت لا تمود عليك بنتائج عاجلة ، ولا تنال مضارّها الجليل الحاضر ، ولكنه من البلاهة والحمق الظن بأن الاجيال القادمة أيضاً ستسلم من أضرارها . ذلك بأن بداية كل طريق منحرف في التمدّن والاجتماع تكون لاشك حقيرة متواضعة ولكنها إذا انتقلت من جيل إلى آخر ، ومن ثانٍ إلى ثالث ، فإنها تمود خطأ عظيماً وأمرأ مستفحلاً ومصدق ذلك اورة واميركا ، فإن الاسس الخاطئة الموروثة التي نطّم عليها اجتماعها من جديد . لم تظهر نتائجها فيها عاجلة ، بل تمّ ظهور تلك النتائج الكاملة أخيراً في الجيل الثالث والرابع . لذلك كان هذا الجمع المتكسّف بين الطرق الغربية والطرق الاسلامية ، وهذا الحجاب السافر ، ليس بشيء ثابت مستقر ، بل رجحانه الطبيعي إلى الطريقة الغربية المتطرفة . والذين هم مستمسكون به الآن ، يجب أن

يعلموا أنهم بعدُ في بداية المسير الذي إن لم يصل الى نهايته هؤلاء ، فلا بُدَّ  
ان يصل اليه خلفهم أو الجيل الذي يليهم .

## السؤال الفصل

وهنا ينبغي للقوم أن يتشَبَّهوا في الامر وقبل أن يخوضوا في سيرهم  
عليهم أن يحزموا موقفهم من سؤال أساسي ، هو بكلمات موجزة : هل  
أنتم مستعدون لقبول النتائج التي قد حصلت في أوربة واميركا ، وهي  
ثمرات طبيعية لازمة لذلك الطريق الاجتماعي ؟ وهل أنتم ترضون أن  
تروا في مجتمعكم مثل تلك البيئة الغريبة المهيجة للشهوات ؟ وأن يروج في  
أمتكم مآراج في أمم الغرب من فقد الحياء وزوال العفة ، وغلبة الفواحش  
فتعم الأمراض السرية كالأوبئة ؟ ويتبدد نظام العائلة والبيت ، ويكثر  
الطلاق والتفريق ، ويتربى الشباب والشوابُّ على قضاء الشهوات أحراراً  
من كل قيد ، ويقطع التماسل بتدابير منع الحمل وإسقاطه وقتل الاولاد ،  
ويضيح الفتية والفتيات خير ما أوتوا من قوة العمل وصحة الجسم في شهواتهم  
المجاوزه لحدود الاعتدال ، حتى لا ينجو من ذلك الصغارُ ، فتنشأ فيهم  
الزعات الجنسية قبل الاوان ، ويصيب غوِّم الجسدي ونشأتهم الفكرية  
فتور عظيم منذ بداية عمرهم ؟

فان كنتم تريدون أن تقبلوا كل هذه العواقب الوخيمة طمعاً في المنافع  
المادية واللذات الحسية ، فأنتم أحرار في ان تتبعوا سبيل الغرب ؟ ولا  
تشفخوا انفسكم بذكر الاسلام . ولكنكم قبل ان تسلكوا تلك السبيل.

يجب عليكم ان تعلنوا قطع صلّتكم عن الاسلام ، حتى لا يكون لكم بعد ذلك أن تتخذوا أحداً باسمه ، ولا تكون فضيحتكم وسوء سمعتكم سبباً في تشويه سمعة الاسلام والمسلمين .

ولكنكم إن كنتم غير مستعدين لقبول تلك النتائج ، بل توحيتهم لأنفسكم نظاماً صالحاً مُطهراً للتمدن ، تنمو فيه الفضائل والمساكن الإنسانية الشريفة ، ويجد فيه الانسان بيئةً هادئة ساكنةً لارتقائه العقلي والروحي والمادّي ، ويتمكّن فيه الرّجال والنساء من القيام بخدماتهم المدنية ، بحجر ما أوتوه من المقدرة والكفاءة ، على نجوة من خلجات الشهوة البهيمية ، وتثبت فيه دعامة التمدن - أي الأسرة - وتستحكم . ويُحفظ وجود الأجيال ، ولا تقوم فتنة اختلاط الانساب ، وتكون فيه الحياة العائلية للمرء بمجوعة الدّعة والراحة والسكون ، وشوئاً آمناً لتربية الأولاد ونشئتهم ومجالاً للمشاركة والتعاون العملي بين أفراد الأسرة . إن كنتم تطلبون مثل هذا التمدن الصالح المطهر فلا تولّوا وجوهكم شطر الغرب لأنّه سائر في الجهة العاكسة . ومن الحال العقلي أن يبلغ المرء غايةً في الشرق ، بانّجاهه نحو الغرب . إن كنتم تقصدون كل هذا فعليكم بسلوك مسبيل الاسلام وحده .

على أنكم قبل أن تقصدوا هذا السبيل ، يجب أن تنزعوا عن نفوسكم ما علق بها من حب المنافع المادية والذات الحسية ، لتأثركم بمظاهر التمدن الغربي الفاتحة ، وأن تنفوا عن أذهانكم تلك النظريات والتصورات التي

قد اقتبستموها من الغرب ، وتهجروا هجرأ جميع المبادئ والمقاصد التي  
 قد أخذتموها من التمدن والاجتماع الغربي . ذلك بأن الاسلام له مبادئ  
 ومقاصد خاصة ، وله نظريات عمرانية مستقلة ، وقد اصطنع لنفسه نظاما  
 اجتماعياً حسب ما تقتضيه طبيعة مقاصده ومبادئه ونظرياته العمرانية .  
 ثم إنه يحافظ على هذا النظام الاجتماعي بضوابط معلومة وطريق تأديبي  
 مخصوص ، قد قرر بحكمة بالغة ومراعاة لخصائص النفس الانسانية كاملة  
 مما لا يمكن أن يسلم هذا النظام بدونه من الفوضى والاضلال . وليس  
 هذا النظام خيالاً قائماً على الأوهام Utopia كديموقراطية افلاطون ، بل  
 هو قد ثبت على محك الدهر طوال ثلاثة عشر قرناً ونصفاً ، ولم يورث  
 أمة من الأمم ، ولا قطراً من أقطار العالم ، خلال هذه المدة الطويلة ،  
 شيئاً مما أورثه التمدن الغربي إياها من المفاسد والشنائع في مدة قرن واحد  
 لاجل ذلك إن كنتم تريدون الانتفاع بهذا النظام الاجتماعي المختبر المحكم ،  
 فلا بد لكم أن تأخذوا أنفسكم بتأديبه وتخضعوا كل الخضوع لضابطه .  
 ثم ليس لكم بمده أن تدمسوا في هذا النظام ، بغير حق ، كل ما اخترعته  
 عقولكم أو ما ورد عليكم من غيركم ، من أفكار فجأة وطرق مقترحة  
 غير مجربة ، تخالف مزاج هذا النظام وطبيعته .

أما الطبقة الثالثة ، فهي تشمل على السفهاء والمغفلين الذين ليس فيهم  
 من الكفاءة والأهلية ما يفهمون به الأمور ويفكرون فيها بأنفسهم ويرون  
 فيها رأيهم . ولذلك لا يستحقون أن يعنى بأمرهم ، فأجدر بنا أن نعرض  
 عنهم ، وننتقل في بحثنا إلى الأمام !

## قوانين الفطرة

إن الفاطر قد خلق النوع الانساني - كسائر الانواع - أزواجاً ، أي جعلهم صنفين اثنين ، يميل أحدهما الى الآخر بدافع طبيعه . ولكن الذي يدل عليه ما علم من أحوال سائر الانواع الحيوانية ، هو أن الغاية من وراء التقسيم الصنفي والميلان الطبيعي فيها هي مجرد بقاء أنواعها . ولذلك قد أودعت تلك الانواع من هذا الميلان مالا بد منه لبقاء كل نوع منها ، ووزعت في جبلتها قوة وازعة لاتدعها تتخطى ذلك الحد المعين في أداء وظيفتها الجنسية . وأما الانسان - بخلاف ذلك - فهذا الميلان فيه ليس يحده حد ولا يضبطه ضابط ، وهو أكثر وأشد فيه منه في سائر الانواع فلا يقيدده وقت من أوقات الليل والنهار ، ولا فصل من فصول السنة الاربعة . ثم ليس في جبلته قوة وازعة تقف به عند حد بعينه . بل الرجل والمرأة يميل أحدهما إلى الآخر ميلاناً دائماً أبدياً ، وقد ركب فيها ما لا يعد ولا يحصى من أسباب الجذب والانجذاب الصنفي ، وأشربا في قلوبهما حب الجنس الآخر والولع به . ووضعت في تركيب أجسامها وفي تناسلها وألوانها وهيئتها وملبسها ، وفي كل جزء من أجزائها جاذبية

الجنسين بعضها لبعض . وأودعت رنة صوتها ومشيتها وحر كاتها ولفقاتها؛  
قوة أخاذه . ثم قد بث القدر فيما حولها ما لا يحمد من الاسباب التي تحرك  
فيها النزعات الجنسية وتميل أحدهما إلى الآخر . فريفي الرياح ، وجريان  
الماء ، وخضرة النبات ، وعبير الياحين ، وزقزقة الطيور ، وعارض السماء  
ونعومة الليل القمر ! كل هذه المظاهر للجمال الفطرة وبهاء الكون ، إن  
منها شيء إلا يحرك فيها المواطن بنفسه أو بواسطته .

ثم إنك إن تأملت نظام الجسم الانساني ، علمت أن ما أودعه من  
مخزون القوة العظيم ، هو في الوقت نفسه ، قوة الحياة وقوة العمل وقوة  
الوظيفة الجنسية . فالغدد ( Glands ) التي تهيء لأعضاء الانسان الحاثات  
(Hormones) وتبعث في جسمه قوة العمل والفتنة والنشاط ، هي التي قد  
وكل إليها أن تنشئ فيه قوة الوظيفة الجنسية ، وتنمي فيه المواطن  
المحركة لهذه القوة وتزوده بصنوف الادوات من الجمال والرواء والوضاء  
والروعة لاستثارة تلك المواطن . ثم تبعث في ناظرته وسماعته وشامته  
ولامسته ، وحتى في مخيلته صفة التأثير بتلك الاصوات الجمالية .

وهذه الحكمة والتدبير نفسه ، قد راعته الفطرة في قوى الانسان  
النفسية . فكل ما أودعته نفس الانسان من القوى المحركة ، تتصل  
أسبابها بفرزتين قويتين : إحداهما ، التي تحفزه على حفظ وجوده وخدمة  
ذاته . والاخرى ، التي تدفعه إلى التعلق بالجنس المخالف . ففي عهد  
الشباب ، حينما تكون القوى العملية في الانسان على أشدها ، تبلغ هذه

الفريزة الثانية من القوة والشدة أنها كثيراً ما تقهر الأولى . و يبلغ من تأثيرها في الانسان أنه ربما لا يتردد في الالقاء بيديه إلى التهلكة وهو يعلم !

### تأثير المجازية الجنسية في انشاء التمدن

لأي شيء ترى هذا التدبير المحكم ؟ المجرد بقاء النوع ؟ لا ، لان النوع الانساني لا يحتاج لبقائه إلى كل ذاك التناسل الذي يحتاج اليه السمك والمز وما اليها من الانواع . فما العلة إذاً لكون الفاطر قد جعل حظ الانسان من الميلان الجنسي أكثر من كل ماسواه من الانواع ، وأعد له من أسباب التحريك والتهيج ما لم يعده لباقي الحيوان ؟ هل ذلك كله لتوفير اللذة والمتعة للانسان ؟ لا ، ليس الامر كذلك أيضاً . لان الفطرة لم تجعل اللذة والمتعة شيئاً مقصوداً بذاته في حال من الاحوال . وإنما هي تضع اللذة في عمل من الاعمال ، حفزاً للانسان والحيوان عليه ، لتحقيق مقصود أسمى وأجل ، حتى يقوموا بهذه الخدمة راضين ، شاعرين بانهم يفعلون ذلك لمصالحهم ، لا لمصالح غيرهم . فتأمل الآن ! ما هو ذاك المقصود الأسمى الذي ترمي اليه الفطرة في هذا الأمر . إنك مهما فكرت وترويت لم تفقه لكل هذا التدبير من غاية سوى أن الفطرة تريد للانسان - بخلاف سائر الانواع - أن يتحضر ويتمدّن !.

فلهذا السبب وحده قد وضعت في قلبه تلك الفريزة للحب والهوى

الجنسي ، التي لا تقتضي مجرّد الاتصال الجسدي ، والوظيفة الجنسية ، بل تتطلب عشرة دائمة وصلة قلبية وتعلقاً روحياً قوياً .

ولهذا السبب وحده قد جعل الميلان الجنسي في الانسان اضماف مافيه من قوة الجماع . ولو أنه يأتي الوظيفة الجنسية بقدر ما أودع من الشهوة والتزوع الجنسي ، أستغفر الله ، بل بقدر معشار مافيه من تلك الشهوة والتزوع ، لخانتته صحته ونفدت قواه قبل أن يبلغ تمام عمره الطبيعي . وهذا من الدليل البين على أنه ليس المقصود بتوفير التزوع الجنسي فيه أن يأتي الوظيفة الجنسية أكثر من سائر الحيوان ، بل يراد به وصل الرجل والمرأة بهذا السبب القوي ، وجعل علاقة مابينها ثابتة مطردة !

ولأجل ذلك قد رُكّب في طبع المرأة - بجانب الشهوة والجاذبية الجنسية - الحياء والاحتشام والصدود والامتناع والفرار التي تتصف بها كل امرأة قليلاً أو كثيراً . ولا ريب أن طبع الفرار والامتناع هذا ظاهر على إناث سائر الحيوان أيضاً، ولكنه في أنثى الانسان أكثر وأشد. وقد زيد في شدته بما وُضع فيها من غريزة الحشمة والحياء . وهذا أيضاً يُستنبط منه أن المقصود بوجود القوة المغناطيسية الجنسية في الانسان هو تحقيق الاتصال الدائم بين زوجيه ، لأنّ تنتهي كل نزعة جنسية فيها إلى وظيفة جنسية .

ولهذا السبب قد خلق الطفل الانساني أضعف وأعجز من نتاج



سائر الحيوان . فيحتاج الولد الانساني - بخلاف الحيوانات الأخرى - إلى رعاية والديه وتربيتها مدة بضع سنين ، ويتأخر فيه نشوء القوة والاهلية لكسب قوته ، والاستقلال بنفسه في المعاش . وهذا كذلك مما يُراد به ألا ينحصر اتصال الرجل والمرأة في التعلق الجنسي بينهما ، بل تحملها نتيجة هذا التعلق على التعاون والتعامل في الحياة .

ولهذا نفسه قد فطر الانسان أحنى على أولاده وأكثر حبا لهم من كل الحيوان . فالحيوانات تفارق أولادها بعد أن تربها لمدة قليلة ، ثم تنقطع بينها الاسباب حتى لا يعرف بعضها بعضاً بعد ذلك . والانسان - بخلاف ذلك - يظلّ مأسور الفؤاد بحُب أولاده ، حتى بعد انقضاء مدة التربية ، ثم يمتد حبه هذا من أولاده إلى أولاد أولاده . ويبلغ من سلطان هذا الحب على طبع الانسان الحيواني الاناثي أنه يُحب لأولاده أكثر مما يُحب لنفسه ويود من قرارة نفسه أن يهيئ لخلفه أحسن ما يكون من أسباب العيش ، ويورثهم كل ثمرات أعماله ومجوارده في الحياة . فما كانت الفطرة لترمي من وراء هذه العاطفة الشديدة من الحب إلا أن تحول التعلق الجنسي بين الرجل والمرأة إلى رابطة أبدية . ثم تتخذ هذه الرابطة أداة لإنشاء العائلة ، ثم تمضي هذه السلسلة من حب الأقارب والادنين تربط كثيراً من العائلات بأصرة الصهر ، حتى تشترك في الحب والاجباء ، فيحملها هذا الاشتراك على التعاون والتعامل . وبذلك يقوم نظام للتمدّن .

## المسألة الأساسية للتمدن

يتضح من ذلك كله أن وفور هذا الميلان الجنسي الذي لا يخلو منه عصب من أعصاب الجسد الانساني أو ناحية من فواحي روحه ونفسه ، والذي قد هيا الفاطر لتعزيزه وتقويته أسبابا ومحركات في كل جانب من جوانب هذا الكون ، على نطاق واسع جداً ، المقصود به : صرف ( الفردية ) في الانسان الى ( الجماعية ) . وإن الفاطر قد جعله قوة محرّكة أصلية للتمدن الإنساني . فهذا الميلان الشديد والانجذاب الدائم يتحقّق الوصل بين الجنسين من النوع الإنساني . ومن هذا الوصل بينهما تكون بداية الحياة الاجتماعية ( Social Life ) .

وإذا تحقّق هذا الأمر ، تبين أن مسألة العلاقة بين الرجل والمرأة ، هي في الحقيقة مسألة أساسية للتمدن ، يتوقف على حلها الصحيح أو الخاطئ ، صلاح التمدن أو فساد وخيره أو شره ، وقوته أو ضعفه . وأن بين الجنسين الانساين علاقتين إحداهما علاقة بهيمية - وبكلمات أخرى جنسية شهوانية خالصة - ليس المقصود بها إلا بقاء النوع . وأخرى علاقة انسانية يراد بها للجنسين أن يتعاونوا فيما يشتركان فيه من المصالح والأغراض ، حسب ما أوتي كل واحد منها من المواهب والكفاءات الفطرية ويُعينها على هذا التعاون حبها الجنسي الذي يكون بينها واسطة

الاتصال . وهذان المنصران - البهيمي والانساني - يتعاملان في الجنسين  
ويستخدمانها للقيام بشؤون التمدن وفي الوقت نفسه لإنتاج المزيد من  
الأفراد الذين يواصلون تدبير تلك الشؤون . وصالح التمدن متوقف  
على أن يكون امتزاج هذين المنصرين معتدلاً متزاناً .



## لوازمُ المدينة الصالحة

هيا بنا نعالج المسألة بالتحليل . فنعلم كيف تمتزج العلاقتان - البهيمية والانسانية - بين الرجل والمرأة امتزاجاً معتدلاً متزاناً ، وأي صُور من الانحراف والشطط تعترى هذا الامتزاج فتجرح على التمدن الفساد .

### ١

#### تعديل الميلان الجنسي

إن أم وأولى ما يواجهه المرء من المسائل في هذا الصدد هو النزوع والميلان الجنسي كيف يكبح جماحه ويُحد من طفياته . وقد مر آنفاً أن هذا الميلان في الانسان أشد وأقوى منه في سائر الحيوانات ولا ينحصر الامر في أن القوى المهيجة على أشدها في داخل الجسم الانساني فحسب ، بل الامر أن قد نُشر في خارجه أيضاً ، من كل جانب من هذا العالم الواسع ما لا يُعد من الحركات الجنسية . وهذه الغريزة التي قد أعدت لها الفطرة نفسها كل تلك الأسباب ، لو أن الانسان يأتي ويبقى الأسباب

لتقويتها وإغاثتها بإعمال فكره وقوة اختراعه ، ويختار لنفسه نوعاً من  
التمدن ، يزداد فيه هيامه الجنسي ويشتد مع الأيام ، ثم تيسر له فيه  
فرص إروائه وتسكينه ، فإن هذه الغريزة لا جرم أن تفحش وتخطى  
حدود الاعتدال ، ويغلب المنصرُ الحيواني في الإنسان عنصره الانساني  
كل الغلبة ، وتأكل هذه الهيمة الجامحة انسانيته وتمدنه معاً .

إن الملاقة الجنسية وما يتقدمها من المبادئ والحوافز ، كل واحد  
منها قد جعلته الفطرة لذيذاً متمماً ولكنها لم تجعل هذه اللذة فيه - كما سبق  
أن أشرنا إليه - إلا لتحقيق مقصدها وهو إنشاء التمدن . أما شغف  
الإنسان بهذه اللذة متجاوزاً حدّ القصد ، وانهاكه في طلبها دون سائر  
الامور ، فقد يجرّ وهو فعلاً ما زال ولا يزال يجرّ الخراب والدمار ،  
لا على التمدن وحده ، بل على النوع الانساني أجمع . فانظر في أخبار  
الأمم البائدة وآثارها ، تجد أن غريزة الشهوة كانت فاحشة فيهم ومتغلبة  
عليهم . فهذه آدابهم تراها مملوءة بالمواضيع الجنسية المهيجة ، وهذه أخيلتهم  
وأفكارهم وقصصهم وأشعارهم وصورهم وتمائيلهم ومعاييدهم وقصورهم -  
كلها ناطقة بطغيان شهواتهم . وانظر كذلك في أحوال الأمم التي هي  
سائرة اليوم في سبيل الخراب تجد القصد هو القصد والطريق هو الطريق  
ومها حاول هؤلاء أن يخفوا شهواتهم المفرطة باسم الفن والادب اللطيف  
وتذوق الجمال وما شاكله من الاسماء الجذابة ، فإن الحقيقة لا تبدل  
ببديل السمة والعنوان . أرأيت ما هذا الذي قد جعل المرأة في المجتمع  
الحديث أرغب في صحبة الرجال منها في صحبة النساء ؟ وجعل الرجل

أحرصَ على عشرة النساء منه على عشرة الرجال ؟ وما السبب في زيادة حبّ الزينة والتجمل في الصنفين مع الايام ؟ ولماذا تنكاد المرأة تتجرد من ملابسها في هذا المجتمع المختلط ؟ وما الذي يجعلها تكشف عن عورات جسمها وتعرضها على الانظار عورةً بعد عورة ، والرجال ينادون : هل من مزيد ؟ وما العلة في أن الصورَ الفاحشة والتماثيل المجردة والرقص العريان هي أحبّ الاشياء إلى الناس ولماذا لا تجد النفوس لذّة في الأفلام السينائية ما لم تمازجها أحاديث الحبّ والغرام ، وما لم يُصنّف إليها كثير من مقدمات العلاقة الجنسية من القول الفاحش والعمل المبهج ؟ أرأيت ما هذه كلها وما شاكلها من المظاهر الكثيرة الأخرى ؟ وهل تتمّ هذه كلها على شيء غير طغيات الغريزة في الأنثى والذكور ؟ وهل يكون مصير التمدّن الذي تقوم فيه هذه البيئّة المفرطة في الشهوات غير الهلّكة والثبور ؟

الحق أن مثل هذه البيئّة بما تمتاز به من شدة الميلان الجنسي والتهيج الدائم والتحرّيك المستمر ، لا بدّ أن يضعفَ فيها النسل ، ويفسد نموّ القوى البدنية والعقلية ، وتوزّع الافكار وتشتد الاذهان ، (١)

---

(١) مما كتبه بعض الأطباء : إن زمن البلوغ يدخل على الانسان بكثير من التغيرات الهامة . فتعزّي أفعال نفسه وجسده المختلفة خلاله حالة اقلالية ، وتحصل فيه النشأة والنمو من جميع الوجوه . ولاحتمال تلك التغيرات الواقعة في جسده ، وقبول تلك النفاة والنمو ، يحتاج المرء في هذه الآونة إلى استيعاب كل قوته . ومن هذا تنقسم فيه المكافحة الأمراض . وهذا العمل الطويل - من النمو العام ونشأة الاعضاء =

وتكثر الفواحش وتعم الأمراض السرية ، وتقوم الحركات المختلفة لمنع الحمل وإسقاطه ، وقتل الاولاد. ويعود الرجال والنساء يخالط بعضهم بعضاً كالبهايم ، بل يستعملوا الميلاق الجنسي الذي قد جعلت الفطرة حظهم منه أكثر من سائر الحيوان ، فيما يناقض مقاصد الفطرة وينافها ويبدؤا في بهيمتهم كل أنواع الحيوان حتى القرود والماعز ، وهذه البهيمية الشديدة الطاغية لا جرم أن تهدم التمدن والحضارة ، بل تهدم الانسانية نفسها ، ومن استرسل فيها من الناس حري بأن يتعثر بهم الانحطاط الخلقي في حضيض من الذلّة ، لا ينهضون منه أبداً الدهر .

ومثل هذا المصير لا بد أن يلقاه التمدن الذي يختار جانب التفريط فكما أن إفراط الميلاق الجنسي وتجاوزه حد الاعتدال ضار ، كذلك

---

= وحدث التغير في الجسم وفي النفس - الذي ينتقل بالانسان من طور الصبا إلى طور الرجولة ، عمل متعب شاق ، تكون طبيعة المرء في اثنائه في كد وكدح ، فلا يجوز أن يحمل عليها في تلك الحالة حمل باهظ ، ولا سيما العمل الجنسي والهيجان الشهواني اللذان هما يضران بها أبلغ الضرر .

ويكتب عالم ألماني شهير في علوم النفس والعمران: إن الاعضاء الجنسية لكونها تحت تأثير هيجان غير عادي ( Sensation ) لحاسة الذة والشبق في الانسان ، تكون مستعدة أبداً لاجتذاب جانب كبير من قواه الذهنية إلى نفسها أو قل لغضبها والاستبداد بها . فهي إن قويت في المرء وغلبت عليه ، تشغله بالمتع والذات الفردية بدلاً من خدمة التمدن .

وهذه المنزلة الخطيرة لتلك الاعضاء في جسم الانسان يمكنها أن تنحرف بجيانه الجنسية ، كلما غفل ، عن جادة القصد والاعتدال وتبدل نفعها له ضرراً فيجب لذلك أن يكون أم غايات التعليم أن يوصد باب هذا الخطر العظيم .

كعبته وتذليله فوق الحد المعقول صار . وإن النظام التمدني الذي يدعو  
الانسان إلى العزوبة الدائمة والرهينة وإماتة الشهوة بالرياضات والمشاق ،  
فإنه يُحارب الفطرة ، والفطرة لا تغلب بل تغلب ، وتجنح بمن عارضها .  
أما تصور الرهينة الخالصة ، فمن البديهي أنه لا يمكن أن يكون أساساً  
لتمدنٍ بشري ، لأنه في الحقيقة مناف للتمدن والحضارة . ولأرب أنه  
يمكن بإثبات تلك التصورات الرهينية في النفوس أن تُنشأ في المجتمع  
بيئة خلوة من مؤثرات الشهوة ؛ تجعل العلاقة الجنسية فيها شيئاً محترقاً  
مستشنعاً في ذاته ، ويقرر اجتنابها ميالاً للفضيلة ، ويحاول بكل الوسائل  
الممكنة أن يكبت هذا الميلان في نفس الانسان . ولكن الحق أن انكبات  
هذا الميلان الجنسي في الانسان معناه انكبات الانسانية فيه حقاً ؛ لأن  
هذا الميلان لن يهن ولن يتراجع وحده ، بل سيراجع معه ذكاء الانسان  
وقوته العلمية وموهبته العقلية وعزيمته وجراته وهيمته وشجاعته ،  
وبوهن هذا الميدان مستترأخي في الانسان جميع قواه ومقدراته ، ويرد  
فيه الدم ويجمد ، ولن يعود أهلاً للترقي والنهوض . وذلك لأن أكبر  
القوى المحركة في الانسان هي هذه القوة الجنسية بلا نزاع .

فمن أول واجبات التمدن الصالح الرجوع بهذا الميلان الجنسي من  
مضلتي الافراط والتفريط إلى جادة القصد والاعتدال ، وضبطه بما ينبغي  
من ضابط . ويجب لهذا الغرض أن يُدبّر للحياة الاجتماعية نظام يمنع  
- بجانب - كل ما يخرجه الانسان بإرادته وبتأبعه الشهوات من أسباب



التهيج والتحريك المتجاوز حد الاعتدال ( Abnormal ) ، ويضع  
- بجانب آخر - طريقاً لإرواء غليل الشهوات الفطرية المعتدلة ( Normal )  
يوافق مقاصد الفطرة نفسها .

## ٢

### تشكيل الأسرة

وبالطبع ينبعث هنا في ذهن الباحث السؤال عن مقصود الفطرة  
ومطلوبها ، ماذا هو ؟ وأنسى نجاهه ؟ وهل قد خلّصني لنا في الامر ، وتركنا  
نخبط في الظلام لنضع أيدينا على ما نشاء ، فنقرر أنه مقصود الفطرة ؟ أم  
نحن لا ندرك هذا المقصود إلا بالتأمل في نوااميسها ؟ ولعل أكثر الناس  
يقولون بالأولى ، فيطلقون على كل ما تهوى أنفسهم حكم مقصود الفطرة ،  
بدون أن ينظروا في نوااميسها . ولكنه إذا خرج باحث يلتمس وجه الحقيقة  
فإنه لا يخطو في سبيله خطوات ، حتى يُخَيَّل إليه أن الفطرة نفسها تدله  
وتُشير له إلى غايتها ومقصودها .

فما هو بديهي معلوم أن مقصود الفطرة الرئيسي من خلق الانسان  
أزواجاً كجميع الانواع الحيوانية ، ومن وضعها الجاذبية الجنسية فيها ،  
هو بقاء النوع . ولكن الفطرة لا تطالب الانسان بهذا وحده ، بل هي  
تطلب منه وراء ذلك أموراً ، نستطيع بقليل من التأمل أن نعرف ما هي  
تلك المطالب ، ومن أي نوع هي ؟

إن أول ما يلتفت إليه بهذا الصدد، هو كون الطفل الانساني يختلف عن أولاد سائر الحيوان ، من حيث اقتضاؤه وقتاً أكثر وعنايةً أبلغ وعملاً أتعب ، لأجل رعايته وتربيته . وإن نحن فرضناه وجوداً حيوانياً محضاً ، فلنا نجد حتى في هذه الصورة المفروضة أنه يستغرق أعواماً متعدّدة قبل أن يستطيع القيام بقضاء حوائجه الحيوانية ، كالتماس قوته والمدافعة عن نفسه ، ويكون الضعف والمعجز في السنتين أو السنوات الثلاث الأولى من عمره بحيث لا يمكنه حتى أن يحيا ويعيش بدون عناية مطردة من أمه .

ولكن الظاهر أن الانسان، مهما كان ممعناً في توحّشه ، ليس بالحيوان حسب ، بل لابدّ لحياته من مدنيّة من أبنية درجة كانت . وهذه المدنية تُضيف إلى واجبه الفطري من تربية الاولاد ، واجبين آخرين : أولهما أن يستخدم لتربية ولده كل ما يتيسّر له من وسائل التمدن . والثاني أن يريّه تربيةً تؤهله لتدبير شؤون التمدن في المحيط المدني الذي وُلد فيه ، ولأن يقوم مقام العاملين السابقين فيه .

ثم إنه كلما كان التمدن أعلى درجةً وأزهى رقيّاً ، كان هذان الواجبان أثقل عبئاً وأفدح خطباً ، فبجانب تكثر الوسائل اللازمة لتربية الاولاد على مضيّ الايام . وبجانب آخر لا يكتفي التمدن بطلب العاملين ذوي الثقافة العالية لقيامه وبقائه ، بل هو يقتضي لأجل نموه وارتقائه أن يكون كل جيل لاحقاً أعلى رتبةً وأكثر أداةً من الجيل السابق ،

وبعبارة أخرى يطلب من كل مربٍّ أن يربِّي ولده تربيةً أحسن من تربيته وينشئه على مستوى أعلى من مستواه . وناهيك بهذا الايثار العظيم الذي يستنزل المرء حتى عن عاطفة حبه لذاته ! .

هذه هي مطالب الفطرة الانسانية . وأول من توجه اليه هذه المطالب هي المرأة . وذلك أن الرجل قد يكون منه أن يتصل بالمرأة ساعة من الزمن ، ثم يعتمد عنها وعن تبعه ذلك الاتصال . ولكن المرأة لا تستطيع أن تُفقد من نتيجة اتصالها بذلك الرجل عدةً من السنين ، بل مدة العمر غالباً . فإنها إن حملت ، لا تفارقها نتيجة ذاك الاتصال بحال من الاحوال مدة خمس سنوات على الأقل . ثم إن أرادت المرأة أن تقوم بجميع مقتضيات التمدن ، فمعناه أن تظل المسكينة التي ذاقَتْ عُسَيْلَةَ الرجل ساعةً من الزمان ، مثقلاً كاهلها بتبعات الفعل مدة خمسة عشر عاماً علاوةً ، فتتساءل النفس في هذا المقام : كيف يكون لأحد الفريقين أن يستعد لقبول تبعه الفعل الذي قد اشترك فيه جميعاً . وأنتى للمرأة أن ترضى النهوض بهذا الامر الفادح مالم تتخلص من خشية الغدر من قبل شريكها في ذاك الفعل ، وما لم تطمئن نفساً من جهة تربية أولادها ، ثم مالم تُعفَ عن العمل لكسب حوائج حياتها إلى حدٍّ كبير . فالحمل لامرأةٍ لاقيَم لها من الرجال خطب جَلَلٍ ونكبة عظيمة ، بل هو آفة الآفات من الطبيعي أن تبغى نفسها التخلص منها . وأنتى يكون لها عمر الله أن ترحب بها وتهش اليها ؟ ! .

لذلك إن وجب بقاء النوع وقيام التمدن فواجب لامحالة على الرجل الذي يُلْقِح امرأةً من النساء، أن يُشاركها أيضاً في القيام بتبعات الامر. ولكن ما السبيل لاقناعه بقبول هذه الشراكة وهو قد فُطِر على الاثرة وحب مصلحة الذات. أما الواجب الطبيعي من ابقاء النوع، فقد فرغ من نصيب عمله منه ساعةَ أَلْقِح المرأة. فيلزم الحملُ بعد ذلك المرأة وحدها، ولا يكون له شأن مع الرجل. ثم إن الرجل لا تدفعه النزعة الجنسية أيضاً إلى أن يعاشر تلك المرأة نفسها. فإنه إن شاء هجرها إلى الثانية، وهجر الثانية إلى الثالثة، ومضى هكذا ينثر بذره هنا وهناك. فلو ترك الأمر إلى رضاء، فلا مُسَوغ لأن يرضى القيام بهذا العبء بطيبة نفسه. فإذا عساه - ياترى - يحمله على أن يُنفق ثمرات جهوده على هذه المرأة والولد؟ ولماذا يُقيم على حبّ هذه الحبلى البطينة، ولا يفارقها إلى عادةِ خُمُصانة؟ ولماذا يُربي مضغة لحم نكد على نفقته؟ ولماذا يحرم نفسه النومة الهادئة بصياح الخبيث وصراخه؟ ويترك هذا الشيطان الصغير يحبو في بيته ويمبث بكل ما تقع عليه يده، فيُسبب له الخسائر، ثم يثّ في أطرافه القدر ولا ينجح فيه نهىً أو زجر؟!

إن الفطرة نفسها قد عالجت هذه المسألة إلى حدٍّ ما، فخلقت في المرأة ميزةَ الجمال والصباحة، وصفة الإمتاع والتسلية، وملكة الايثار والتضحية في سبيل الحبّ، لكي تنصرف هذه الاسلحة على الفردية الأنانية في الرجل وتوصي فؤاده وتملك عليه لُبّه. وقد جعلت في الولد أيضاً قوة عجيبة للتسخير، لكي يسي أبويه في حبه على رغم حماقاته المسخطة، الموجبة

للخسائر . ولكن ليست هذه كلها من الامور التي تكفي وحدها في أن تدفع قوتها الانسان إلى احتمال الخسارة والاذى والتضحية عمراً من السنين ، لاجل القيام بواجباته الخلقية الفطرية التمدنية . فإن الانسان لاشك يلزمه أيضاً عدوه الازليّ ، الشيطان ، الذي لا يزال يتحين الفرصة كل حين ليمدّل به عن جادة الفطرة ، والذي لا تزال جمعة كيده مملوءة بفنون من الأدلة والتسويات لاستغواء بني آدم من كل جيل ، وفي كل زمان .

إنه من معجزات الدين حقا أنه يحض الانسان - بصنفيه - على التضحية والبذل لاجل مصالح النوع والتمدن ويحوّل هذا الحيوان الاناني إلى إنسان ، ثم يحفّزه على الايثار . وان الانبياء والمرسلون هم الذين فهموا مقاصد الفطرة فهماصائباً ، فقرروا الصورة الصحيحة للتعلى الجنسي بين الرجل والمرأة ولتعاونهما في شؤون التمدن ، وهي النكاح . وهم الذين جرّت على أيديهم سنّة النكاح في كل أمة ، وفي كل ربح من ربوع الارض . وما هو إلا بفضل المبادئ الخلقية التي نشرها أولئك الرسل ان تمكن الانسان من الاستعداد الروحي الذي يقويه على احتمال متاعب هذه الحياة وخسائرها . والا فمن ذا تزونه احق بأن يكون عدواً للطفل من والديه ؟ وعلى قواعد الاجتماع التي وضعوها تأسس النظام العائلي الذي يرغم سلطانه القويّ الفتيّة والفتيات على التزام هذه الرابطة القائمة على المسؤولية وهذا الاشتراك العملي في شؤون الحياة . والا فإن مطالب شبابهم البهيمية تكون بالغة من الشدة ان لا يكاد يمنهم الشهور

بالتبعة الخلقية وحده - بغير التأديب الخارجي - من الانطلاق مع شهواتهم بدون قيد . ان غريزة الشهوات في نفسها حرب على الجماعة (Anti Social) وهي نزاعة إلى الاثرة والفردية والفوضى ، وليس لها ثبات أو قرار ، ولا فيها شعور بالمسئولية وهي لا تحرك المرء إلا للتمتع باللذة العارضة ، وليس من اليسير الهيمن تسخير هذا الغفريت لخدمة مصالح الحياة الاجتماعية . هذه الحياة التي تتطلب الصبر والثبات والجهد والبذل والشعور بالمسئولية والكدح المستمر . فليس غير قانون النكاح وغير نظام الاسرة بئذ هذا الغفريت ولينتزع منه مصادر الخبث والفوضى والانتشار ، ويجعله أداة تعاون الرجل والمرأة واشتراكها العملي الدائم الذي لابد منه لتعمير الحياة الاجتماعية . فإن يعتمد هذا القانون، وهذا النظام العائلي ، تتلاشى حياة الإنسان المدنية ويصبح الاناسي يعيشون عيشة الانعام ، حتى يمحي نوعهم من صفحة هذا الوجود .

فالطريق الذي تريد الفطرة نفسها أن يفتح لقاء مطالب الانسان الفطرية ، بعد منع الميلان الجنسي فيه من الفوضى والانحراف ، ما هو إلا أن يكون بين الرجل والمرأة اتصال أبدي بصورة النكاح ، ويكون هذا الاتصال بينها أساساً للنظام العائلي . وهذا النظام العائلي هو الذي يهيئ للتمدن كل ما يحتاج إليه من الآلات المستيرة لنظامه الواسع . فما يبلغ الفتية والفتيات في الوسط العائلي سن البلوغ حتى يهتم رؤساء الاسرة بأن يلتمسوا لهم أزواجا يوافقونهم أكثر حتى ينتجوا بتواصلهم نسلا أعلى وأجود . ثم متى أنسلوا نسلا يجتهد كل عضو من اعضاء هذا النظام العائلي

برغبة قلبية صادقة أن يربيّه أحسن التربية فيجد الطفل في محيط العائلة ، منذ يفتح عينيه في هذه الدنيا ، بيئة من الحنوّ والعطف والرعاية والتمهّد والتربية ، تكون لنموه ونشأته كالماء الفُرات لبارض النبات. والحق أن محيط العائلة هو الذي يمكن أن يجد فيه الطفل نقوساً تحبه وتعطف عليه بل من يودّون من صميم قلوبهم أن يبلغ الطفل في حياته مكانة اجتماعية أعلى من التي ولد عليها وانها الابوان اللذان يحبّان ان يجدا الاولاد في حال احسن من حالهما وعلى مكانة أرقى من مكاتهما ، فيجتهدان من انفسهما - بدون شعور أو ارادة - ان يجعلا الجيل اللاحق أحسن من السابق ، ويمهدان بذلك سبيل الارتقاء الانساني. وهذا الجهد والسعي منها لا تشوبه شائبة من الاثرة . فإنها لا يريدان شيئاً لانفسهما وإنما يريدان فلاح ولدهما ويعتبران نشأته انساناً ناجحاً جيد التربية جزاء وافيّاً لمساعدتهما وجهودهما. وأنسى يمكنك أن تجد في غير النظام العائلي أمثال هؤلاء العاملين المخلصين (Labourers) والخدامين الاوفياء (Workers) الذين لا يكفهم أن يملأوا لمصلحة النوع الانساني بدون أجر ، بل يبذلون لهذه الخدمة كل ما يملكون من الوقت والراحة والقوة والكفاءة وذات اليد . ويضحون بأنفس ما يملكون في سبيل الامر الذي لا تقال ثمراته إيام ، بل ينتفع بها غيرهم ، ويكتفون من الجزاء لجهوداتهم بأنهم قد هيّؤوا لغيرهم عاملين وخدامين من النمط الحسن : أفتجد نظاماً أظهر وأرقى في الانسانية من هذا النظام العائلي .

هذا ويحتاج النوع الانساني لبقائه ، والتمدن الانساني لاطرادہ وارترقائه كل سنة إلى ملايين من الازواج يتقدمون للقيام بهذه الخدمة وتبعاتها راضين مختارين . فيتعاقدون بينهم النكاح ويؤسسون الزيد من الاسر . وهذا المعمل التمدني العظيم الذي هو جارٍ امامك في هذه الدنيا ما كان ليجري ويرتقي ما لم يظل أمثال أولئك العاملين المتطوعين يتقدمون دائماً لهذه الخدمة ، ويميثون الايدي العاملة لهذا المعمل . وإن انقطعت سلسلة هذا التطوع ، وغدا العاملون السابقون ينتحون عن العمل بفعل الاسباب الطبيعية ، فلا جرم ان ينقص عدد العمال مع الايام . وبأني على الوجود حين من الدهر تعود قيثارته بلا أوتارٍ تنغم . فشكل من يعمل لتسيير هذا المعمل التمدني، فليس واجبه أن يسيره في حياته هو وكفى، بل يجب عليه كذلك ان يعنى بإعداد امثاله من العاملين الذين يقومون بمقامه من بعده .

وإن أنت تدبرت الأمر من هذه الوجهة ، وجدت أن أمر النكاح لا ينحصر في أنه الصورة الشرعية الوحيدة لارواء الغليل الجنسي ، بل هو في الواقع فريضة جماعية ، وحق فطري للجماعة على الفرد وما كان الفرد ليحمل اليه الفصل في أن يعقد عقدة النكاح اولا يعقد، وإن الذين بأبون عقد النكاح بدون عذر معقول هم في الحقيقة حميلة على المجتمع، طفيليون (Parasites) بل هم غدره منلصصون . ذلك انه مامن نفس انساني ولد على هذه الارض إلا وقد استفاد ، من لدن بدء حياته إلى سن شبابه ، من الثروة المريضة الواسعة التي هيأتها له الأجيال السالفة ، ماشاء الله ان



يستفيد ، ولم يتمكن من بقاءه ونموه ونشأته في الصفات الانسانية إلا بفضل النظم والمؤسسات التي اقاموها . فبقي في اثناء هذا كله يأخذ ويستمد ولا يُعطي ولا يُمدّ وأنفقت الجماعة قوتها وثروتها لتكميل قواه الناقصة رجاء أن يكافئها يوم يقدر على المكافأة . فهو الآن ، وقد اشتد مساعده ، إن كان يطلب لنفسه الحرية الذاتية والاستقلال ، ويقول : اني لست 'فاعلا شيئاً الا أن أقضي شهواتي فحسب' ، ولن أقوم بما يتبع هذه الشهوات من التبعات والواجبات ، فإنه لاشك غادر بالجماعة خداع لها ، وكل لحظة من لحظات حياته بين الجماعة ظم وعدوان . ولو أن للجماعة حظاً من الشعور لحكمت عليه حكم السرقة واللصوص وأهل الغش والتزوير بدل ان تكرمه وتدعوه سيداً او آنسة أو أستاذاً محترماً . اننا لاشك قد قوارثنا كل الثروة والذخيرة التي قد تركتها الاجيال السالفة - اردنا ذلك أم لم نرده - فكيف يجوز لنا الآن أن تكون لنا الحرية كل الحرية في امر القانون القطري الذي قد وافانا هذا الميراث بموجبه فنكون مختارين في أن نحقق مقصود ذلك القانون ، أو لا نحقق ، وأن نعدّ الجيل الذي يرث هذه الثروة والذخيرة التي خلفها النوع الانساني أو لا نعدّ ، وأن نربي نفوساً آخرين - كما ربّينا نحن - لتعهد تلك الثروة والقيام عليها أو لا نفعل !

### ٣

#### سر باب الاباحية الجنسية

وبجانب النكاح وتشكيل العائلة ، يجب أيضاً ان يُسد باب قضاء

للشهوة الجنسية خارج حصن النكاح سداً محكماً، لأنه لا يمكن أن يتحقق بدونه مقصد الفطرة الذي تستلزم لأجله النكاح وتشكيل العائلة .

وأكثر الناس في هذه الجاهلية الجديدة أيضاً ، كأهل الجاهلية القديمة ، يمدّون الزنى فعلاً طبيعياً ، ويعتبرون النكاح من مخترعات الثمّدن أو من حشوه وزوائده . فمن رأيهم أن الفطرة كما خلقت كدّ نجمة لكل كبش ، وكل كلبة لكل كلب ، كذلك قد خلقت كل امرأة لكل رجل في هذا العالم . وما الطريق الفطري إلا أن يقع الاتصال الجنسي بين كل فردين من الجنسين ، كلما اشتباه وتمكنا منه وتراضيا عليه ، شأن اثنين من الحيوان . ولكن الحقيقة أنهم يخطئون خطأ بيّناً في التعبير عن الفطرة الانسانية . وذلك أنهم قد زعموا الانسان حيواناً محضاً . فكلموا ذكروا الفطرة والطبع أرادوا بها فطرته الحيوانية لا فطرته الانسانية . والعلاقة الجنسية المطلقة التي يعبرون عنها بالفعل الطبيعي لاشك أنها طبيعية بالنسبة للحيوان ، ولكنها ليست من الفطرة في شيء الانسان . إنها لا تخالف فطرته الانسانية وحدها ، بل تخالف ، من حيث نتائجها ، فطرته الحيوانية أيضاً وذلك أن الانسانية والحيوانية ليستا شيئين متباينين في الانسان بل هما يمتزجان في وجود واحد ، ويؤلفان بزمجها فيه شخصية واحدة ، وترتبط مقتضياتها في تلك الشخصية بعضها ببعض ارتباطاً يجعل الأعراض عن مقصد إحداها إخلالاً بمقصد الأخرى بالتبع .

ويرى المرء الزنى في ظاهره أمره يقضي حاجة الفطرة الحيوانية على

الاقبل ، لان غاية التناسل وبقاء النوع بتحقيق بمجرد الوظيفة الجنسية سواء أحصلت داخل حظيرة النكاح أو خارجها ولكنك إن ترجع البصر إلى ما ذكرناه آنفاً ، يتبين لك أن هذه الفعلة ضررها بمقتضى الفطرة الحيوانية في المرء كضررها بمقتضى الفطرة الانسانية فيه . ذلك بأن فطرته الانسانية تقتضي أن يكون لعلاقته الجنسية ثبات ودوام ، حتى يشترك الأبوان في تربية الطفل ، ويقوم لوالد بكفالة الولد وأمه ، مدّة من الزمان . ولكن المرء إن لم يكن على ثقة من كون الولد من صلبه هو لم يرض أبداً أن يتكلف في تربيته الجهد والايثار ولا رضي للولد أن يرث تركته . وكذلك إن المرأة إن لم تكن على يقين من أن الرجل الذي يلقحها ، مستعدّ لكفالتها وكفالة ولدها ، لم ترض أبداً أن تعاني متاعب الحمل . ثم إن لم يتعاون الأبوان على تنشئة الولد ، لم يمكنه أن يبلغ في تعليمه وتربيته ومكانته الخلقية والعقلية والاقتصادية مبلغاً يجعله عاملاً مفيداً للتمدن الإنساني . كل هذه مقتضيات الفطرة الانسانية في ابن آدم . فإذا أهملها الرجل والمرأة وجاءا يتعلقان بعلاقة جنسية عارضة ، كأنواع الحيوان فإنهما لا ريب يهملان مقتضى الفطرة الحيوانية أيضاً - وهو التوليد والتناسل . لأنها حين يتصلان لا يقصدان - وما كانا ليقصدا - التوليد والتناسل ، بل تكون غايتها من العلاقة الجنسية إذ ذاك مجرد التلذذ والتمتع وإرواء غليل الشهوات ، مما هو مخالف لمقصود الفطرة أصلاً .

ويستضعف أصحاب الجاهلية الجديدة أنفسهم هذه الناحية من العلاقة الجنسية المطلقة ، فترام يضيفون إلى حججهم لتبريرها حجة أخرى بقولهم : لو

أن اثنين من أفراد الجماعة يقضيان بعض ساعاتهما في المتعة والسلوة ، فأَيَّ خير في ذلك على المجتمع حتى يتدخل فيما بينها ! إن المجتمع لا ريب يجوز له التدخل في أمرهما إن كان فيه إكراه من جانب الآخر ، أو قصد أحدهما فيه إلى الخديعة ، أو سبب قضية تمس مصلحة الجماعة . ولكنه إن لم يكن هناك شيء من ذلك ، وانحصر الأمر بين شخصين في تمتع أحدهما بالآخر ، فأَيَّ مبرر للمجتمع حتى يحول بينها ؟ وإن جاز التدخل في مثل هذه الشؤون الذاتية للناس ، فما الذي يبقى إذاً من معاني الحرية الشخصية .

هذا التصوُّر للحرية الشخصية من جهالات القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، التي ينقشع ظلامها مع أول إشعاع من نور العلم والتحقيق . فبقليل من التأمل والتفكير قد يفهم المرء أن الحرية التي يطلبونها الأفراد ، لا مساغ لها في الحياة الجماعية . ومن شاء ذلك النوع من الحرية ، فليقصد الغابات ورؤوس الجبال وليعيش هناك عيش أوابد الحيوان . فإن الاجتماع الانساني عبارة عن نسيج من العلاقات والروابط ، قد اشتبكت فيه حياة كل فرد واحد بأفراد آخرين لا يُحصون ، فتأثر بهم وتؤثر فيهم . ومع مثل هذه الصلات الشائكة بين مختلف الأفراد ، لا يمكن أن يُعد أي فعل من أفعال الانسان فعلاً شخصياً وفردياً محضاً ولا يكاد يتصور عمل شخصي لا تمود آثاره في جملتها إلى الجماعة ، بل ليس من خاطر يخطر ببالنا - دع عنك أفعال الاعضاء والجوارح - إلا يؤثر في أنفسنا ، وينعكس منها إلى غيرنا فيؤثر فيهم . وكذلك ليست حركة من حركات اجسامنا وقلوبنا إلا وتنتقل منها نتائجها ، وتمتد إلى حيث لا يبلغ علمنا . وإذا كان الامر

كذلك ، فكيف يجوز القول بأن استعمال أحد من الافراد قوته لا يؤثر إلا في نفسه ، ولا يتعلق في شيء بغيره ، ولذلك ينبغي أن يكون حرّاً في أمره . وإن كان أحد لا يؤذن له في أن يأخذ بيده عصاه ويمشي في السوق يديرها كيف يشاء ، أو يحرك قدميه ويلج على الناس المنازل والبيوت على هواه ، ويسوق سيارته في الزحام بغير حيلة أو حذر ، أو يجمع في بيته كل ماشاء من وسخ أو قذرٍ نقول إن كانت هذه وأمثالها من تصرفات المرء الشخصية مما يجب أن يُقيد بالصوابط الاجتماعية ، فما بال قوته الجنسية وحدها أن تشرف بالاطلاق من كل قيد أو ضابط اجتماعي ، فيباح للرجل أن يستعملها كيف يُريد .

أما القول بأن اللذة التي يتمتع بها الرجل والمرأة في مكان متوارٍ عن الانظار ، لا يكون لها من تأثير في الحياة الاجتماعية ، فمن جهل الاحداث الاغرار . الحق أن أثرها لا ينحصر في المجتمع الذي ينتميان اليه فحسب ، بل يجاوزه إلى الانسانية جمعاء ، ولا تقتصر آثارها السيئة على الجيل الحاضر وحده ، بل تتعداه إلى الاجيال القادمة . فإن الرابطة الاجتماعية والمرانية التي قد ارتبطت فيها الانسانية برمتها ، لا يشذ عنها أي فرد من الافراد ، وفي أي حالٍ كان ، وفي أي خدرٍ احتجب . إنه يكون مرتبطاً بحياة الجماعة وهو من وراء الجُدُر ودخل الابواب المغلقة ، كما يكون مرتبطاً في زحمة السوق وفي حفل المَجْمُوع . إنه وقت ما يكون مشغولاً في خلوته بتضييع قوة توليده في لذةٍ عارضة عقيم ، يكون في الحق عاملاً لاشاعة الفوضى في الحياة الاجتماعية ولتضييع حق النوع

الانساني وإراث الجماعة مالا يحصى من المضار المادية والتمدنية . وإنه  
لأثرته وأثابته هذه يفت في ساعد جميع النظم والمؤسسات التي قد انتفع  
بها من حيث هو فرد من أفراد الجماعة ، ولكن أبى أن يقوم بنصيبه من  
العمل لقيامها وبقائها . إن الجماعة قد أقامت جميع المؤسسات من البلدية  
إلى الدولة ومن المدرسة إلى الجندية ، ومن المصانع إلى مجالس التحقيق  
العلمي ، معتمدة على أن كل من يتمتع بها من أفرادها سيؤدي نصيبه  
المفروض في إحكامها وترقيتها . ولكنه لما جاء هذا الخائن الفذار يستعمل  
قوته الجنسية بحيث لم يقصد بها القيام بواجبات التوليد والتناسل وتربية  
الاولاد ، فكأنه قطع - على حد ما نواه - دابر ذلك النظام بضربة واحدة  
وفسخ ذلك المقد الاجتماعي الذي كان مشتركاً فيه باعتبار إنسانيته عينا ،  
وحاول بذلك أن يلقى عيأه على غيره بدل أن ينهض به بنفسه . فلم يكن  
إذاً من كرام الناس ، بل هو خائن متلصص نهاب ، والتساح في أمره  
ظلم الانسانية جماء .

إن مكانة الفرد في المجتمع ، إن فهمت حقيقتها حق الفهم ، لم تشك  
في أن كل قوة من القوى ، أودعتها أجسامنا ونفوسنا ، ليست لانفسنا  
وحدنا ، بل هي وديعة الانسانية جماء عندنا . ونحن مسئولون في هذه  
بين يديها . فنحن حين نهلك نفوسنا أو نضيع قوة من قواها ، أو نضر  
بأنفسنا من سيئات أعمالنا ، لا يكون فلتنا هذا فعل من أضع أمراً كان  
علكه ، أو أضر بشيء كان له النصر فيه ، بل يكون ذلك منا بمثابة  
خيانة في ما ائتمنا عليه للعالم الانساني أجمع ، وإضرار بالنوع الانساني

برمته. وذلك أن وجودنا في هذا العالم يشهد نفسه بأن غيرنا تحملوا أعباء التبعات والمشاقّ، فأخرجونا من ظلمات العدم إلى نور الوجود. ثم جاء نظام الدولة يرعانا ويصون نفوسنا من التلف، وبقيت أقسام حكومتنا الصحية تعمل لحفظ حياتنا وصحة أبداننا. ثم توفرت آلات مؤلفة من النفوس على تهيئة حاجتنا ولوازم حياتنا، وتعاملت جميع المؤسسات الاجتماعية لتنتشي قواها وتربّي ملكاتنا، حتى جعلتنا على ما نحن عليه الآن. أفمن جزاء الحسنة بالحسنة أو من العدل والنصفة أن نمود فنضيق تلك القوي التي قام غيرنا بكل هذه الخدمة لاجل ايجادها وإبقائها وتنشئتها وإغاثها، أو نجعلها مضرةً بالإنسانية بدل أن نجعلها نافعةً لها؟ لاجل هذا قد حرّم الانتحار. ولهذا السبب قال أعظم الحكماء: إن ناكح اليد ملمون. ولهذا قرّرت سواة قوم لوط من أعظم الجرائم. ثم لهذه العلة لا يُعتبر الزنى أيضاً متعة ومسلّة فردية، بل يمدّ ظملاً للجماعة الإنسانية كلها. وهيتا بنا الآن نتأمل: كم من مظلمة اجتماعية تمتّ إلى الزنا برحمٍ ماسّة؟

١ - إن أول ما يجنيه الزاني من عمله هذا هو أنه يُعرض نفسه لخطر الإصابة بالأمراض السرية القاتلة. وبذلك لا ينقص مما في قواه من المنفعة العامة فحسب، بل يجرّ على الجماعة والنسل أيضاً ضرراً بالغاً. وإن مرض السيلان الذي هو أول ما يُبتلى به الفاجر، يقول فيه الأطباء: إن هذه القرحة في الإحليل قلّها تندمل، ولا يخلص من أذاها الإنسان إلا في النادر. ومن قول طبيب نطاسي: «من أصيب بالسيلان مرةً أصيب به للأبد». وهذه الماهة كثير ما تنف الكبد والمثانة والخصيتين وغيرها

من الاعضاء ، وتسبب وجع المفاصل وأمراضاً أخرى ، كما أنها قد تُسبب العُقم الأبدي . ثم إنها من الامراض السارية من نفس إلى آخر . وأما مرض الزهري فَمَنْ منا لا يعلم أنه يسمم نظام الجسد كله ، ولا يبقى من قمة الرأس إلى أخمص القدم عضون من أعضاء الجسد ، غير متأثر بسمومه وأذاه . وهذا المرض لا يُبِيد قُوَى المريض وحده ، بل يتعداه إلى من لا يَحْصَى من النفوس الأخرى بطرق شتى . ثم ينتقل من المريض إلى أولاده وأولاد أولاده ، فيعانون أذاه بلا ذنب يَجْتَنُونَ . والأولاد الصمّ البكم العممي المجانين ، هم من أهون ثمرات ساعات اللذة القلائل تلك التي عذّها الاب الظالم أعزّ مافي حياته .

٢ - وإذا لم يكن حتماً ابتلاء كل زانٍ بالامراض السريّة ، فمن اللازم المحتوم ابتلاؤه بالسفاسف الخلقية التي تعلّقت بهذا الاثم بالضرورة فالوقاحة والخديعة والكذب والدغل والاثرة والخضوع للشهوات وجروح النفس وتشرّد الفكر وذو اقية الطبع وتطلعه إلى كل جديد ، والغدر وقلة الوفاء كل أولئك من آثار الزنا التي تترتب على أخلاق الزاني نفسه ومما لا شك فيه أن من يجمع في نفسه هذه الخصال ، لا تنحصر آثار سفاسفه الخلقية في الشؤون الجنسية فحسب ، بل هو يُتَحَف الجماعة بهذه الخصال لا غير في كل شعبة من شعب الحياة . وإن كانت هذه الخصال قد ربّت ونمت في كثرةٍ كاثرةٍ من أفراد الجماعة ، فلا جرم أن يفسد بها كل من الآداب والعلوم والفنون والملاهي والالعب والصناعات والمهن



والاجتماع والاقتصاد ، والسياسة والقضاء ، والخدمة العسكرية وتدير الدولة . ومن اللازم في النظام الديمقراطي خصوصاً ، أن يكون لكل صفة من صفات الافراد أثر بادي في حياة الامة كلها . فإذا كانت أمة من الامم لا يتّصف أفرادها بثبات في الطبع ، وكانت أكثر أجزاء تركيبها متجردة من خلال الوفاء والايتار وضبط الشهوات ، فأنسى يكون في سياستها قرار أو ثبات ؟!

٣ - وما تستلزمه إباحة الزنى أن تجري في المجتمع حرفة البغاء . وذلك أن من يقول بأن لرجل شاب حقاً في أن يمتّع نفسه بلذات الشباب فكأنه يقول مع ذلك بأن تكون في المجتمع لهذا الغرض طبقة من الاناث تكون في أسفل الدّلّ والمهانة بكل اعتبار . ولكن من أين تأتي أوامئك النساء ؟ أفلا يخرجن من هذا المجتمع الذي يعيش فيه ؟ أو لا يكنّ من بناته هو وأخواته ؟ بلى ، لابد أن تنفر من أوامئك النساء اللاتي تجدر كل واحدة منهن بأن تكون ربّة بيت ومؤسّسة عائلة ومربيّة اولادٍ ، طائفة إلى حي البغايا ، ليكنّ كمراحيض البلدية موضع قضاء الوطر لكل خليع داعرٍ وبتجرّدٍ من جميع الخصائص النسوية الشريفة ، ويتدرّبن على التكبسب بالفتج والدلال ، ويسفلن إلى أن يبعن محبّتهن وقلوبهن وأجسامهن ، ومحاسنهن ومفاتنهن ، لكل زائرٍ جديد في كل ساعة ، ويقيّن مدّة أعمارهن أداة لقضاء شهوات غيرهن ، بدل أن يقنن بخدمة نافعة مثمرة للمجتمع .

٤ - وإباحة الزنى لاجرم تضرُّ بضابط النكاح التمدني ، بل يؤول بها الامر إلى أن يزول النكاحُ ويبقى الزنى وحده . وذلك أنه يعود الميَّالون إلى الزنى - رجالاً ونساءً - قلباً يصلحون لأن يحيا حياة زوجية صالحة . لأن هذا السلوك العملي الفاسد يبعث في نفوسهم من سوء الدخلة وفجور النظر وذواقية الطبع وتشرُّد الفكر ، ويربِّي فيهم من تلون المواطف وعدم ضبط الشهوات ، ما هو أفتك من السم لتلك الصفات التي هي ضرورية للعلاقة الزوجية الصحيحة بين الرجل والمرأة . فهو لا إن ارتباطوا برابطة الزواج ، فلن تتحقق بين الزوجين منهم تلك الصلة من حسن المعاملة والمحبة والوفاء والثقة والاعتماد ، والمواءمة والانسجام ، التي تُنتج سلاً جيداً وتُنشئ بيتاً مأموراً بالراحة والسعادة . ثم إن البيئة التي يكون فيها الزنى هيئاً ميسوراً ، لا يمكن أن تدوم فيها طريقة النكاح المحيية للتمدن ، إذ ما بال الذين تيسر لهم فرص قضاء الشهوات النفسية بدون أن يلزموا أنفسهم بتبعات ، يتحملون أعباء التبعات والواجبات بعزمهم عقدة النكاح .

٥ - وإباحة الزنى وترويجه لا يقطع دابرَ التمدن والعمران فحسب بل يستأصل النسل الانساني أيضاً ، فانه كما سبق أن أثبتناه ، لا يقصد أحد من الاثنين - الرجل والمرأة - بعلاقتهم الجنسية المطلقة أن يقوم بخدمة التماسل وبقاء النوع .

٦ - ثم إن الزنى إن حصل منه للنوع الانساني والمجتمع أولاد ، فكلهم أولاد النغول . وليس من الصحيح ما يظنه بعض السفهاء من أن

مراعاة الحلة والحرمة في الانساب إنما تصدر عن مجرد العاطفة . بل الحق ان توليد ولدٍ عن زنيةٍ عدوان عظيم على الولد نفسه وعلى التمدن الإنساني بأسره من وجوه عدة . أولها ، أنه ينعقد حمل هذا الولد في رَحِمِ أمه ساعة يكون أبواه كلاهما تحت غلبة العواطف البهيمية الخالصة وإث العواطف الانسانية الطاهرة التي تغمر الزوجين المتناكحين وقت اتصالهما الجنسي ، لا يمكن أن تخالط أبداً هذين الفاجرين المتسافحين ، لأنهما لا يصل أحدهما بالآخر إلا هيجان البهيمية المحضة في نفوسهما ، وتكون جميع الخصال الانسانية معطلة فيها وقتئذٍ . ومن هذا لا يرث ولدُ الزنية عن أبيه إلا خصائص الطبع البهيمي . ثم إن الولد الذي لا يأتي أبوه كشيء مطلوب محبوب ، بل ينزل بينها زول النكبة المفاجئة ، والذي يفقد في أغلب الأحوال عطف الأبوة ووسائلها ، ولا تتيسر له إلتربية الأم الناقصة التي لا تكملها تربية الاب ، وهذه التربية أيضاً ربما يخالطها الضجر والإعراض ؛ والذي لا يتمتع برعاية الاجداد والجدات والأخوال والاعمام ومن يلهم من ذوي القربى ، لا جرم أن ينشأ إنساناً ناقصاً غير تامّ الانسانية ، فلا تتكون له سيرة صحيحة ، ولا تتجلى فيه كفاءات موهوبة ، ولا تتوفر له وسائل التقدم والاجادة العملية ، فيكون في حد ذاته ناقصاً الانسانية ، عادم الوسيلة . فاقصد الحامي والنصير ، مظلوماً مدحوراً ؛ ويكون للتمدن نكداً عقيماً ، لا ينفعه النفع الذي كان ينفعه إيتاءه لو ولد حلالاً .

ومن رأي 'حماء الإباحية في قضاء الشهوات أنه يجب أن يكون هناك نظام قومي لتنشئة الاولاد وتعليمهم ، فيولد لهم الآباء والامهات بالملاقات الجنسية المطلقة فيما بينهم ، ويكون للنظام القومي أن يرثيهم ويؤهلهم لخدمة التمدن . وغرضهم من هذا الاقتراح توفير حرية النساء والرجال وفرديتهم ، وتحقيق مقاصد التناسل وتربية الاولاد بدون تقييد شهواتهم النفسية بقيود الزواج . ولكن العجب أن الذين يحرسون هذا الحرص على فردية الجيل الحاضر ، هم يقترحون للجيل اللاحق نظاماً للتعليم القومي أو التربية الرسمية ، لا مجال فيه لنشأة الفردية وارتقاء الشخصية . فهذا النظام الذي سيدنشأ فيه ألوف مؤلفة من الأطفال على غرار واحد وطريقة واحدة ، لا يمكن أن تبرز فيه شخصيتهم الفردية ، بل هو أحري بأن يحدث فيهم أكثر ما يكون من المشابهة والسوية المتصنعة . فيخرج الاولاد من هذا المركز التربوي متماثلين كالسبائك الحديدية تخرج من مصنع . فتأمل مبلغ تصور هؤلاء السفهاء بشأن الانسان من الدناءة والاسفاف . إنهم يريدون أن يخرجوا الاجيال الانسانية القادمة كتخريج أحذية ( باتا ) ، ولا يعلمون أن إعداد شخصية الطفل من أطف الفنون وأدقها ، ولا يمكن أن يعالج إلا في مجال عملي صغير يكون فيه كل وسام منصرفاً بعنايته إلى صورة واحدة . وأما المعمل الذي يصور فيه العمال الأجراء ملايين من الصور المتشابهة المتماثلة ، فلا شك أن يضيع فيه هذا الفن ، بدل أن يرتقي ويتحسن .

ثم إن هذا النظام الاجتماعي للتربية والتعليم ، لا بد أن يحتاج إلى عاملين أكفاء يقومون عن المجتمع بخدمة التربية والتنشئة الأولاد . وظاهر أيضاً أنه لا يصلح لهذه الخدمة من العاملين إلا الذين يتصفون هم أنفسهم بضبط العواطف والاهواء والوقوف عند حدود الأخلاق . وإن لم يكونوا كذلك ، لم يستطيعوا أن يربّوا النشء ويمرّثوهم على الالتزام الخلقى . فقل لي إذاً : من أين سيأتىك أمثال هؤلاء العاملين المربّين ؟ وإذا كنت لم تُرد بهذا النظام الاجتماعي للتعليم والتربية إلا أن يُخلّى سبيل الرجال والنساء لأن يقضوا شهواتهم من غير قيد ، وتكاد تجربّهم بذلك عن صفة الالتزام الخلقى وضبط الشهوات ، فكيف بالله تتخذ منهم معلمين ومربّين للأخلاق ؟ وأنسى تجد من يجمع العميان نفرأمن البُصراء ليعلموا الأجيال الناشئة سلوك سبيلهم بعيون مبصرة .

٧ - وإن المرأة التي يزني بها رجل أناني مفرض . ويُصيرها أمّاً لولد ، تحيب حياتها وتفسد للأبد ، وينصب عليها وابل من الذلّة والنكبة والمقّت العام ، لا ينقطع عنها ما دامت حية . ولحل هذه المشكلة قد جاءت المبادئ الخلقية الجديدة تقترح بأن يساوى بين كل أنواع الامومة من حيث الكرامة والمزّة ، سواء أكانت عن نكاح أو سفاح . فيقول أصحاب هذه المبادئ : إن مرتبة الامومة تجدر في كل حال بالتكريم ، وإن الفتاة التي تأخذ على عاتقها مسئولية الامومة لسدا جنتها أو عدم حيطتها ، من الظلم أن يلومها المجتمع ويطن عليها . ولكن هذا الحل - وإن هوّن

على الفاجرات فجورهن - آفة للمجتمع ونكبة عظيمة من حيث آثاره .  
المجموعة . وذلك أن المقت والزراية ، الذي ينظر بها المجتمع إلى أم الولد  
النفل ، هو بجانب سدد مانع لأفراده عن ركوب المعاصي ، والفجور ،  
وبجانب آخر ، هو دليل على حياة الشعور الخلقي في المجتمع نفسه . فلو  
أن أم النفل ترفع إلى درجة أم المولود الشرعي ، فعناء زوال التمييز بين  
الخير والشر والبر والاثم والخطيئة والصواب في نفوس الجماعة . وهب  
الجماعة تعدم هذا التمييز فعلاً ، فهل يغني ذلك في شيء عن حل تلك  
المشاكل التي تواجه أم النفل ؟ إنكم قد تساوون بين الامومتين في نظريتك  
وآرائكم ، ولكن الفطرة لا تساوي بينهما بتاتاً . وهما ، في نفس الأمر ،  
لا يمكن ان يستويا ، لأن مساواتهما مما يخالف العقل والمنطق والحقيقة  
والانصاف . وكيف يمكن لعمر الله أن تستوي المرأتان : إحداهما حمقاء  
غلبتها غريزة الشهوة البهيمية فجعلتها تستسلم لرجل مغرض ، لم يكن بنوي  
ان بتكفلها هي وولدها . والاخرى : كيسة ضبطت نفسها وكبحت  
جراح عواطفها إلى أن وجدت رجلاً شريفاً مستعداً لتحمل تبعاتها ، فأيد  
عقل يحكم على هاتين المرأتين حكماً سويًا ، وأنت إن شئت ، قد تجعل بينهما  
مساواة ظاهرة متصنعة ، ولكنك لن تستطيع أن تهبي لهذه الحمقاء كل  
تلك الكفاءة والرعاية والعشرة المؤاسية والتعهد المزوج بالمودة ، والتفقد  
المقترن بالنصح ، وتلك الطمأنينة والسكينة التي لا تتأثني الا لذات الزوج ؟  
ثم من أين تجد لذلك الطفل شفقة الوالد وعطف الاعمام ومحبة الاجداد ؟  
قصاراك أن تحمل الرجل على أداء النفقة . ولكن هل النفقة هي كل

ما تحتاج اليه الام والولد في هذه الدنيا ؟ فالحقيقة الواقعة التي لا تُنكر  
اذاً ، هي ان المساواة بين الام وميتين - الشرعية وغير الشرعية - منها ضمنت  
للفاجرات من الطمأنينة الظاهرة ، لانجبن من النتائج الطبيعية لهماقتهن ،  
ولانجبي اولادهن من مضارّ ولادتهن في احضانهن .

ولهذه الاسباب كلها ، من الضرورات اللازمة لقيام الحياة الاجتماعية  
ونشأتها ونموّها على الخطط الصحيحة ، ان تمنع في الجماعة فوضى العمل  
الجنسي ، ولا يجوز لتسكين الفرائز الشهوانية إلا وجه واحد ، هو  
الزواج . فان اعطاء الافراد حرية الزنى والفحشاء غلوّ في مساحتهم ،  
وعدوان على المجتمع ، بل هدم لكيانه . والمجتمع الذي يتهاون بهذا الامر  
ويُغْمض عن الزنا زاعماً إياه شيئاً من باب الترفيه عن النفس وقضاء  
الوقت في المتعة واللذة (Having a good Time) ويسامح في ثربذور  
النسل هنا وهناك بلا قيد (Sowing wild Oats) ، هو في الحقيقة  
مجتمع جاهل ، لا يعرف حقوقه ، ومن ثمّ يعادي نفسه . ولو أنه يشعر  
بحقوقه ويفطّن الآثار السيئة التي تترتب على المصالح الاجتماعية من  
جراء إباحة الحرية الفردية في العلاقات الجنسية ، لنظّرَ إليها كنظره  
إلى السرقة والتلصّص والقتل . بل هذه الإباحية في الفحشاء أشدّ من  
السرقة ، فإن السارق أو اللصّ أو القاتل لا يسلب إلاّ فرداً أو بضعة  
أفراد من المجتمع ، ولكن الزاني يمتدي على المجتمع بأسره وعلى اجياله  
القادمة أيضاً ، فهو يخون ملايين من الناس في آنٍ واحد ، وعواقب

جريمته هذه أوسع وأعمق من جرائم سائر المجرمين . ولما كان من المسلم به وجوب كون قوة القانون من وراء المجتمع . لتأمينه وتحميه من اعتداءات الافراد الصادرة عن أثرتهم وطفياهم ، وكانت السرقة والقتل والسلب والنهب والتزوير وما سواها من صور غصب الحقوق تعدّ لأجل ذلك من الجرائم والمآثم ، فتسُدُّ فتنتها بقوة قانون العقوبات ، فلا مبرر إلا " يحفظ القانون المجتمع من موبقات الزنى ، ولا يُعَدُّ هذا من الجرائم المعاقب عليها .

ومن الظاهر اليقيني أيضاً من حيث المبدأ والقاعدة أنه ما كان النكاح والسفاح ليكون كلاهما جزءاً لنظام اجتماعي في آن واحد . وذلك أنه إن أبيع المرء أن يقضي شهوات نفسه بدون قبول التبعات ، فمن العبث تقرير ضابط النكاح لنفس الفعل ومثله كمثل أن يرخص للناس ركوب القطار بدون التذكرة ، ويُوجِب عليهم في الوقت نفسه إحراز التذكرة للسفر فيه ، فإنه لا يلبق بما قلر أن يفرض الطريقين كليهما في الوقت الواحد . وما الوجه الصحيح في الأمر إلا " أحد اثنين : إما يُلغى شرط ابتياع التذاكر إلغاءً ، ويُجمل السفر بدونها مباحاً ، أو يُعزَم فيه على الناس فيقرر السفر بدون التذكرة جريمةً أبداً . كذلك اختيار الوجهين المتباينين في الحكم على النكاح والسفاح ممالا يسوّغه العقل بته . فإن كانت ضابطة النكاح من لوازم التمدن . كما ثبت آنفاً بالادلة والبراهين . فمن اللازم مع ذلك أن يعدّ السفاح إثماً وجريمة<sup>(١)</sup> .

---

(١) من الوهم المائع عند بعض القوم أن فتى في مقتبل الشباب ، يجب ان يتاح =



ومن أبرز مآثره به الجاهلية أنه لا يُهتَمُّ فيها إلا بما تكون نتائجه محدودة مملووسة ، وتمثّل أمام العيون وشيكاً بصورة مرئية . وأما ما كانت نتائجه غير مدرّكة للحال لكونها أعمق في الازر وأبطأ في الظهور ، فلا يُلْقَى إليه بال ، بل هو يُعدّ غير صالح للاكتراث له . ومن هذا استعظامُهم للسُرقة والقتل والنهب . وتهاونهم بالزنى والفحشاء . ومن العجب حقّاً أن المرء الذي يجمع في بيته جردان الطاعون أو ينشر في الناس الامراض السارية ، لا يمدّه تمدّن الجاهلية حقيقةً بالعفو والمعدرة أبداً ، لأن فعلته تلك يتيّس لهم جانب ضررها وفسادها . ولكن الزاني الذي يستأصل شأفة التمدّن لاجل غرضه ومصلحته لا غير ، فلا يُنظر

له بعض القُرس لتسكين شهواته بحجة أنه من الصعب على المرء في عهد الشباب مقاومة هيجان المواقف . وفي مقاومته له ضرر بصحته . ولكن المقدمات التي قد نبئت عليها هذه النتائج كلها خاطئة . ولك أن مثل هذه السورة العاطفية الشديدة التي لا يمكن غلبتها ، حالة غير معتدلة ( Abnormal ) لا تنور النفوس المعتدلة ( Normal ) إلا لوجود نظام تمدني فاسد يلهب فيهم نار الشهوة إلهاباً . فكل مانجد فيما حولنا في السينما والصور والموسيقى والآداب ومزاحمة النساء المتبرجات للرجال في كل مكان من هذا المجتمع المختلط - كل هذه الاسباب التي تحول النفوس المعتدلة عن اعتدالها في غريزة الشهوة . والا فمن المحال المستبعد أن تهيج الشهوة في عامة الرجال والنساء في بيئة هادئة معتدلة ، هيجاناً لا يمكن ضبطه بالتربية العقلية والخلفية . والظن بان اجتذاب العمل الجنسي في عهد الشباب مضر بالصحة ، ولذا ينبغي أن يزني المرء توفيراً لصحته ، ان هو إلا مغالطة للنفس وخداع للضمير المحسب . إنما الواجب لحفظ الصحة وصون الاخلاق أن يبدل هذا النظام الاجتماعي المنحرف ، وتلك المقاييس الزائفة للعيش الهنيء ، التي قد جعلت النكاح صعباً والسفاح أمراً هيناً سهلاً .

مضار عمله هذا لا ترى عياناً ولا تحس إحساساً ، بل هي ممّا يُعقل أو يُتصور ، يظنّه الجاهلون موضع الاعذار والمسامحة ، بل هم يكادون لا يفهمون وجه الخطأ في عمله ذلك. ولو أن التمدن يكون أساسه العقل والعلم بفطرة الأشياء ، بدلا من الجاهلية ، لما اختار أهله مثل هذا السلوك العملي.

## ٤

### التدابير اللازمة لمنع الفواشس

إن الفعل الذي يتحقّق ضرره بالتمدن ، لا يكفي في منعه وسدّ بابِه أن يُعدّ جريمة في القانون ويُقرّر له حدّ أو عقوبة ، بل يجب أن تتخذ لذلك معه أربعة تدابير أخرى :

أولاً - تهذيب عقلية الافراد بالتربية والتعليم . ويصلح من نفوسهم إصلاحاً يمدّون معه يُنكرون ذلك الفعل بأنفسهم فيمدّونه إثمًا ، ويكفهم شعورهم الخلقى نفسه عن ارتكابه .

ثانياً - يؤلّب الرأي العام والأخلاق الجماعية على عدا ذلك الإثم أو الجريمة إلى حدّ أن يصبح عامّة الناس يعتبرونه عاراً ومخزاةً ، وينظرون إلى مرتكبه بعين المقت والذم . وذلك لكي تمنع قوّة الرأي العام كلّ من نقصت تربيته أو ضعف فيه الوجدان الخلقى من ارتكاب ذلك الإثم .

وثالثاً - يُجسم في نظام التمدن جميع الاسباب التي تعرض الأفراد على تلك الجريمة وترغبتهم فيها . وأيضاً يُقضى فيه - بقدر الامكان - على الاسباب التي تضطرم اليها .

ورابعاً - يُقام في سبيل هذه الجريمة من الموانع والعقبات في الحياة التمدنية ، ما لا يتيسر معه للمرء ارتكابها ، وإن تعمده وسمي فيه .

كل هذه التدابير الاربعة مما يشهد بصحته وضرورته العقل ، وتتطلبه الفطرة ، وما تعمل به المجتمعات فعلا في جميع العالم . وما من مجتمع أو نظام مدني إلا ويستخدم قليلا أو كثيراً من هذه التدابير الاربعة - علاوة على نظام العقوبات - لمنع الأفعال التي تقرّر في قانونه جرائم . فإذا كان من المعلوم المسلّم به أن فوضى العلاقات الجنسية مهلكة للتمدن . وزنب عظيم إلى المجتمع فلا مناص - أيضاً من التسليم بأنه يلزم لمنعها من الانتشار أن تُستخدم جميع التدابير الاصلاحية المانعة التي قد ذكرت آنفاً ، علاوة على تنفيذ العقوبات . فيجب العمل على تربية الافراد ، ويجب حمل الرأي العام على عداء تلك الفوضى ومكافحتها ، ويجب تطهير التمدن من كل ما يلهب نار الشهوة في الافراد ، ويجب أخيراً أن نزاح عن النظام الاجتماعي تلك الموانع والعقبات التي تجعل النكاح من أصعب الامور ، وأن تُقيّد العلاقات الجنسية بين الصنفين بقيود تقوم في وجهها كالسدّ الحاجز ، إن هما مالا إلى التعلق الجنسي المطلق . وما يكون لما قلّ ، يدترف بكون الزنى إثماً وجريمة ، أن يُنكر ضرورة هذه التدابير وبمعرض على استخدامها .

ومن الناس من يسلّمون بكل تلك المبادئ الخلقية والاجتماعية التي قد قرّر الزنى إنمّا بوجها . ولكنهم يُصرون على أنه بدل أن يُستخدم لقمعه قانون العقوبات والتدابير الوقائية يجب ان يكتفى باتخاذ التدابير الاصلاحية لحسب . فيقولون : إنه يجب أن يوقظ في الناس من الشعور الباطن ، ويبحث فيهم من قوة الضمير المحتسب والوجدان الخلقي ما يمتنعون به عن ارتكاب هذه الجريمة بأنفسهم . وأما اللجوء الى قانون العقوبات والتدابير الوقائية لأجل ذلك، بدل اصلاح النفوس ، فمعناه معاملة الناس كمعاملة الصغار الاغرار ، بل هو حطّ من مكانة الانسانية واستخفاف بأمرها . وإنّا أيضاً نسلم بقولهم إلى حد أن الطريقة المثلى لإصلاح الانسانية هي التي يقترحونها، وإن الغاية الحقيقية من التهذيب والتثقيف، أن تنبعث في ضمائر الافراد، قوة تجعلهم يحترمون قوانين المجتمع بأنفسهم، فيزعمهم ضميرهم انفسهم ، عن الخروج على قواعد الاخلاق . وهذا هو الغرض من وراء كل تلك العناية البالغة التي تُعنى بها الامم لتعليم افرادها وتربيتهم . ولكننا نسألهم : هل التهذيب والتربية غايتها تلك ؟ وهل هذبت الافراد الانسانية تهذيباً يمكن معه الآن ان يعتمد على ضمائرهم كل الاعتماد ، ولم يعد من حاجة إلى استخدام العقوبات أو التدابير الوقائية لحفظ النظام الجماعي ؟ دعوا عن أنفسكم ذكر القرون الخوالي، فانها كانت في رأيكم - أنتم المتجددين - عصوراً مظلمة. بل انظروا في هذا العصر الممتلئ من القرن العشرين ؛ وتأملوا فيه حالة أرقى الدول الاوربية والاميركية

واعلاها ثقافة وتهذيباً ، التي كل فرد من أفرادها متعلم ، وهي تتباهى بما يتحلى به أبنائها من التربية السامية ، هل منَع التعليمُ وإصلاح النفوس فيها ارتكاب الجرائم ونقض القانون ؟ ألا تحدث في تلك البلاد حوادث السرقة ، أو اللصوصية ؟ ألا تقتل هناك النفس الانسانية بغير حق ؟ أو لا يرتكب الناسُ الغش والخديعة والظلم والافساد ؟ وهل استغنت تلك الدول عن استخدام الشرطة والحاكم والسجون ونظام المحاسبة الاجتماعية ؟ أو بلغ في أفرادهم الشعورُ بالبيعة الخلقية أنهم لا يعاملون «معاملة الصغار الاغرار» ؟ فلماذا لم يكن كل هذا من الواقع . ولم يكن أهل الغرب قد تمكنوا ، حتى في هذا العصر ( المتنور ) ، أن يتركوا أمر نظم المجتمع وقانونه إلى الشعور الخلقى في الافراد ، ولما كانت الانسانية في هذا الزمان أيضاً لا تزال تهافت وتعامل «معاملة الصغار» باستخدام العقوبات والتدابير الوقائية لردعها من الجرائم ، فما بالكم تعترضون على إهانتها في أمر العلاقات الجنسية فحسب ؟ ولماذا هذا اللجوج وهذا اللحاح الشديد على أن يعامل هؤلاء ( الصغار ) معاملة ( الكبار ) في هذه المسألة وحدها ؟ ألا ارجعوا إلى ضمايركم وتجسسوها ، لعلّ فيها دخلة سوء .

ثم يقول هؤلاء : إن الاشياء التي تعدونها محركات شهوانية وتريدون أن تقصوها عن دائرة التمدن ، كلها قوام الفن وروح التذوق للجمال . فالصد عنها صدٌّ عن معين اللطافة والبهجة في الحياة الانسانية . لذلك مهلهل شتم أن تفعلوه لحفظ التمدن وإصلاح الاجتماع ، فافعلوه على نحو لا يمس الفنون اللطيفة والتذوق الجمالي . ونحن أيضاً نوافقهم على ان الفن والتذوق

للجهال شيءان غاليلان ، يجب ان يحافظ عليهما ، بل يتقدم ويرتقى بهما ،  
 ولكن حياة المجتمع والفلاح الاجتماعي أغلى منها وأنفس ولايجوز أن  
 يضحي بهذين في سبيل فنٍ من الفنون أو ذوقٍ للجمال . فإن كان يراد  
 بالفن والشعور الجمالي أن يتقدما ويرتقيا فليتخذ لارتقاها طريق يطابق  
 بينها وبين الحياة والفلاح الاجتماعي ! لان الفن أو الذوق الجمالي الذي يفضي  
 إلى الهلكة بدل الحياة ، وإلى الفساد بدل الفلاح ، لا يمكن أن يترك ينمو  
 وينتشر في محيط الجماعة . وإن قولنا هذا ليس برأي فردي أو نظرية  
 مختلفة ، بل هو عين ما يقتضيه العقل والفطرة ، وتعرف به الدنيا من  
 حيث المبدأ ، ولا يزال يجري عليه العمل في جميع العالم فكل ما يعد في هذه  
 الدنيا مهلكة للحياة الجماعية ومجربة للفساد ، لا يحتمل أبداً لأجل الفن  
 أو الذوق الجمالي . خذ مثلاً لذلك أن الآداب التي تحض الناس على الفتنه  
 والفساد وتحفزهم على القتل والسلب ، لا تجوزها دولة من دول الارض ،  
 لحماستها الادبية والفنية . وان الادب الذي يرغب في نشر الاوبئة والامراض  
 لا تنفي عنه أبة سلطه في هذه الدنيا . وان السينما أو المسرحية التي تحض  
 الناس على البغي ونقض الامن ، لا تأذن بمرضاها حكومة من حكومات  
 العالم . وأن الصور التي تعبر عن نزعات الظلم والقساوة والخبث أو تنقض  
 المبادئ الخلقية المسلم بها ، مهما بلغت من كمال الفن ، لا ينظر اليها أي قانون  
 واعي ضمير اجتماعي بعين التقدير والاعجاب . وكذلك فن النشال وإن كان  
 من أطف الفنون وأرقاها في خفة اليد وبراعتها ، لا يرضى له أحد أن ينمو  
 وينتشر . ومثله صناعة تزوير الصكوك والشيكات والاوراق المالية ، فإنها

أيضاً تتطلب فطنة نادرة وبراعة عجيبة؛ ولكن لا يستجيز أحد ترقية هذا الفن . ثم هناك الغش والدجل الذي قد أتى فيه الذهن الانساني بالعجب المعجز من قوة اختراعه ، ولكنه ليس من مجتمع مذهب ينظر الى تلك المعجبات بعين الرضا والتقدير وإذا من المسلم المعترف به أن حياة الجماعة وأمنها وفلاحها ومصالحها أغلى ، وأنمن من كل فن لطيف وكل ذوق للجمال أو الكمال ، ولا يجوز أن يضحي بكل ذلك لأجل فن من الفنون . وأما الامر الذي فيه الاختلاف فهو أننا نعد شيئاً من الاشياء مضرأ بحياة الجماعة وفلاحها ، ولا يعمده كذلك غيرنا . ولو أن وجهة نظرهم توافق وجهتنا في هذا الامر ، فلا جرم أن يشعروا بضرورة تقييد الفن وذوق الجمال بتلك القيود التي نستلزمها نحن .

ومن قولهم ايضاً : إن ضرب الحجب والحواجز بين افراد الجنسين ، لمنع العلاقات الجنسية المطلقة بينهم ووضع السدود دون اختلاطها الحر في الاجتماع ، هو في الحقيقة تحاملٌ على سيرتهم وأخلاقهم ، إذ يؤخذ من ذلك أنه قد فرض كل واحدٍ من آحادهم فاجراً أو داعراً ، وأنواضي هذه القيود لا يثقون بنسائهم ولا برجالهم . اعتراض قوي ولا شك ؛ ولكن ما بالك تقف بهذا الاعتراض عند هذا الحد ، ولا تتوسّع به إلى ماسواه من شؤون الحياة ، حتى يقال : وكل قفلٍ يُوضع على بابٍ كأنه إعلان لكون مالكه قد قرّض كل أهل هذه الدنيا لموصاً . وأن وجود كل شرطي في البلاد دليل على أن الحكومة تعتبر جميع رعاياها أشراراً

خُبُّهُ . وكل ما بُسْتَكَب من صكٍّ عند المعاملة فهو حجةٌ على كونه  
أحد الفريقين قد عدَّ الآخر خائناً ، وأن كل ما يُتَّخَذ من التدابير  
الوقائية لسدِّ الجرائم ، فإن وجوده في نفسه برهان على أن كل من بشملهم  
نطاق هذا التدبير قد فرضوا مجرمين على الاحتمال . إن هذا النحو من  
الاستدلال يجعلك في كل آنٍ سارقاً أو خائناً أو فاجراً مثهماً ، ولكنه  
لا يفضّ شيئاً من كرامتك وعزّة نفسك . فيأليت شعري لماذا يرقّ  
شعورك للمزّة والكرامة كل هذه الرقة في أمر العلاقات الجنسية وحدها ؟  
إنما الحقيقة الواقعة التي قد أشرنا إليها آنفاً ، هي أن الذين لا تزال في  
أذهانهم أثارة من التصوّرات الخلقية العتيقة ، لا ريب يُنكرون الزنى  
والفوضى الجنسيّة ، ولكنه لا يبلغ فيهم ذلك الإنكار مبلغاً يُشعرهم  
بضرورة منعها وسدِّ بابها بالمرّة . ولذلك تختلف وجهة نظرهم عن وجهة  
نظرنا في باب التدابير التي يجب أن تُتَّخَذ للإصلاح لحسم أسباب تلك  
السيئة . ولو أنهم تنكّشف عليهم حقائق الفطرة ، فيتفطّنوا لوضع هذا  
الامر ووجهه الصحيح ، لا تتفقوا معنا على أن الانسان مادام إنساناً وما بقي  
فيه عنصراً الحيوانية ، فلا يمكن لأي تمدنٍ يؤثر فلاح الحياة الجماعية على  
أهواء الافراد وشهواتهم ، أن يغفل عن تلك التدابير ويقصّر في أمرها .

## ٥

### الوجه الصحيح للمعرفة بين الزوجين

إن من لوازم التمدن الصالح ، بعد تشكيل الأسرة وسدِّ باب الفوضى



الجنسية أن يقرر الوضع الصحيح لملاقة ما بين الرجل والمرأة، وتأمين حقوقها بالعدل والنصفه، وتقسيم بينها التبعات والواجبات بالقسط، وتحدد لها المراتب والوظائف في نظام الأسرة على نحوٍ لا يُخلّ بالتوازن والاعتدال . هذه المسألة أصعب مسائل التمدن وأكثرها إعضالاً، ولكن الانسان قد أخفق في حلّ عقدها غالباً .

فهنالك أمم قد جعلت المرأة قواماً على الرجل . ولكننا لانعلم أمة من تلك الأمم ، بلغت درجة عالية في التمدن والحضارة ، ولا تُرى في سجل التاريخ على الأقل أمةٌ وكلّت أمرها إلى المرأة ، ثم نالت القوة والعزة بين أمم العالم ، أو جاءت بمآثرة تُذكر في التاريخ .

أما معظم أمم الارض فقد جعلت الرجل هو القوام على المرأة . ولكن هذا التفضيل للرجل رُبّما تحول إلى الظلم ، بحيث اتخذت المرأة أمةً ، وسيمت الاهانة والخسف ، وحُرمت كل أنواع الحقوق الاقتصادية والتمدنية ، ووُضعت في الأسرة مقام الخادم ، وأداة قضاء الشهوة للرجل . ولئن عَطَفُوا على طبقة من النساء خارج الأسرة والبيت ، وحلّوهُنَّ بحلي العلم والثقافة ، فليكن يَفِينَ بمطالب الرجال الجنسية بطُرُقٍ أشهى وألذّ ، ويكنّ لهم لذّة المسامح بموسيقاهن ، وبهجة النواظر برقصهن ودلالهن . ومتمّة الأجساد ببراعتن الجنسية ومفاتن . وكان ذلك من أوقع ما ابتدَعَتْهُ أهواء الرجال من أساليب إهانة المرأة وتحقيرها ، وإن الامم التي جَرَتْ على هذه الطريقة ، لم تسلم بنفسها من مضارّها .

على أن التمدن الغربي الحديث قد اختار لنفسه طريقاً ثالثاً ، هو طريق المساواة بين المرأة والرجل . وذلك أن تنقسم الواجبات بين الجنسين على السواء ، وتكون من نوع واحد تقريباً . فيتسابقا في دائرة عمل واحدة ويكسب كل منهما عيشه بيده ويكفل حاجاته بنفسه . ولكن هذه الصيغة من تنظيم الاجتماع لم تتكامل بعد . لأن أفضلية الرجل وتفوقه على الصنف المقابل لا يزال خليلاً بارزاً حتى الآن . ولم تبلغ المرأة مبلغ الرجل في أي شعبة من شعب الحياة ، ولم يحصل لها بعد جميع الحقوق التي يجب أن تكون لها بحسب قاعدة المساواة الكاملة . على أن الجانب الذي قد تمّ وكمل من هذه المساواة ، فقد أخذ يدخل الفساد على التمدن ، منذ الآن . وقد سبق أن ذكرنا نتائجها في الابواب الماضية ، فلا نحتاج إلى مزيد من التعقيب عليه في هذا المقام .

كل هذه الانواع الثلاثة للتمدن ، يخلو من العدل والتناسب والاتزان . لأنه قد قصر في فهم هداية الفطرة ، وفي اختيار السلوك العملي وفقاً لها . وبموجبها . وإنك إن تأملت الأمر بالفكر السليم ، تبينّت أن الفطرة نفسها قد دلت على الحل الصحيح لتلك المسائل ، بل هي الفطرة التي قد صانّت المرأة بقوتها القاهرة عن أن تسقط في منزلتها إلى الدرك الاسفل . الذي أرادته الرجال لها ، أو تسمو فيها إلى العلياء التي أرادتها لنفسها أو حاول الرجال أن يرفعوها اليها . وقد اختار الانسان جانبي الافراط والتفريط بتأثير عقله الخاطئ وتصورات الزائفة الضالة . ولكن الفطرة .

لا تريد إلا العدل والتناسب ، وهي تهدي الانسان بنفسها إلى ذاك السبيل .

بما لا ينكره أحد أن الرجل والمرأة من حيث انسانيتهما على حد سواء . فهما شطران متساويان للتنوع الانساني ، مشتركان بالسوية في تعمير التمدن وتأسيس الحضارة وخدمة الانسانية . وكلا الصنفين قد أوتي القلب والذهن والعقل والمواظف والرغبات والحوائج البشرية . وكل منهما يحتاج إلى تهذيب النفس وتثقيف العقل وتربية الذهن وتنشئة الفكر ، لصالح التمدن وفلاحه ، حتى يقوم كل منهما بنصيبه من خدمة التمدن . فالقول بالمساواة بين الصنفين من هذه الجهة صواب لا غبار عليه . ومن واجب كل تمدن صالح ان يعنى بالنساء عنايته بالرجال في إيتائهن فرص الترقى والتقدم وفقاً لمواهبهن وكفاءاتهن الفطرية . فيحليهن بالعلم والتربية العالية ، ويمنحهن من الحقوق التمدنية والاقتصادية مثل ما يمنحه الرجال ، وينزلن في الهيئة الاجتماعية منزلة العز والكرامة ، حتى ينشأ فيهن الشعور بعزة النفس . فيتحلين بتلك الصفات الانسانية الفاضلة التي لا يبعثها في الانسان إلا هذا الشعور . فالامم التي أثبت مثل هذه المساواة بين الصنفين وتركزت نساءها جاهلات مهينات غير مثقفات بالتربية ومحرومات من جميع حقوق المدنية ، فقد انحطت بنفسها في حضيض الذلة والهوان ، وذلك لان إسقاط شطركامل من شطري الانسانية معناه إسقاط الانسانية نفسها . ولا يمكن أبداً أن ينشأ من أحضان الامم المهينات أبناء شرف

وكرامة ، ومن أعطاف الجاهلات غير المثققات أصحاب تربية وثقافة  
ومن مهود البليدات العاميات الفكر رجال تفكير وشعور عال .

على أن الجانب الآخر من هذه المساواة هو أن تكون دائرة عمل  
الرجل والمرأة واحدة ، فيقوم الجنسان بأعمال من النوع الواحد ، وتقسم  
بينهما واجبات جميع شعب الحياة بسوية وتكون منازلها في نظام التمدن  
متماثلة ، والذين يقولون بهذه المساواة ويدعون إليها يحتجون لهذه النظرية  
بشواهد العلوم التجريبية وتجاربها ، فيثبتون بها أن الرجل والمرأة متساويان  
(Equipotential) في قوتها ومقدرتها الجسدية . ولكن كونها  
متساويين في ذلك لا يكفي في الحكم بأن مقصود الفطرة أيضاً هو استخدامها  
لأعمال من النوع الواحد . ولا يصح أن يرى هذا الرأي ، مالم يثبت أنها  
متماثلان أيضاً في نظامها الجسدي وقد كلفتها الفطرة نوعاً واحداً من  
الخدمات ، وأنها متشابهان كذلك في خصائصها النفسية . أما التحقيق  
العامي الذي قد قام به الانسان إلى هذا اليوم فينفي ويبطل كل  
هذه الامور الثلاثة .

# شهادة علم الأحياء

فهذا علم الاحياء ( Biology ) قد أثبتت بحوثه وتحقيقاته أن المرأة تختلف عن الرجل في كل شيء من الصورة والسمت والاعضاء الخارجية إلى ذرات الجسم والجواهر الهولينية ( البروتينية ) لخلاياه النسيجية ( Protein Molecules - of Tissue Cells ) . فمن لدن حصول التكوين الجنسي ( Sex Formation ) في الجنين ، يرتقي التركيب الجسدي في الصنفين في صورة مختلفة . فهيكلك المرأة ونظام جسمها يركب كله تركيباً تستعد به لولادة الولد وترميته . ومن التكوين البدائي في الرحم إلى سن البلوغ ، ينمو جسم المرأة وينشأ لتكميل ذلك الاستعداد فيها . وهذا هو الذي يحدد لها طريقها في أيامها المستقبلية .

ومع بلوغها من الشباب يبروها الهيمض ، الذي تتأثر به أفعال كل أعضائها وجوارحها . وتدل مشاهدات أساطين علمي الأحياء والتشريح على أن المرأة تطرأ عليها في مدة حيضها التغيرات الآتية :

١ - تقل في جسمها قوة إمساك الحرارة ، فيزداد خروج الحرارة منه ، وتنخفض درجتها فيه .

- ٢ - ويبطؤ النبض وينقص ضغط الدم ويقل عدد خلاياه .
  - ٣ - وتُصاب الغدد الصماء ( Endocrines ) والوزتان ( Fonsils ) والغدد اللمفاوية ( Lymphatic glands ) أيضاً بالتغير .
  - ٤ - وينتقص الاستقلاب الهوليوني ( protein Metabolism )
  - ٥ - ويقل إخراج أملاح الفسفات والكلوريد من الجسم وينحط الاستقلاب الغازي ( Caseous Metabolism )
  - ٦ - ويختل الهضم ، ويقل التحام الشحم والاجزاء الهوليونية في المأكولات مع أجزاء الجسم .
  - ٧ - وتضعف قوة التنفس وتصاب آلات النطق بتغيرات خاصة .
  - ٨ - ويولد الحس وتكامل الاعضاء .
  - ٩ - وتتخلف الفطنة والذكاء وقوة تركيز الافكار .
- وكل هذه التغيرات تُدني المرأة الصحيحة إلى حالة المرض إدناءً يستحيل معه التمييز بين صحتها ومرضها . ففي مائة من النساء الحوائض ، لا تحيض إلا ثلاث وعشرون بلاوجع أو ألم . وبحث الباحثون ذات مرة في أحوال ١٠٣٠ امرأة عفو الانتخاب ، فوجدوا أن ٧٤ في المائة منهن كن يقاسمن الوجع وغيره من صنوف الأذى أيام حيضهن . ويكتب الطبيب أميل نووك الذي هو محقق كبير في هذا الفرع من العلم :

« إن ما يُعَدُّ في الحوائض عامةً من الأعراض هي: الصداع والنَّصَب والخلَج (١) وضمف الأعصاب وتخلُّف المزاج واضطراب المثانة وسوء الهضم ، والإمساك أحياناً ، والغثسيان والتهوُّع في بعض الحالات . وهناك نساء لا يُستَهان بعددهن يُحسَّن في صدورهن وجماً خفيفاً ، يشتدُّ أحياناً فيشعرن له بضربات عنيفة . وفي بعضهن تنورُّم الغدَّة الدرقية في هذه الأيام ، مما يُسبِّب فيهن البُحَّة (٢) . وكثيراً ما يُصَبِّحن بفتور الهضم وجهد التنفس . ودلَّ الفحص الطبي الذي قام به الطبيب كريمجو في عددٍ من النساء ، أنَّ كان نصفهنَّ يتعللن بسوء الهضم في أيام الحيض ، وبالإمساك في أواخرها . ويقول الطبيب جب هارد : قلَّ من النساء من لا تمتدَّ بعلَّة في الحاض ، ووجدنا أكثرهن يشتكين الصداع والنَّصَب والوجع تحت السُرَّة وقلة الشهوة للطعام ، ويُصبِحن شَرِمات الطباع مائلات إلى البكاء . فنظراً لهذه العوارض كلها يصحَّ القول : إن المرأة في محاضها تكون في الحق مريضةً . ويتتابها هذا المرض مرَّةً في كل شهر وهذه التغيُّرات في جسم المرأة تؤثر لا محالة في قواها الذهنية وفي أفعال أعضائها . ففي سنة ١٩٠٩ م استنتج الطبيب فوامتشفسكي ( Voicechevsky ) من مشاهداته الدقيقة أنَّ المرأة تضمحل فيها قوة الجهد العقلي والتركيز الفكري أيام الحيض . واستخرج كذلك الامتداد

---

(١) الخَلَج : أن يشتكي المرء عظامه من طول تعب أو مثي .

(٢) البُحَّة : خشونة وغلظ في الصوت .

كرشي سكفسكي ( Krschiskevsky ) من اختباره النفسية أن المرأة يلهب فيها المجموع العصبي في هذه الايام ، ويولد الحس ويحتل ، ويضعف الاستعداد - وربما تعطل بالرة - لقبول الانطباعات المرتبة ، حتى يضطرب في شعورها ما قد قر في قبلاً من تلك الانطباعات المرتبة ، مما يجعلها تتخلج حتى في أعمالها التي قد اعتادتها في حياتها اليومية. فمثل هذه المرأة إن كانت جارية في الترام ، أخطأت في قطع التذاكر وارتبكت في عدد الكسور. وإن كانت سائقة سائق سيارتها بجذر بالغ وتعمل ، وحارت عند كل منعطف . وإن كانت سيدة كاتبة ( Lady Typist ) أخطأت في كتابتها الآلية وتوانت فيها . وفاتها الحرف على الرغم منها ، ولم توفق في تركيب الجمل ، ولم تصب الحرف المقصود بضربة اصبعها . وإن كانت محامية خانتها قوة حجاجها وأخطأ فكرها وبيانها في عرض قضيتها. وإن كانت قاضية ، تأثرت ملكة فهمها وقوة حكمها بهذه الحالة المرضية التي هي فيها . كذلك إن كانت الحائضة طبيببة أسنان ، لم تنشط في عملها ولم تجد آلاتها عند الطلب إلا بجهد منها . وإن كانت مغنية ، فقدت محاسن لحنها ومفاتيح صوتها في أيامها تلك ، حتى إن الماهر في التلحين لمعرف حالتها تلك بمجرد سماعه لقائتها . محصل القول أن الجهاز العصبي والذهني في المرأة يمود في غالبه مترخياً غير منظم في هذه الايام ، فلا تكون أعضاؤها تابعة لإرادتها تماماً، بل تنبعث من داخلها حركة اضطرابية تملك عليها إرادتها وتعطل قوة حكمها واختيارها ، فتصدر منها الافعال بغير



إرادةٍ ، ولا يمود لها في أعمالها وتصرفاتها من حرية ، ولا هي تكون أهلاً للقيام بتبعة أو مهمة !

ويكتب الاستاذ لابنسكي ( Lapinsky ) في كتابه : نشأة الشخصية في المرأة ( The Development - of Personality in Woman ) أن مدة الحيض تحرم المرأة حريتها العملية ، فهي تكون في أثنائها تابعة لحركاتها الاضطرابية ، وتنقصها جداً قوة استعمال ارادتها للاقدام على عمل أو تركه .

كل هذه التغيرات تحصل في امرأة سالمة ، وتدرج فيها بسهولة إلى أن تكون مرضاً . وقد دون كثير من الحوادث التي تدل على أن المرأة في حالتها هذه تكاد تكون مجنونة ، تتورثها لأدنى بادرة ، فترتكب الحماقات ووحشي الحركات . وليس من الغريب الشاذ أن يفضي بها جنون الغضب حتى إلى الانتحار . فيكتب الطبيب كرافت ايبنج (Krafft Ebiug): إننا نجد في حياتنا اليومية أن النساء اللاتي يكن لينات المريكة دُمثات الأخلاق صُنْعَ الأيدي ، تتغير طباعهن بفترة من فور دخولهن في أيام الحيض ، وكأن هذه الأيام تمر بهن كمرّ العاصف الزعزع يُصبحن فيها متفجرات سليطات اللسان شديداً الخصاص ، يشكو سوء خلقهن كل من الخدم والأولاد والأزواج ، حتى الأجانب أيضاً لا يسلمون من سوء معاملتهن . وقد انتهى البحث والتدقيق بآخرين من ذوي هذا الفن ، إلى أن معظم الجرائم التي ترتكبها النساء يرتكبنها في حالة الحيض ، لأنهن لا يكن فيها تابعات لارادتهن . ولا يستبعد من امرأة معروفة بالصلاح

أن ترتكب السرقة — مثلاً — في هذه الأيام ، ثم تدم على فعلتها فيما بعد ويكتب الطبيب وينبرج ( Weinberg ) مستنداً إلى مشاهداته ، إن الحسنيين في المائة من المنتحرات اللاتي بُحِثت أحوالهن ، كن قد ارتكبن الجريمة في أيام الحيض . فيرى هذا الطبيب لذلك أن من الواجب على المحاكم حين ترفع إليها قضايا النسوة المراهقات أن ترى وتثبت فيها ، لعل إحداهن قد اقترفت الجريمة وهي حائض !

وأشدّ على المرأة من مدة الحيض ، زمانُ الحمل . فيكتب الطبيب ريريف ( Reprev ) : ربما كان خروج الفضالات من جسم المرأة في زمان حملها أقلّ مما يكون في حالة الفاقة والمسغبة فلا تستطيع قواها في هذا الزمان أن تتحمل من مشقة الجهد البدني والعقلي ، ما تتحمّله في عامة الأحوال . وإن عوارض الحامل إن عرّضت لرجلٍ أو امرأة غير حامل ، لحكم عليه أو عليها بالمرض بدون شك . ففي هذه المدة يبقى مجموعها العصبي مختلاً على أشهر متعددة ، ويضطرب فيها الاتزان الذهني وتعود جميع عناصرها الروحية في حالة فوضى دائمة . وهي في أثناء ذلك بين الصحة والمرض . ويكفي أدنى الأسباب في دفعها إلى المرض . ويقول الطبيب فشر : إنه لا تسلم حتى المرأة الصحيحة من الاضطراب الشديد في زمان الحمل ، فتصاب في مزاجها بالتلون وفي أفكارها بالتشوش وفي عقلها بالشرود . وتتخلف فيها ملكات الشعور والتفكير والتأمل والفهم والتعقل . ومما انفق عليه هيولاك أيلس وألبرت مول وسواهما من الاختصاصيين : أن الشهر الأخير من أشهر الحمل لا يصح فيها البتة أن تُكلف المرأة جهداً بدنياً أو عقلياً .

أما عقب وضع الحمل فتكون المرأة عرضةً لأمراض متعددة تمرُّها وتتمو فيها . إذ تكون جروح نفاسها مستعدةً أبداً للتسمم ، وتصبح أعضاؤها الجنسية في حركةٍ لتقلصها إلى حالتها الأصلية قبل الحمل ، مما يتخلل به نظام جسمها كله ، ويستغرق بضعة أسابيع في عودته إلى نصابه ، حتى وإن لم يعرض له في أثناء ذلك خطر . وبذلك تبقى المرأة مريضةً أو شبه مريضة مدة سنة كاملة بعد قرار الحمل ، وتعود قوة عملها نصف ما تكون في عامة الأحوال أو أقل منه .

ثم هناك مدة الرضاع التي لاثميا المرأة فيها نفسها . بل للوديمة التي تستودعها الفطرة إياها . فتتحول خلاصة جسمها إلى لبنٍ مائعٍ للولد . ومن الغذاء الذي تأكله ، لا ينال جسمها إلا البلغة وأما سائرُه فيصرف في إزالال اللبن في صدرها . وتعد الرضاع أيضاً يكون على المرأة أن تصرف عنايتها كلها إلى احتضان الولد وتمهده وتربته حقبة طويلة من الزمن . وقد حلوا مسألة الرضاع أخيراً باستبدال الأغذية الخارجية للطفل بابن أمه ولكنه ليس بحلٍ مصيب . إذ أنه لا عوض في هذه الدنيا للغذاء الذي قد وضعت الفطرة للطفل في ثدي أمه ، وقد اتفق الاختصاصيون على أنه ليس كلبن الأم غذاء للطفل لنشأته الصحيحة فخرمانه منه لا شك ظلم وأثرة ممقوتة . ثم إنهم قد اقترحوا تربية الأولاد أيضاً دوراً للحضانة والتربية ، لكي تكفي الأمهات مؤتمها ، فيفرغن لمشاغل خارج البيت . ولكن من غير الممكن أبداً أن يهياً للطفل الحنان الأموي في دار حضانة أو تربية للأطفال . وما كان لينشأ في قلوب المريات بالمأجورات ذلك الحب والحنان ورقة العاطفة ، التي تتطلبها الطفولة وتفتقر

اليها في أوائل عهدها . وهذه الطرق المبتدعة لتربية الأولاد لم تجرب  
 بعد تجربة كاملة ، إذ لم تتخرج بعد الاجيال الناشئة من تلك المعامل  
 الجديدة للتربية ، ولم تظهر الدنيا على طباعهم وأخلاقهم وسلوكهم العملي ،  
 حتى 'يحكم على هذه التجربة الجديدة بالنجاح أو الفشل . ومن ثم لم يثن  
 بعد لأصحابها أن يدعوا كونهم قد وجدوا في هذه الطرق الجديدة بدلاً  
 صحيحاً لمساطة الأمومة ولا يزال من الحقيقة القاسمة أن مثنوى التربية  
 الفطرية للولد هو حضن أمه ليس غير .

ومن هذا البيان يستطيع أن يفهم كل ذي عقل سليم ، أن الرجل  
 والمرأة ، وإن فرض أنها متكافئان في القوة الجسدية والاستعداد الذهني ،  
 فلم تحمل الفطرة عليهما مع ذلك ، واجبات متساوية . وذلك أن الرجل لم  
 'يجعل عليه من خدمة بقاء النوع غير أن يلقى بذره في الحرث ، ثم يروح لسبيله  
 حتى يعمل فيما يشاء من شعب الحياة . والمرأة - بخلاف ذلك - قد حملت  
 معظم أعباء تلك الخدمة . وللنهوض بهذه الأعباء هي تعد مذ تكون مضغوطة  
 لحم في بطن أمها ، ولهذا الغرض يقوّم هيكلها الجسدي ، ولهذا - لاغير -  
 تتألم مدة شبابها وكهولتها نوبات الحيض ، التي لا تدعها أهلاً للقيام بتبعة  
 جسيمة أو بجهد عقلي أو بدني لثلاثة أيام أو سبعة عشر من كل شهر .  
 ولهذا الغرض نفسه تعاني المسكينة متاعب الحمل وما بعد الحمل طول سنة  
 كاملة تظل خلالها معلقة بين الصحة والمرض ، ثم لهذا كله تمرّ عليها  
 سنتان من الرضاعة ، تسقي فيها الزرع الانساني بدمها وترويه من  
 ينابيع ثديها . وتقضي بعد ذلك أعواماً ذوات عدد ، في التربية الابتدائية  
 لولدها ، تحرم نفسها في أثنائها نومة الليل وراحة النهار ، وتؤثر الجيل

الآتي على راحتها ومنعتها وبهجتها ورغباتها وعلى كل ما يميز عليها . فإذا كان الواقع على ما وصفنا ، فانظر ماذا يقتضيه الانصاف في أمر المرأة ؟ هل من الانصاف اليها أن تُطالب بالقيام بتلك الواجبات الفطرية التي لا يشاركها فيها الرجل بطبعه ، ثم يُحمل عليها فوق ذلك مثل ما يحمل على الرجل من واجبات التمدن ، التي قد أعني هذا لاجل القيام بها عن جميع واجبات الفطرة ؟ فيُفرض عليها أن تتحمل كل تلك المصائب التي تتجشّمها الفطرة ، ثم تخرج من البيت كالرجال لتعاني مشقة الكسب ، وتكون معهم على قدم المساواة في القيام بأعمال السياسة والقضاء والصناعات والمهن والتجارة والزراعة وإقامة الأمن والدفاع عن حوزة الوطن . وليس هذا خُسر ، بل يكون عليها بعد ذلك أن تفتش المحافل والنوادي ، فتمتّع الرجال ببراعة جمالها وأنوثتها وتبني لهم أسباب الخلاعة والمجون واللذة والمتعة ! أما والله إنه ليس من الانصاف ، بل هو عين الظلم والعدوان وليس بمساواة بين الصنفين ، بل هو عبث صريح بالمساواة . وإنا الذي يقتضيه الانصاف ، هو أن الصنف الذي قد كلفته الفطرة أعباء جساماً ، لا يكلف من أعمال التمدن إلا ما هو خفيف المحمل ، وأن الذي لم تكلفه الفطرة بشيء عظيم ، يحمل عليه من واجبات التمدن ما هو أهم وأثقل وأدعى للجهد والتعب ، ويكون أيضاً قوَّاماً على الاسرة يرعاها ويربّيها .

وليس تكليف المرأة بالواجبات الخارجية ظملاً لها خُسر ، بل الحقيقة أنها ليست أهلاً لكل الأهلية للقيام بالواجبات الرجال . وإنا ينهض بها من الماملين من كانت قوة عملهم ثابتة لا تفتقر ، وكانوا يستطيعون أن يؤديوا

واجباتهم بمقدرةٍ سواء على الدوام ، وكانت قوام العقلية والجسدية مما يوثق به ويستمد عليه . وأما من كن عرصةً في كل شهر لنوبات الاذى الذي يذهب كل قدرتهن وكفاءتهن ، أو يقلل منها جداً ، وكانت قوة عملهن في هبوط دون المستوى المطلوب مرة بعد أخرى ، فهذهات أن يستطعن النهوض بتلك الواجبات . ولفهم ذلك تتمثل في خيالك جنذاً أو أسطولا بحرياً من النساء ، ينزل معركة ، وإذا رُبِع الجنود كاد يتعطل عن العمل لازى المحاض ، وسدسها لا يستطيع الجهد والعمل الشاق بسبب الحمل ، وجانب غير قليل منه قد لزم الفراش لآلام النفاس . فماذا ترى هذا الجند يفعل في ميدان القتال ! ولعلك تفند هذا المثال بقولك : إن خدمة الدفاع والقتال لا ريب أشق الخدمات ، ولا نقول إن المرأة لها بكفء . ولكن قل لي بربك أي الأعمال من الشرطة والقضاء والإدارة والسفارة والصناعة والمهنة والتجارة وأعمال سكك الحديد هيّن سهّل لا تستلزم تبعاته قوة عمل ثابتة موثوقاً بها ؟! لذلك إن الذين يريدون أن يقلدوا المرأة أعمال الرجال ، فكأنني بهم لا يريدون إلا إحدى ثلاث : إما أن يبدلوا جميع النساء غير النساء فيقضوا على النوع قضاء ، أو يلتقطوا جزءاً من طبقة الإناث في كل جيل ، فيجردوهن من طبيعة الأنوثة ، أو يحطوا من مستوى الجدارة والاهلية لجميع شؤون التمدن عامة !

ومها اخترت من هذه الصور فلا شك في أن إعداد المرأة لوظائف الرجال مما يناقض وُضْع الفطرة ومقتضاها ، ولا نفع فيه للانسانية أو

للمرأة نفسها . ولأن المرأة قد خلقت لأجل الولادة والتربية بدلالة علم الحياة ، فقد حببها الفطرة في الناحية النفسية أيضاً تلك الملامكات التي هي ملائمة لوظيفتها تلك ، كالحب والحنان والرحمة والشفقة ورقة القلب وذكاء الحس ولطف المواطف . ثم لانه قد وضع الرجل في الحياة الجنسية موضع ( الفعل ) ووضعت المرأة موضع ( الانفعال ) فقد رُكِّبَتْ فيها - غالباً - تلك الصفات التي تُعدها للعمل في جوانب الحياة الانفعالية . ففيها اللين والمرونة بدل الشدة والصلابة ، وفيها التأثر بدل التأثير ، والانفعال بدل الفعل ، وفيها الخضوع والمسيرة بدل الثبات والمقاومة . وفيها الفرار والامتناع والإحجام بدل الجرأة والجسارة والإقدام . وهل يكون للمخلوق المتصف بهذه الصفات أن يصلح للأعمال وينجح في دوائر الحياة التي تقتضي الشدة والتحكم وقوة المعارضة وهدوء الاعصاب ، وتحتاج إلى قوة حكم عادلة رزينة ، بدل رقة قلب وسماحة عاطفة ، وإلى عزيم متصلب ورأي غير مجامل ، بدل قلب متعطف وصدر حان . . ؟ ! الحق أن إقحام المرأة في مثل هذه الشعب للتمدن تضيق لها وتعريض لتلك الشعب نفسها للضياع .

ثم إن قيام المرأة بتلك الاعمال ليس لها فيه ارتقاء ، بل هو مظنة هبوطها وسقوطها . إذ أن ارتقاء طبقة من الناس لا يكون بأن تتمحق فيها المؤهلات الطبيعية ، وتُستعاض منها على وجه التصنع ، مؤهلات أخرى لم تؤت منها قبْل الفطرة ، بل ارتقاؤها في أن تنمي فيها المؤهلات الطبيعية وتَهذب وتَصقل ، وتتاح لها الفرص للعمل ، على أحسن وجه ممكن .

وليس المرأة في ذلك التصنع والتكلف نجاح أو فلاح ، بل هي أجدر فيه بالحيية والفشل . لأن جانباً من جانبي الحياة الانسانية يقوى فيه الرجال ويضعف النساء ، والجانب الآخر تقوى فيه النساء ويضعف الرجال فإذا أريد بالنساء ، أن يسايرن الرجال في مضمار هُنَّ فيه أضعف منهم وأعجز ، فلا بد أن يؤدي ذلك إلى تأخر النساء عن الرجال وتخلفن وراءهم لأبد الآبأد . وإنك مهما حاولت واجتهدت ، فلن تجد من صنف الاناث نابغة واحدة من أمثال أرسطو وابن سينا وكانت وهيجل وشيكسبير والحيام والإسكندرونابليون وبسارك وصلاح الدين الايوبي ونظام الملك الطوسي ، كما أنه لا يمكن لرجال هذه الدنيا أجمعين - مهما احتالوا واجتهدوا - أن يخرجوا من صنفهم أمأ واحدة من النمط البسيط .

وليس فيه منفعة للتمدن نفسه ، بل فيه له كل المصرة . لأن الحياة والحضارة الإنسانية حاجتها إلى الغلظة والشدّة والصلابة كمثل حاجتها الى الرقة واللين والمرونة ، وافتقارها إلى القوادر البارعين والساسة والاداريين الحازمين كافتقارها إلى الامهات المربيات والزوجات الوفيات والنساء الصنّاع المدبرات . فأياً واحدة من هاتين الطبقتين أسقطتها وأهملتها ، جررت على التمدن في كل حال بالغ الضرر والخسارة .

فهذه قسمة عادلة قد شاعتها الفطرة بين صنفى الانسان . ويدل على هذه القسمة ويؤيدها كل من علوم الاحياء والتشريح والنفس والعمران . وإن كون الولادة والتربية مقصورة على المرأة وحدها هو الحقيقة



الفيصل التي تخص لها دائرةً للعمل في التمدن ، وما كان لتدبير مصطنع أن يبدل قضاء الفطرة هذا وليس التمدن الصالح الا الذي يقبل -أولاً- حكم الفطرة كما هو ، ثم يضع المرأة موضعها الصحيح ، وينزلها منزلة العز والكرامة في الاجتماع ، ويقر لها حقوقها التمدنية والاقتصادية الشرعية ، ويجعل لها البيت والرجل ماوراءه ، وإياه يجعل قواماً على الاسرة . فكل تمدن يُخل بهذه القسمة الطبيعية بين الصنفين أو يحوها محواً ، قد يظهر ببعض المظاهر الخلابية من المجد والرقى المادي حيناً من الزمان ، ولكنه إلى البوار والدمار لا محالة لأن المرأة إذا كلفت القيام بالتبعات الاقتصادية والتمدنية مثل الرجل فلا بد أن تضع عن نفسها واجبات الفطرة . ومآل ذلك خراب التمدن ، بل خراب الانسانية نفسها . ثم إن المرأة إن خرجت على طبعها وفطرتها واجتهدت لأن تقوم باعمال الرجال كلها ، فإنها قد توفق فيه بعض التوفيق ولكن الرجل لا يمكنه بحال من الأحوال أن يستأهل لولادة الاولاد وحضانتهم وتربيتهم .

وإذا روعيت هذه القسمة الطبيعية بين الصنفين ، كان تنظيم الاسرة وتعيين وظائف الرجل والمرأة في الحياة على ما يأتي من الاصول لاحالة :

١ - إلى الرجل تكون عيالة الاسرة ورعايتها وحمايتها ، والقيام بما هو عسير شاق من خدمات التمدن فيكون تعليمه وتربيته على النحو الذي يجعله أنفع ما يكون لهذه المقاصد .

٣ - وإلى المرأة تكون تربية الاولاد وواجبات البيت ، والعمل على جعل الحياة المنزلية بمجوحة أمنٍ ودعةٍ وراحةٍ . فتُحلى بأحسن ما يكون من التربية والتعليم لاجل قيامها بهذه الخدمات .

٣ - ولاستبقاء نظام الاسرة ووقايته القوضى والشتات ، لا بد أن يُجعل لأحد من افراد الاسرة الحكم والأمر على سائرهم ، في ضمن حدود القانون ؛ حتى لا تطل الاسرة كقطيع من النعم بلا راعٍ . وذلك الفرد الأمر لا يمكن أن يكون من غير صنف الرجال . لان عضو الاسرة الذي تكون حالته العقلية والنفسية عرضةً للتغير ، مرةً بعد أخرى ، في أيام الحيض وفي زمان الحمل ، لا يصلح أبداً لاستعمال سلطة الحكم والامر .

٤ - يجب أن تُقرر في نظام التمدن التحفظات اللازمة لإدامة هذه القسمة والتنظيم في وظائف أفراد الاسرة ، حتى لا يستطيع السفهاء أن يخلطوا بمحافتهم بين دوائر أعمال الرجل والمرأة ، فيدخلوا القوضى على هذا النظام التمدني الصالح .

## مَظَاهِرُ التَّقْصِيرِ الْإِنْسَانِيِّ

قد اجتهدنا في الفصل السابق أن نبيّن بالتحقيق العلمي الخالص والمشاهدات والتجارب العلمية ماذا ينبغي أن تكون الأركان الرئيسية في حدود الشؤون الجنسية في نظام معتدل للتمدن قائم على مراعاة مقتضيات فطرة الإنسان ودلالات وضعه الذهني وتكوينه الخلقي . ولم يُذكر في هذا البحث شيء من قبيل التشابهات أو مما يكون لقائل فيه مقال ؛ بل كل ما قيل فيه هو من مُحْكَمَاتِ العلم والحكمة ، ومما يعرفه أولوا العلم والالباب . ولكن من عجائب المعجز الإنساني أن كل ما وضعه الإنسان نفسه من نُظُمٍ للتمدن ، لم يُراع فيه دلالات الفطرة المعلومة المعروفة هذه ، على وجه الاستقصاء والتناسب المرضي . وظاهر أن الإنسان لا يجهل مقتضيات فطرته نفسه ، ولا تغمى عليه أوضاعه الذهنية وخصائصه الجسدية . إلا أنه من الواضح البين مع ذلك ، أنه لم يُوفق إلى الآن لوضع نظام معتدل للتمدن ، مُراعياً في مبادئه ومناهجه كل تلك المقتضيات والخصائص ، وكل المصالح والمقاصد باتزان كامل .

## السبب الحقيقي لهذا التقصير

والسبب في هذا التقصير هو الذي قد أشرنا إليه في أول الكتاب .  
وذلك أن من الضعف الطبيعي في الانسان أنه إذا نظر في مسألة من  
المسائل ، فلا يستطيع أن يشمل بنظره جميع نواحيها جملة واحدة . بل  
تستهويه أبداً ناحية منها أكثر من غيرها ، وتجذبه إلى نفسها دون  
سواها . فإذا هو مال إلى جانب ، عمي عليه ما عداه من الجوانب ،  
أو أغفلها عن عمد . وهذا الضعف الانساني بادي حتى في شؤون حياته  
الجزئية والفردية ، فكيف يمكن أن تنجو من أثره مسائل التمدن  
والحضارة الواسعة العميقة ، التي كل واحدة منها ذات نواح متعددة ،  
ظاهرة وخفية . ولا ريب أن الانسان قد شرف بمواهب العقل والعلم ،  
ولكن الحق أنه لا يهديه مجرد العقل ، في عامة شؤون حياته ، بل  
تميل به عواطفه ونزعاته إلى جانب بعينه . فإذا مال إليه وآثره على غيره  
يحمد إلى العقل يستدل به ، وإلى العلم يستعينه . وهنالك إن أراه علمه  
هو جوانب المسألة الاخرى ، ونسبه عقله هو على ميلانه إلى شق دون  
آخر ، لم يذعن بخطئه ولم يمتنع بتصحيحه . بل عاد يكره العلم والعقل  
على أن يزوداه بالحجج والتأويلات لتبرير نزعته تلك .

## بضعة أمثلة بارزة

وهذا الضعف الانساني - في ميله إلى الشق الواحد - يظهر على

أتمّ إفراطه وتفريطه في المسألة الاجتماعية التي نحن بصدد البحث فيها الآن :

ففرّق مال إلى جانب الاخلاق والروحانية، وغلافه إلى أن جعل العلاقة الجنسية بين الصنفين في ذاتها شيئاً يُعاب ويُزدري . وهذا الانحراف عن القصد تجده في ديانة ( بوذا ) والنصرانية وفي بعض الديانات الهندكية . ومن تأثيره ما يُوجد في جزء كبير من هذا العالم من اعتقاد أن العلاقة الجنسية بذاتها إثم ، سواء كانت في دائرة الزواج أو خارجها . فهاذا كانت نتيجة ؟ كانت النتيجة أن جعلت حياة الرهبنة ، المنزلة غير المتمدنة ، غاية الاخلاق ومقصود التزكية النفسية ! وأضاع كثير من أفراد النوع الانساني - رجالاً ونساءً - مواهبهم العقلية وقواهم الجسدية في مجانبة الفطرة ، بل في محاربتها ونضالها . والذين استجابوا منهم لدواعي الفطرة ، ومارسوا العلاقة الجنسية فيما بينهم ، لم يفعلوها إلا " متحرّجين ، كمن يقضي لنفسه حاجةً مستقدرةً على كثره منه . ومن البديهي أن مثل هذه العلاقة لا يمكن أن تكون بين الصنفين رابطة المودة والتعاون ، ولا هي جديرة بإنشاء تمدن صالح ماض إلى الرقي . وليس هذا فقط ، بل هذا التصور الخلقي هو الذي أدّى إلى حطّ منزلة المرأة في نظام الاجتماع ، إذ جاء عشاق الرهبانية يحكمون على النزعة الجنسية بأنها وسوسة الشيطان ، وعلى محرّك هذه النزعة - وهي المرأة - بأنها حيلة إبليس . وجعلوها مخلوقاً نجساً يجب أن يحتقره كل من " يحب لنفسه التزكي والطهارة . وهذا التصور

لمنزلة المرأة هو الغالب ، في الآداب النصرانية والبوذية والهندكية .  
وتستطيع أن تُقدّر ما عسى أن يكون من مكانة المرأة في النظام الاجتماعي  
الذي يُشاد على هذا التصوّر .

وفريق ، على عكس ذلك ؛ راعي للانسان دواعيه الجسدية ،  
وغلا فيه غلوأ جملة يتعدى مقتضيات الطبع الحيواني فضلاً عن الطبع  
الانساني . وقد اتضح هذا الافراط في التمدن الغربي وضوحاً لا يمكن  
معه ستره ، مها حاول المحاولون . فالزنى ليس مجرمة في قانونه ، وإنما  
الجريمة هي ما كان معه إكراه أو تدخل في حق شرعي لشخص آخر .  
وأما إذا كان الزنى لا يقترن بأحدى هاتين الجريمتين ، فإنه ليس في  
ذاته جريمة تستوجب العقاب ، وليس حتى بهارٍ خلقي يستحق منه . ولو  
وقف التمدن الغربي عند هذا الحد ، لكان ذلك منه وقوفاً عند حدود  
الفطرة الحيوانية ، ولكنه تجاوزه إلى أن أبطل المقصد الحيواني أيضاً ،  
من العلاقة الجنسية ، وهو التناسل وبقاء النوع ، بما اتخذ هذه العلاقة  
أداة للمتعة والمزّة الجسدية . ولما بلغ الافراط بالانسان إلى هذا الحد ،  
عاد هذا المخلوق الذي خلق في أحسن تقويم مردوداً أسفل سافلين .  
فانحرف أولاً عن فطرته الانسانية ، فاسترسل في العلاقة الجنسية المطلقة  
كالتى تكون في الحيوانات ، ولا يمكن أن تكون أساساً لتمدن . ثم  
انحرف عن فطرته الحيوانية أيضاً فحال بين العلاقة ونتيجتها الطبيعية  
- وهي التوليد - حتى لا ينشأ في العالم أجيال تخلفه وتبقي من بعده نوعه .  
وقوم ثالث استشعروا بخطورة الاسرة ، فنظموها بقيود وحدود .

جملت كل فرد من أفرادها كالاسير المغلول، ولم يرعوا الموازنة بين الحقوق والواجبات . ومن أمثلة ذلك البارزة ، نظام الاسرة الهندكي ، الذي لا حرية فيه للمرأة في إرادتها أو عملها ولا حق لها في التمدن والمعاش ، وهي خادم في كل حال ، بنتاً أو زوجة أو أما ، وإذا كانت أيما فهي أحط شأنًا وأسوأ حظاً من الخادم ، وكأنها حي ميت ، عليها كل واجب وليس لها أي حق . فحاول القوم في هذا النظام الاجتماعي أن يجعلوا المرأة من بدء نشأتها نوعاً من بهيمة الانعام ، حتى لا ينشأ في نفسها الشعور بذاتها أصلاً ولا ريب أنهم أحكموا بذلك أركان الاسرة ، وأصبح نشوز المرأة معه من المستحيل ، ولكن هذا النظام بما حط وصغر من شأن النصف الكامل من جماعة الانسان ، قد أقام في سبيل نهوضه وارتقائه عقبة جسيمة ومفسدة هائلة ، عاد الهنادك بأنفسهم يحسون بسوء عواقبها ومضارها .

وجماة أخرى ، قاموا لرفع مكانة المرأة ، ومنحها الحرية في الارادة والعمل ، فتغالوا في ذلك إلى أن أفسدوا نظام الاسرة . فعادت الزوجة حرة مختارة ، والبنت مطلقة العنان والابن مخلى له في الرهان ، والمائلة كالقطيع الشارد ، لا راع يذود ولا حظيرة تؤوي ، ولا سبيل لاحد أفرادها على الآخر . فليس للزوج أن يسأل زوجته أين بانت البارحة ؟ ولا للاب أن يحاسب ابنته على القرناء الذين تحالطهم أو الامكنة التي تختلف إليها . والزوجان في حقيقة الامر شريكان سويان يؤلفان الاسرة على شروط متساوية بينها ، ومنزلة الاولاد في هذه ( الشركة ) كمنزلة

الأعضاء الصغار . وقد يبدد نظام هذه الاسرة المتألفة أدنى خلاف في الطوائف والامزجة ، خللو هذه الجماعة من عنصر الاطاعة الذي هو لازم لصون كل نظام من النشئت . وهذا هو مثل الاجتماع الغربي الحديث ، ذلك الاجتماع الذي يدعي حاملو لوائه أنهم رسل الهدى في شؤون التمدن والعمران . ولكنك إن شئت أن تكشف عما وراء (رسالتهم) هذه . فانظر في تقرير من تقارير إحدى محاكم الزواج والطلاق أو إحدى محاكم جنابات الاطفال (Juvenile Courts) في أوربة وأميركا، تنضح لك جليلة أمرهم . فهذه الارقام التي قد نشرها أخيراً مكتب الوزارة الداخلية بانكلترا تفيد أن الجرائم إلى الزيادة كل يوم في صغار الالباء والبنات . ومن أسبابها الخاصة ارتحاء النظام التأديبي في الاسرة .<sup>(١)</sup>

إن غريزة الحشمة والحياء التي ركبت في الانسان ولا سيما في فطرة المرأة ، ولم يصب في فهمها أي تمدن إنساني في القديم أو الحديث ، ولا وفق لرعاية مقتضياتها في اللباس وفي اساليب الحياة الاجتماعية . ومع أن هذا الحياء قد عد من أحسن فضائل الانسان ولا سيما المرأة ، لم يظهر قط في لباس الانسان ومظاهر اجتماعه بصورة قاعدة مطردة أو طريق عقلي . ولم يمن أحد بتعيين الحدود الصحيحة لستر العورات ولا بمراعاتها بسوية .. ولا قد حددت صور مراعاة الحياء في أزياء الذكور والانات وفي آدابهم وعاداتهم بحسب مبدأ أو ضابطة . ولم تضبط حدود الكشف

---

(١) انظر : Blue Book of Crime Statistics for 1934



والستر بين رجل ورجل - وبين امرأة وأخرى ، وبين رجل وامرأة ، على وجه معمول متناسب . وعلى قدر ما كان هذا الامر خطيراً من جهة التهذب والثقافة والاخلاق العامة ، كانوا في غفلة عنه وإهمال له فأحاطوا اجانباً منه على العرف والتقاليد ، والحال أن التقاليد تتبدل بتبدل الاوضاع الاجتماعية ووقفوا الجانب الآخر على نزعات الافراد الشخصية واختيارهم . والواقع أن الاشخاص والافراد لا يتساوون في غريزة الحياء والأدب ، ولا أوتي كل منهم من سلامة الذوق وإصابة الاختيار ما يؤهله لان يختار بنفسه طريقاً يلائم غريزته تلك . وكان من جريرة ذلك أن أصبح يوجد في لباس الجماعات المختلفة وطرق اجتماعهم خلط عجيب من الوقاحة والحياء ، يخلو من كل مناسبة عقلية ومن كل نسق واطراد ، كما يخلو من التزام أي مبدأ من مبادئ الاخلاق . أما الشرق فبقي الامر فيه مقصوراً على تنافر الازياء وعدم تناسبها ، ولكنه لما طغى هذا العنصر من الوقاحة والابتذال في أهل الغرب . نسخوا آية الحياء من أخلاقهم نسخاً وجعلوه اسماً بلا معنى . وأصبح من نظريتهم الحديثة المبتكرة ان الحياء ليس بغريزة طبيعية في الانسان ، بل هو شيء ناتج عن اعتياده التستر باللباس . وليس لستر المورثات ومراعاة الحياء من صلة بالتهذب والاخلاق أصلاً . « بل هو في الحقيقة عامل من العوامل المحركة لغريزة الشهوة في الانسان » (١) . ومن

---

(١) هذه بالحرف هي الفكرة التي عبر عنها الاستاذ ويستر مارك (Wester marck) في كتابه : « الزواج الانساني » The History of Human Marriage «

للمعاني العملية لهذه الفلسفة المأجنة ما يرى عندهم اليوم من الازياء الفاضحة ومباريات الجمال والرقص العريان، والصور المكشوفة والمرض المسرحي الفاحش . والدعوة النامية إلى التجرد : ( Nudism ) ورجمة الانسان إلى البهيمية الخالصة .

ومثل هذا الانحراف عن نقطة الاعتدال تجده أيضاً في الجوانب الاخرى لهذه المسألة :

فالذين عظموا شأن العفة والاخلاق ، ما حفظوا المرأة باعتبارها وجوداً حيوانياً ذا عقل وشعور ، بل حفظوها كحفظ الجماد من النفائس والاعلاق . فجعلوا أمر تعليمها وتربيتها وراء ظهر انبيهم ، مع أن أهميته للمرأة لا تقل عن أهميته للرجل ، لمصلحة الحضارة والتمدن. والذين اهتموا - بخلاف ذلك - بتربيتها ، أهملوا العفة والاخلاق كل الاهمال ، ومهدوا أسباب التمدن والحضارة من جهة أخرى .

وأما الذين راعوا القسمة الطبيعية في وظائف الجنسين ، فما كلفوا المرأة من واجبات التمدن والاجتماع إلا تربية الاولاد وتسيير المنزل ، وحملوا على الرجل أعباء الكسب والعمل ولكنهم ما استطاعوا التزام التوازن في هذه القسمة المادلة . فسلبوا المرأة جميع حقوقها الاقتصادية ، ولم يجعلوا لها حقاً في الميراث ، وإنما حصروا كل حقوق الملك في الرجل وحده . وبذلك جعلوا المرأة عاجزة قسيمة من الجهة

الاقتصادية، وأنزلوها من الرجل منزلة الخادم من سيدها . وقام بإزاء هذه الطائفة طائفة أخرى أرادت أن تتدارك هذا الحيف والظلم، وترد إلى المرأة حقوقها التمدنية والاقتصادية، ولكن هؤلاء وقعوا في خطأ آخر، وهو أنهم، لغلبة المادية على أذهانهم، زعموا أن إنقاذ المرأة من الاستعباد التمدني والاقتصادي، معناه أن تجعل هي أيضاً - كالرجل - عضواً كاسباً في الأسرة، وتشرك به في القيام بجميع واجبات التمدن. وكانت هذه الطريقة راتقة جذابة من الوجهة المادية، لأنها لم تخفف من أعباء الرجل وكفى بل ضاعفت أسباب المعيشة واكتساب الثروة، لاشتراك المرأة مع الرجل في الكسب، وفوق ذلك هيأت لتسيير دفعة المباشرة والعمران القومي ضمني الأيدي والأذهان العاملة، مما زاد في سير ارتقاء التمدن بفتة، وبدل مشيه خيباً. ولكن كان من العاقبة المحتومة لهذا الرجحان المفرط إلى الجانب المادي والاقتصادي أن عميت عليهم الجوانب الأخرى التي لم تكن أقل خطورة من هذا . فطووا الكشح عن كثير من النواحي عن عمد . وخالفوا قانون الفطرة عن بيئة وعلم، وهو ما يشهد به تحقيقهم هم، ثم ادعوا إلى انصاف المرأة ومنحها حقوقها الواجبة ولكنهم في الحقيقة ظلموها وجاروا عليها وهذا ما تدل عليه تجاربهم ومشاهداتهم . وأرادوا أن يساووا بينها وبين الرجل ولكنهم في الواقع أخطؤوا المساواة وفسدوا بينها الميزان، ومصدق ذلك علومهم وفنونهم أنفسهم . ونشدوا، بعد ذلك إصلاح التمدن والعمران، بيد أنهم هيؤوا في نفس الأمر أسباباً هائلة لخراجه مما تمل تفاصيله من الأحداث والأرقام التي قد سجلوها

بأنفسهم . ومن البديهي أنهم ما كانوا وليسوا يجهلون هذه الحقائق كلها . بل الامر، كما ذكرنا آنفاً ، أن من الضعف الانساني أنه إن تصدى لوضع قانون لحياته ، لا يستطيع أن يراعي جميع المصالح مراعاة معتدلة متزنة ، لانه يجرفه تيار أهوائه ورغباته إلى جانب من جوانب الافراط . وإذا هو مال إلى جانب واحد ، فكثير من الجوانب تعمى عليه ، وكثير من المصالح والحقائق يغمض هو نفسه عنها عينيه ! وليس أدل على هذا التعامي والاعغال المتعمد من شهادة أعمى من أنفسهم . فهذا العالم الطبيعي الروسي الممتاز انطون نيميلاف Anton Nemilov الذي هو شيوعي خالص . العقيدة ، يسود مثني صفحة من كتابه (The Biological Tragedy of Woman) لاثبات عدم المساواة الفطرية بين الرجل والمرأة بتجارب العلوم الطبيعية ومشاهداتها ، ثم يعقّب بنفسه على كل هذا التحقيق العلمي بقوله : « إذا قيل في هذه الايام : إن المرأة يجب أن تمتنع في دائرة التمدن حقوقاً محدودة ، لم يؤيده من الرجال إلا الأقل . ونحن بأنفسنا نحن المخالفون هذا الرأي . ولكن ينبغي ألا نخدع أنفسنا بزعم أن إقامة الرجل والمرأة في الحياة العملية أمرٌ هين ميسور . الحق أنه لم يجتهد أحد في الدنيا لتحقيق هذه المساواة بين الصنفين ، مثل ما اجتهدنا في روسيا السوفيتية ولم يوضع في العالم من القوانين السمحة البريئة من التعصب ، في هذا الباب مثل ما وضع عندنا . ولكن الحق ، مع ذلك كله ، أن منزلة المرأة

---

(١) نشرت ترجمة هذا الكتاب باللغة الانكليزية في لندن سنة ١٩٣٣ م

قلما تبدلت في الاسرة ... (الصفحة : ٧٦) ولا في الاسرة فحسب ، بل قلما تبدلت في المجتمع أيضاً . فيقول في مكان آخر :

« لا يزال تصور عدم مساواة الرجل والمرأة - ذلك التصور العميق - راسخاً ، لا في قلوب الطبقات ذات المستوى الذهني البسيط ، بل في قلوب الطبقات السوفيتية العليا أيضاً . بل النساء أنفسهن قد بلغ من تأثير هذا التصور في نفوسهن ، أنهن إذا عوملن معاملة المساواة الكاملة مع الرجال ، يعددن ذلك خطأ من مكانة أولئك ، ويجدن لهم فيه معاني التخثت . ولو أننا نتبع في هذا الامر أفكار عالم طبيعي أو مصنف أو طاب أو تاجر أو شيوعي خالص العقيدة ، لانكشف لنا عن غير بعد ، أنه لا يرى المرأة كفتأله أو ندأ يماثله ، وكذلك إن نظرنا في رواية من الروايات المصرية ، مها كان مبلغ كاتبها من حرية الفكر ، فلا بد أن تقع فيها على عبارات تنم على هذا التصور بشأن المرأة . (الصفحة ١٩٤ - ١٩٥) . وما السبب في ذلك ؟

«السبب في ذلك أن المبادئ الانقلاية تصطدم في هذا المقام بأمر واقع هام ، هو أنه لا مساواة بين الجنسين باعتبار علم الاحياء (Biology) ولم تكلفها الفطرة بأعباء سواء » (الصفحة ٧٧) . ودونك عبارة أخرى تساعدك على استنباط الحقيقة :

« الحق أن جميع العمال (Workers) قد بدت فيهم أعراض الفوضى الجنسية (Sexual Anarchy) . وهذه حالة جد خطيرة تهدد النظام

الاشتراكي بالدمار ، فيجب أن تحارب بكل ما أمكن من الطرق ، لأن  
 المحاربة في هذه الجبهة ذات مشا كل وصعوبات . ولي أن أدلكم على آلاف  
 من الأحداث ، يعلم منها أن الاباحية الجنسية ( Sexual Licentiousness )  
 قد سرت عدواها ، لافي الجبال الاغرار فحسب ، بل في الافراد المثقفين  
 من طبقة المهال أيضاً ، ( الصفحة ٢٠٢ - ٢٠٣ ) .

فانظر ما أبين شهادة هذه العبارات وما أوضحها . فهم بجانب يعترفون  
 بأن الرجل والمرأة لم تجملها الفطرة نفسها متساويين ولم تنجح المساعي  
 المبذولة لتحقيق تلك المساواة بينها في الحياة العملية ؛ وأيا قدر أقيم بينها  
 من هذه المساواة على الرغم من مقتضيات الفطرة ، كان من عواقبه أن  
 اندفع تيار الفواحش ، وأمسى نظام المجتمع بأسره في خطر منه ميب .  
 وبجانب آخر يدعون ألا تحد حقوق المرأة في النظام الاجتماعي بمحدود ،  
 وأنه إن فعل ذلك ليخالفنه . فأبي دليل أقوى من ذلك على كون  
 الانسان العارف البصير ، لا الجاهل النقي قد بلغ من اتباعه لهواه ونزاعته  
 أن يكذب تحقيقه هو ، ويجحد مشاهداته نفسه . فيغمض عينيه عن كل  
 الحقائق ويميل بهواه إلى جانب بعينه فيوغل فيه إلى نهايته ، مما كان من  
 قوة الحجج التي تقدمها علومه ، ومن عظمة الاحداث التي تسممها أذناه  
 وعبر النتائج التي تشهدا عينا . في التنديد بافراطه ذلك ، « أفرأيت  
 مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ

وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً ، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ ؟  
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ، ! ( الجاثية : ٢٣ ) .

### مبرزة الاعتدال في قانون الاسرار

وهناك في هذا العالم التائه بين الافراط والتفريط ، نظام تمدني  
وحيد ، يمتاز بغاية التوازن والاعتدال ، ويراعي كل ناحية - مهما دقت  
وصغرت - من نواحي الفطرة الانسانية ، ويستند إلى المعرفة التفصيلية  
الكاملة بتكوين الانسان وجبلته الحيوانية وطبعه الانساني وخصائصه  
النفسية ودواعيه الفطرية ، ويحقق مقصود الفطرة من خلق كل شيء من  
ذلك تحقيقاً تاماً لا يفوت حتى أهون المقاصد وأبسطها . ثم تتحد فيه هذه  
المقاصد جميعاً وتتعاون على تحقيق ذلك المقصد الرئيسي الأعلى الذي هو  
غاية حياة الانسان نفسه . ويبلغ هذا الاعتدال والاتزان والتناسب مبلغاً  
من الكمال ، ليس في وسع الانسان أن يخترعه بعقله أو جهده . أما أن  
يكون القانون من وضع الانسان ثم لا يوجد في ناحية من نواحيه ميلان  
أو رجحان ، فهذا لم يمكن قط ولن يمكن أبداً . وذلك أن الانسان العامي  
لا يستطيع حتى أن يفهم كل الفهم مصالح هذا القانون المعتدل المتزن  
الحكيم ، فضلاً عن أن يقدر على وضعه ، ما لم يكن أوتي طبعاً سليماً  
وما لم يكتسب العلوم ، ويمارس التجارب في ذلك القانون مدة من السنين ،  
ثم يظل أعواماً متوالية يفكر فيه ويتأمل . وإني لا أمدح هذا القانون

لكوني قد آمنت بالإسلام . بل الامر أني ما آمنت بهذا الدين إلا  
لأنني وجدت فيه كمال التوازن والتناسب وحسن الملاءمة لقوانين  
الفطرة ، مما قد جعل قلبي يشهد بأن واضع هذا القانون هو الذي قد  
فطر السموات والارض ، وهو عالم الغيب والشهادة . ومن الحق أن  
لا يهدي الانسانَ الثاني في مجاهل الضلال ، إلى طريق القصد والاعتدال ،  
إلا هو سبحانه . « قُلِ اللَّـهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ  
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ »  
( الزمر : ٤٦ ) ،





# نظام الاجتماع الإسلامي



## النظريات الأساسية

من مزايا الاسلام أنه لا يأتي بقانون إلا " ويُشير بنفسه إلى حكمته أيضاً . فالقانون الذي قد جاء به لضبط العلاقات بين الرجل والمرأة في الاجتماع ، قد يسن بنفسه ما وراءه من حقائق الفطرة وأصول الحكمة .

### المفهوم الأساسي للزوجة :

وأولى الحقائق التي يكشف عن وجهها الستر في هذا الصدد هي :  
« وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » . ( الذاريات : ٤٩ ) فتشير الآية إلى عموم القانون الزوجي ( Law of Sex ) وشموله ، ويطلق صانع هذا الكون فيها سرّاً صناعته ، فيقول إنه خلقَ هذا المَعْمَل الكوني على قاعدة الزوجية ، أي أن جميع آلائه وماكناته قد خلقت أزواجاً ، وكل ما بُرى من بدائع الصنع في هذه الخليقة ، هو راجع إلى تلك المزاوجة بين الأشياء .

ولتدبّر ما هي الزوجية : إن الزوجية في الحقيقة عبارة عن أن

يكون شيء متصفاً بالفعل وآخر متصفاً بالقبول والانفعال، ويكون في أحدهما التأثير وفي الآخر التأثير ، وفي هذا المقعد وفي ذلك الانفعال . وهذا الفعل والانفعال والتأثير والتأثر والمقد والانمقاد بين الشئين هو علاقة الزوجية بينهما . وهذه العلاقة هي أساس تركيب الأشياء في هذا العالم ؛ وعلى هذا التركيب يجري نظام هذا الكون . فكل شيء في هذا الكون قد خلق زوجين وصنفين في طبقته . وكل زوجين من الأزواج يرتبطان - من حيث المبدأ والأصل - بهذه العلاقة الزوجية التي يكون أحدهما فيه فاعلاً والآخر قابلاً ومنفعلاً . ولأرب أنه تختلف كيفية هذه العلاقة باختلاف طبقات المخلوقات ، فمن أنواع المزاوجة ما يوجد بين العناصر والجواهر ، ومنها ما يكون بين المركبات غير النامية ، وآخر تراه بين الاجسام النامية ، ونوع تعده في أنواع الحيوان ، وكل هذه الأنواع من المزاوجة تختلف في نوعيتها وكيفيةها ومقاصدها الفطرية ، ولكنها تتفق في أصل الزوجية وجوهرها . ولتحقيق مقصود الفطرة الرئيسي - وهو حصول التركيب وحدوث الهيئة المركبة - في كل نوع من أنواع هذا الوجود ، مهمها كانت طبقته ، لا بد أن يكون أحد زوجيه متصفاً بقوة الفعل والآخر بقوة الانفعال .

وإذ تقرر هذا المفهوم الآلية المذكورة آنفاً ، فيستنبط منه الباحث ثلاثة مبادئ أولية للقانون الزوجي :

أولها أن الدستور الذي قد خلق الله تعالى عليه الكون ، والطريق الذي جملته سبباً لسير نظامه هذا ، لا يمكن أن يكون نجساً مكروهاً ؛ بل هو - من حيث أصله وجوهره - نظيفٌ محترم . وهكذا ينبغي أن يكون . وقد يخالفه أعداء هذا النظام ويحتنبونه زاعمين إتياء شيئاً بشعاً محقوتاً ، ولكن باري هذا النظام ومالكه لم يكن يريد أن يقف دولابُه وتتمطل حركته . وإنما مشيئته أن يبقى مفعله هذا جارياً في عمله وتبقى آلاته كلها تأتي بوظائفها فيه !

والثاني أن صفتي الفعل والانفعال كليهما لازم لتسيير هذا النظام . ولوجود الفاعل والمنفعل أهمية سواء في هذا الكون . ولا فضيلة للفاعل من حيث هو فاعل ، ولا نقيصة للمنفعل في انفعاله . وكإل الفاعل أن تكون فيه قوة الفعل والصفات الفاعلية على أنهما حتى يستطيع القيام بواجب الخدمة الفعلية من الزوجية . وكإل المنفعل أن تكون فيه قوة الانفعال وكيفية على أكملها لكي يحسن القيام بالجانب القبولي والانفعالي للزوجية . وكما أنك إن أزلت جزءاً من أجزاء ما كنة صغيرة عن موضعه ، وأردت أن تستخدمه لأمرٍ آخر لم يصنع له ، ما كنت في رأي الناس ألا سفهاً أخرق ، وكنت حرياً - أولاً - بأن لا تنجح في محاولتك هذه ، وإن أبيت وجهدت في الأمر جهدك ، ما زدت على أن تكسر الماكنة كسراً ، كذلك حال ما كنة هذا الوجود الضخمة . فإن أهل السفاهة والخرق قد تمخضت منهم أنفسهم بأن يضموا الجزء الفاعل منها مكان

الجزء المنفعل ، أو يضعوا الجزء المنفعل مكان الفاعل ، ثم قد يُمنعون في حماقتهم إلى أن يقوموا يسعون لتحقيق ذلك ويؤملوا النجاح في سعيهم هذا . ولكن صانع هذه الماكينة ما كان ليفعل مثل فعلهم . وإنما شأنه أن يضع الجزء الفاعل موضع الفعل أبداً ويربّيه حسب ذلك ويضع الجزء المنفعل موضع الانفعال أبداً ويربّي فيه الملكة الانفعالية ليس غير .

والثالث أنه مما لا شك فيه ان للفعل نوعاً من الفضيلة على القبول والانفعال . ولكن ليس من معاني هذه الفضيلة ان يكون مع الفعل العزّ ومع الانفعال الدلّ . وإنما هذه الفضيلة من حيث القوة والغلبة والتأثير . فأيما شيء يفعل فعلاً في شيء آخر ، فإما يفعله لكونه غالباً عليه وأقوى منه ولائناً له قوة على التأثير فيه . والشئ الذي يقبل فعله وينفعل به ، فما علته قبوله وانفعاله إلا كونه مغلوباً وضعيفاً ومستعداً للتأثر به . وكما ان حصول الفعل يستلزم وجود الفاعل والمنفعل على السواء كذلك من اللازم ان يكون الفاعل متّصفاً بالغلبة وقوة التأثير والمنفعل بالمغلوبة والقابلية للتأثر . ذلك انه إن كان كلاهما يساوي الآخر قوة ، ولم تكن لاحدهما على الآخر غلبة ، لم يتأثر أحدهما بالآخر وانتفى حصول الفعل . فاثوب ، ان كان فيه من الصلابة والقوة ما في الابرّة ، لم يكن فعل الخياطة ؛ والأرض ، إن لم يكن فيها من اللين والدمائة ما تقبل به فعل الرّوش والحراث فيها ، لم تمكن الزراعة والبناء . ومحصل القول أن كل ما يقع في هذه الدنيا من الأفعال ، لا يمكن أن يتم أحد منها

لو لم يكن إزاء كل فاعلٍ منفعلٌ ، ولو لم تكن في المنفعل قابلية للتأثر بفعل الفاعل. لذلك من مقتضى الطبيعة في الزوج الفاعل - من الزوجين - أن تكون فيه الغلبة والشدة والتحكم ، مما يعبر عنه بالذكورة والرجولية ، لأنه لا بد له منه لأجل القيام بوظيفته من حيث هو أداة فاعلة . وعلى العكس من ذلك ، من مقتضى الطبع الانفعالي في الزوج المنفعل ان يكون فيه اللين والرفقة والنعومة والتأثر ، مما يقال له الأنوثة والطبع النسوي ، وذلك لأن هذه الصفات هي التي تمكنه من النجاح في الجانب الانفعالي من الزوجية . فالذين لا يعرفون هذا السر هم فريقان اثنان ، فريق يحسب فضيلة الفاعل الذاتية بمثابة المزم والكرامة ، فيعدّ المنفعل في ذاته ذليلاً ممتهنّاً ، وآخر يُنكر بالمرّة تلك الفضيلة المخصوصة بالفاعل ، فيريد أن يحدث في المنفعل أيضاً تلك الصفات التي يجب ان تكون في الفاعل . ولكن الصانع الحكيم الذي قد صنع الجزأين ، ينصبها في ما كتبه على نحوٍ يضمن لهما المساواة في الكرامة والمزم وفي العناية والترية ، ويضمن لهما مع ذلك ان تنشأ فيها صفتا الغالبية والمعلومية اللتان يقتضيها الطبع الفاعل والمنفعل في الزوجين ، لتتحقق غاية المزاوجة بينهما ، لا أن يكونا كحجرين متساويين في الشدة والصلابة ، قد يحتك أحدهما بالآخر ، ولكن لا يمكن ان يحصل بينهما امتزاج ، ويحدث بامتزاجها تركيب .

هذه هي المبادئ التي تستخرج من مفهوم الزوجية الابتدائي وإن مجرد كون الرجل والمرأة زوجين باعتبارهما وجوداً مادياً ، يقتضي ان تراعى

هذه المبادئ فيما بينها من الصلات . وستمعلم فيما يأتي ان القانون الاجتماعي الذي قد وضعه فاطر السماوات والارض، قد رُوِيتَ فيه هذه المبادئ الثلاثة مراعاةً كاملةً .

### الفطرة الحيوانية في الانسان ومقتضاياتها

وتعال الآن نتقدم خطوةً في البحث . إن وجود المرأة والرجل ليس وجوداً مادياً فحسب ، بل هو أيضاً وجود حيواني ، ولنتنظر ما هو مقتضى كونها زوجين بهذا الاعتبار . فيقول الخالق عز وجل : « جَعَلَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّوكُمْ فِيهِ » ( الشورى : ١١ ) ويقول : « نَسَاؤُكُمْ حَرْثُكُمْ » ( البقرة ٢٢٣ ) .

ففي الآية الاولى قد ذكر الله تعالى خلق الانسان والحيوان كليهما أزواجاً . ويُسِّن الغاية المشتركة بينهما من ذلك بقوله « يذُرُّوكُمْ فِيهِ » أي أن تجري بعلاقتها الزوجية سلسلةُ التناسل . ثم أفرَدَ النوع الإنساني عن سائر الانواع في الآية الثانية ويُسِّن ان علاقة ما بين الزوجين من هذا النوع دون سائر الانواع الحيوانية ، كالعلاقة بين الحرث والحارث . وهذه حقيقة أحيائية ( Biological Fact ) وأحسن تشبيه لصلة المرأة والرجل من وجهة نظر علم الاحياء . ويستنبط الباحث من هاتين الآيتين مبادئ ثلاثة أخرى هي :



١ - أن الله قد خلق الأزواج الانسانية كالأزواج الحيوانية ، لكي يحوي بعلاقتهم الجنسية النسل الانساني ويبقى النوع . وهذا من مقتضيات الطبع الحيواني في الإنسان ، مما يجب مراعاته . فإله تعالى لم يخلق النوع الانساني لأجل ان يتمتع بعض أفراده أنفسهم بمتاع هذه الحياة ثم يموتوا وينقرضوا ، بل هو سبحانه يريد أن يبقى هذا النوع في الارض إلى أجل مسمى وماركس الميلان الجنسي في فطرته الحيوانية إلا حفزاً لأزواجه على التواصل والتناسل ليعمروا بذلك أرض الله . فكل قانون ينزل من عند الله ليس من شأنه ان يكبت هذا الميلان الجنسي او يقضي عليه ، ولا أن يدعو إلى احتقاره واجتنابه ، بل لابد أن يكون فيه مجال لتمكين المرء من الاستجابة لحاجته الفطرية هذه .

٢ - وقد بين الله تعالى بتشبيهه للمرأة والرجل بالحرث والحارث ان العلاقة بين الزوجين الإنسانيين تختلف عن التي تكون بين الزوجين الحيوانيين . وقد ركبت أجسامها من الوجهة الحيوانية أيضاً - دع عنك الوجهة الإنسانية - تركيباً يستلزم لملاقاتها ذلك الثبات والدوام الذي يكون لعلاقة الحارث ببحوثه . فكما ان الحارث لا ينتهي عمله في الحرث بمجرد إلقاء البذر فيه ، بل يكون من واجبه بعد ذلك ان يسمده ويسقيه ويرعاه ويسهر عليه ، كذلك ليست المرأة بمزرعة يلقي فيها من يمر بها بذره كيفما اتفق ، فتنبث شجرة برة . بل هي إذا حملت ، تحتاج إلى حارثها برعايتها وكفالتها .

٣ - إن ما بين الزوجين الانسانيين من الجاذبة الجنسية ، هو باعتبار علم الأحياء (Biologically) من نفس النوع الذي يوجد في سائر أنواع الحيوان . فكل فرد من جنس واحد يميل ميلاناً حيوانياً إلى كل فرد من الجنس الآخر . وما رُكِّب في طباعهم من النزعة القوية إلى التناسل ، يجذب جميع أفراد الصنفين ، الذين يصلحون له فعلاً ، بعضهم إلى بعض . فالقانون الذي وضعه فاطر هذا الكون ما كان ليففل عن هذا الجانب الضميف من فطرة الانسان الحيوانية ، لأنه يكمن فيه ميلان شديد إلى الفوضى الجنسية ( Sexual Anarchy ) لا يمكن ضبطه وتحديدده إلا بالتدابير الخاصة من التحفظ والاحتياط . وإن انفلت هذا الميلان من القيد مرة ، فلا يمنع الانسان شيء عن تحويله إلى الحيوان بل إلى أسفل أنواعه . « لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » . ( التين : ٤ - ٦ ) .

### الفطرة الإنسانية ومقتضاها

إن الطبع الحيواني - كما أسلفنا - كالفرش والاساس في خلقه الانسان ، وعليها رُفعت قواعد إنسانيته . لذلك كان كل ما يحتاج إليه الانسان لبقاء وجوده الفردي ووجوده النوعي ، قد ركب الله في طبيعته الحيوانية التزوع اليه والرغبة فيه والاستعداد لتحصيله . وليس

من مشيئة الفطرة ألا تنقضى أية رغبة من تلك الرغبات، أو يبطل جانب من جوانب ذلك الاستعداد، لأن هذه كلها أيضاً لازمة للإنسان، وبدونها لا يمكن أن يعيش ويبقى نوعه. وإلّا تبرد الفطرة ألا ينحو الإنسان في قضاء تلك الرغبات واستخدام ذلك الاستعداد نحواً حيوانياً محضاً، بل يجب أن يكون طريقه في ذلك إنسانياً بحسب ما يقتضيه طبيعته الانساني من الأمور، وبرعاية ما جعل في نفسه طلبه من المقاصد فوق الحيوانية. ولهذا الغرض قد وضع الله تعالى حدوداً شرعية، كي تضبط أعمال الإنسان بضابطة. ثم حذر به بأنه إن تعدّى تلك الحدود، مائلاً إلى الإفراط أو التفريط، ألقى بيده إلى التهلكة. «وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ» (الطلاق: ١).

ولنتظر الآن أيّ خصائص الفطرة الإنسانية وأي مقتضياتها في الشؤون الجنسية هي التي يُشير إليها القرآن الكريم:

١ — الذي أودعته الفطرة الإنسانية من نوع العلاقة بين الجنسين، يفصله القرآن بما يأتي: «خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً» (الروم: ٣١) وبآية: «هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ» (البقرة: ١٨٧).

فآية السابقة في الصفحات الماضية، التي ذكرت كون الإنسان والحيوان معاً خلقاً أزواجاً، جعلت المقصود بخلق الزوجين بقاء النسل

وحده . فالآن قد أفرد الانسان عن الحيوان وذكر من خاصته أنه له من وراء الزوجية مقصداً أسمى وأجل؛ وهو أنه يجب ألا تكون بين زوجيه علاقة شهوة فحسب، بل تكون بينهما علاقة حُبٍّ ومودة وأنس، وعلاقة تأتلف بها القلوب وتتصل الارواح، ويكون أحدهما موضع سرٍّ للآخر وشريكه في البؤس والرخاء، ويكون بينهما من الملازمة والاتصال الابدي ما يكون بين الجسد والثوب . فهذه العلاقة بين الصنفين - كما سبق أن فصلنا فيه القول - هي الصخرة الأساسية لبناء التمدن الانساني. ثم أشير بقول ( لتسكنوا اليها ) في الآية، الى أن المرأة موضع الراحة والسكينة للرجل . وليست وظيفتها الفطرية إلا أن تهيم للرجل زاوية امن وسكون وراحة في هذه الدنيا المملوءة بالمتاعب والمشاق . وهذه الزاوية هي حياة المرأة العائلية التي قد تهاون بأمرها أهل الغرب لأجل المنافع المادية . والحال أن لهذه الشبهة من حياة المرأة من الخطورة والأهمية ما لسائر شعب التمدن والعمران . وهذه أيضاً لازمة للحياة المدنية كلزوم سائر الشعب لها .

٢ - وهذه العلاقة الجنسية لا تقتضي المودة فيما بين الزوجين فحسب، بل تقتضي مع ذلك أن تكون لكلهما صلة روحية عميقة بالولد الذي ينتج عن تلك العلاقة الودية بينهما . لذلك قد جمعت الفطرة في تكوين الانسان وفي تكوين المرأة وطريقة حملها ورضاعتها على الاخص، ما هو كفيل بأن يلاشعاب قلبها بحب الأولاد. فيقول عز من قائل «حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالَهُ فِي عَامَيْنِ» ( لقمان : ١٤ ) . ويقول في موضع آخر:

« حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا » (الاحقاف : ١٥) وكذلك حال الرجل ، وإن كان دون المرأة في حب الاولاد . « زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ » (آل عمران : ١٤) . وهذه المحبة والحنان الفطري تقيم أواصر الصهر والنسب بين أفراد الانسان ، ومن تلك الاواصر تنشأ الاسر والعائلات . ومن هذه تتألف القبائل والشعوب ومن روابط هذه الشعوب والقبائل ينتج التمدن « وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا » (الفرقان : ٥٤) « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » . (الحجرات : ١٣) .

فقرابات الرحم وأواصر الصهر والانساب هي في الحقيقة مؤسسات بدائية طبيعية للتمدن الانساني ، ويتوقف قيامها على أن يكون الاولاد من الآباء المعروفين المعلومين ، وتُحفظ الانساب من الخلط والزيف .

٣- ومن مقتضى الفطرة الانسانية أيضاً أنه إن ترك الإنسان من ورائه شيئاً كسبه بكدر عينه ومرق جبينه ، يتركه لأولاده وأقاربه الذين بقي طول حياته مرتبطاً بهم بقرابات الرحم والدم . « وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ » . (الأنفال : ٧٥) . « وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ » . (الاحزاب : ٤) . ويؤخذ من ذلك أن حفظ الانساب مما تستلزمه قسمة الميراث أيضاً .

٤ - إن غريزة الحياء في الانسان غريزة طبيعية . ففي جسده أعضاء وأجزاء قد جعله الله على الرغبة في سترها وإخفائها ، وهذه الرغبة هي التي ما زالت تحض الانسان منذ الأزل على أن يتخذ لجسده نوعاً من انواع اللباس . وفي هذا الباب يرد القرآن النظرية الجديدة ردّاً باتّاءً ، فيقول : **إِنَّ أَجْزَاءَ الْجَسَدِ الْإِنْسَانِيِّ الَّتِي قَدْ وَضَعْتَ فِيهَا الْجَاذِبِيَّةَ الْجِنْسِيَّةَ لِلرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ ، تَقْتَضِي النَّظَرَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ أَنَّ يُعْنِيَ الْمَرْءُ بَسْتَرَهَا وَيَسْتَحْيِي مِنْ كَشْفِهَا ، وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ لَا رَيْبَ يَرِيدُهُ عَلَى أَنْ يُبْرِزَهَا .** « فَوَسْوَسَ لَهَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهَا مَا وَوَرِيَ عَنْهَا مِنْ سُوءَاتِهَا ... فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ . بَدَتْ لَهَا سُوءَاتُهَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ » . ( الاعراف ٢٠ - ٢٢ ) . ثم يقول القرآن إن الله قد أنزل عليكم اللباس لتتخذوه ساتراً لأموراتكم وزينةً لأجسامكم . ولكن هذا الستر للمعورات ليس كل شيء ، بل يجب مع ذلك أن يعمُر تقوى الله قلوبكم . « قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْءَ أَنْفُسِكُمْ وَرِيشًا . وَلِبَاسُ التَّقْوَى ، ذَلِكَ خَيْرٌ » . ( الاعراف : ٢٦ ) .

هذه هي التصورات الاساسية لنظام الاجتماع الاسلامي . فاجعلها على ذكركم منك ، ثم ادرس الصورة التفصيلية للنظام الاجتماعي الذي قد أسس على هذه التصورات . وعليك في أثناء دراستك هذه ، أن تتحرى بالنظر العميق مبلغ الوحدة والتساق والمطابقة والارتباط المنطقي الذي يراعيه الاسلام في تطبيق النظريات التي يمدّها أساساً لقانونه

على تفاصيل الحياة وجزئياتها العملية . الحق أن كل ما عهدناه من القوانين التي وَضَعَهَا الإنسان ، من نَقَصِها البارز المشترك أنها إذا طُبِّقَتْ في الحياة ، لا يبقى بين نظريتها الأساسية وتفاصيلها العملية ارتباطٌ منطقي كامل . فتعارض الأصول والفروع . وتأتي الكليّات المروضة في الكتب ، مختلفاً مزاجها عن المزاج الذي يتكوّن للجزئيات المقررة للعمل والتنفيذ . وربما حلقت المقون في سماء الخيال ، فجاءت بنظرية رائدة أخاذة ، ولكنها إذا هبطت من عالم التصوّر والخيال إلى دنيا الحقيقة والعمل ، وأرادت أن تنفّذ نظريتها في الحياة ، فإنها تمحار في مسائل هذه الدنيا العملية حيرةً تُذهلها هي نفسها عن نظريتها تلك . وهذا الضعف والخلل لا يخلو منه أيّ قانون من القوانين الوضعية . فهِلُمُ الآن ، وانظُرْ بكل ما شئت لك نفسك من الدقة والتفحّص في هذا القانون الذي عرضه على العالم راعٍ أمّتي نشأ في قفار العرب ، وما استشار في وضعه مجلساً تشريعياً أو لجنة مختارة ، هل ترى فيه أثراً للتناقض ، أو عليه مسحة من عدم الارتباط المنطقي ؟ !

★ ★ ★

## الأصول والأركان

إن أم ما يواجهه من المسائل في تنظيم الاجتماع ، هو - كما أسلفنا ذكره في موضع آخر - منع الميلان الجنسي عن الفوضى والطفيان ، وضبطه بضابطة . لأنه لا يمكن بدونه تأليف نظام للتمدن . وإنت هو ألفت بدونه على فرض الحال ، فما هناك من سبيل إلى صون هذا النظام من التبعثر وصون الانسان من الانحطاط الخلقي والفكري الشديد . من أجل ذلك قد قيّد الاسلام علائق الرجل والمرأة بقيود شتى ، وضما بهذا التدبير إلى مركز واحد .

### المحرمات :

فالقانون الاسلامي يبدأ - من صنفى الذكور والاناث - بالافراد الذين هم مضطرون بطبيعة الحال إلى أن يتعاشروا في مكان واحد ، أو يرتبطوا بملاقات قريبة ، فيحرّم بعضهم على بعض جميعاً ، كالأم والولد ، والاب والابنة ، والاخ والاخت ، والعمة وابن الأخ ، والعم وابنة الأخ ، والخالة وابن الأخت ، والخال وبنت الأخت ، وزوج الأم وبنت الزوجة ،



وزوجة الأب وابن الزوج ، والحماة والصهر ، والجو والكنة ، وأخت الزوجة وزوج الأخت ( في حياة الأخت ) والأقارب الرضاعيين (سورة النساء : ٢٢ - ٢٣) . هؤلاء جميعاً قد حُرِّمَ أحدهم على الآخر ونُزِّهت علاقتهم عن النزعة الجنسية تنزيهاً لا يكاد أي فرد منهم يتصور معه أن يعيل إلى الآخر ميلاً جنسياً ، إلا أنهم إلا الاندال البهائم الذين لا تخضع بهيمتهم لأي ضابط خلقي .

### تحريم الزنا

وقد حُرِّمَ على الرجل ، بعد هذا التحديد ، جميع النساء اللاتي هُنَّ في عقد غيره من الرجال « والمُحْصَنَاتُ من النساءِ . . » (النساء : ٢٤) .

وأما مَنْ عدا هؤلاء من النساء ، فقد حُرِّمَ عليه أن يتعلَّق بهن بعلاقة جنسية مطلقة من كل قيد . « وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَةَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَاءً مَسِينًا . (الإسراء : ٣٢) !

### النظام

فهذه الحدود والقيود سدَّتْ على المرء جميع أبواب الفوضى الجنسية ، ولكنه كان من اللازم لتحقيق مطالب طبعه الحيواني ، ولإبقاء الطريق الفطري المقرر لهذا الكون ، أن يُفْتَحَ له بابٌ يَقْضِي منه حاجته الفطرية .

ففتح له ذلك الباب بصورة النكاح . وأُبيح له أن يقضي حاجته تلك ، ولكن من غير طريق الفوضى والإباحية ، وفي غير حال التستر والخفاء ، بل يفعل ذلك بإعلان منه وتصريح ، حتى يكون من المعلوم المعترف به في المجتمع أن فلاناً وفلاناً قد دخلا في عقد المباشرة واقترنا . «وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ ... فَاَنْكِحُوهُنَّ بِأَذْنِ أَهْلِهِنَّ ... مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ» (النساء : ٢٤ - ٢٥) .

فانظرُ ميزة الاسلام في تحرّتي الاعتدال ، إن العلاقة الجنسية التي كانت محرّمةً ومستنّعةً خارج دائرة النكاح عادت في دائرة الزواج مباحةً ومستحسنةً ، بل عملاً صالحاً يؤمر به ويُنكر اجتنابه . وليس هذا فحسبُ ، بل يصبح مثل هذه العلاقة بين الزوجين عبادةً . حتى إن المرأة إن صامت النافلة أو دخلت في الصلاة أو التلاوة فراراً من قضاء حاجة بملها الشرعية ، كانت آثمةً ولم تُقبل منها تلك العبادة .. ودونك بعض ما روي عن النبي ﷺ في هذا الباب : «عليكم بالباءة فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، فمن لم يستطع منكم الباءة فليبه بالصوم ، فإن الصوم له وجاء» (١) ، «والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له . لكنني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأزوّج النساء . فمن رغب عن

---

(١) الترمذي في كتاب النكاح . وفي هذا المعنى حديث في كتاب النكاح

للبخاري .

منسّقي فليس مني (١) . « لا تصوم المرأة وبعلمها شاهد ، إلاّ بإذنه (٢) .  
 وإذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها ، لعنتها الملائكة حتى ترجع (٣) .  
 وإذا رأى أحدكم امرأة فأعجبته فليأت أهلّه ، فإن معها مثل  
 الذي معها (٤) » .

وغاية الشرع من كل هذه الوصايا والاحكام أن تُسد أبواب الفوضى  
 الجنسية كلها ، وتُحصّر العلاقات الزوجية في دائرة الزواج وألا تكون  
 خارج هذه الدائرة - ما أمكن - محرّكات جنسية من أي نوع . وأما  
 الهيجان الذي ينشأ عن مقتضى الفطرة أو عن الاحداث المصادفة ، فيكون  
 لتهديته وتسكينه ملجأ يلجأ اليه وهو الزوج للزوج حتى يتمكن الانسان  
 من خدمة النظام الاجتماعي بقوة مدّخرة بمجموعة (Conserved Energy)  
 ونفس هادئة سليمة من كل المحركات المتضعة غير الطبيعية ، ويستخدم  
 عنصر الحب والزرعة الجنسية - الذي قد ركبّه الله في كل رجل وامرأة  
 لتسيير هذا النظام الكوني - لتشكيل الاسرة وإحكام أركانها . فالزواج  
 في الاسلام هو مرضي من جميع الوجوه لانه يفي بمطالب الفطرة  
 الانسانية والحيوانية كليهما ويحقق مقصود القانون الإلهي . واجتناب الزواج  
 بمقوت من جميع الاعتبارات لانه لا بد أن يضمن إحدى السبئتين :  
 إما أن يجتنب الانسان به تحقيق غاية القانون الطبيعي ، فيضيع قواه في

---

(١) البخاري : كتاب النكاح

(٢) البخاري : باب صوم المرأة باذن زوجها

(٣) البخاري : كتاب النكاح

(٤) الترمذي : باب ما جاء في الرجل يرى المرأة فتعجبه .

محاربة الفطرة أو تنقلب عليه مطالب طبعه الحيواني فتُكرهه على أن يقضي شهواته بالطرق المحرمة الخاطئة .

### تنظيم الأسرة

وبعد أن يقرر الاسلام الميلان الجنسي في الانسان وسيلة لتشكيل الأسرة وإحكامها ، يقبل على تنظيم الأسرة . ويراعي في هذا التنظيم أيضاً كل ناحية من نواحي قانون الفطرة ، التي قد مرّ ذكرها ، باتزان كامل . وإن الدرجة السامية من العدل والانصاف ، التي يلاحظها الاسلام في تعيين حقوق الرجل والمرأة قد سردت تفصيلها في كتاب لي آخر بعنوان ( حقوق الزوجين ) وبها تعلم أن الاسلام قد أقام بين الصنفين من المساواة ما كان يمكن أن يكون . ولكنه لا يرضى من مساواتها ما يخالف قانون الفطرة . فللمرأة من الحقوق مثل ما للرجل ، من حيث هي إنسان . « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ » ( البقرة : ٢٢٨ ) . ولكن الفضيلة النوعية - بمعنى القوة والتقدم ، لا بمعنى الكرامة والمز - التي هي للرجل من حيث هو زوج فاعل ، قد اعترف به الإسلام له بمقتضى الانصاف . « وَلِلرَّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ » ( البقرة : ٢٢٨ ) وكذلك بعد أن قرّر الاسلام بين الرجل والمرأة علاقة الفاضل والمفضول بحسب ناموس الفطرة ، قد نظم الأسرة على ما يأتي من القواعد :

### قوة الرجل

إن الرجل قوام على الأسرة . أي هو حاكم الأسرة وراعيها

ومراقب أخلاقها وشؤونها ، وواجب الاطاعة لجميع أفرادها إلا أن يأمر  
 بجمعية الله ورسوله . ثم هو مكلف بعبادة الاسرة وتزويدها بحاجات  
 حياتها . «الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض  
 وبما أنفقوا من أموالهم .» (النساء : ٣٤) .

«الرجل راع على أهله وهو مسئول» (١) . «فالصالحات قانتات  
 حافظات للغيب بما حفظ الله» (النساء : ٣٤) .

قال النبي ﷺ : «إذا خرجت المرأة من بيتها وزوجها كاره لئنها  
 كل ملك في السماء وكل شيء مررت عليه غير الجن والإنس حتى ترجع» (٢)  
 «واللاتي تحافون نشوزهن فعظوهن واهجروهن في المضاجع  
 واضربوهن» . فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً» (النساء : ٣٤)  
 وقال النبي ﷺ : «لا طاعة لمن لم يطع الله» (٣) «ولا طاعة في  
 معصية الله» (٤) «أما الطاعة بالمعروف» (٥) «ووصينا الإنسان  
 بوالديه حسناً . وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا  
 تطعهما» . (العنكبوت : ٨)

وهكذا نظمت الأسرة على أن يكون لها راع وصاحب أمر مطاع .

(١) البخاري : ( باب قوا أنفسكم وأهليكم فاراً ) من ( كتاب النكاح )

(٢) كشف الغمة

(٣) رواه أحمد من حديث معاذ .

(٤) رواه أحمد من حديث عمران بن حصين .

(٥) البخاري : كتاب الاحكام .

ومن حاول أن يُخلِّب بتنظيم الأسرة هذا فيتوَعَّدُه النبي ﷺ بقوله :  
 « من أفسد امرأة على زوجها فليس منّا » (١) .

## دائرة عمل المرأة

وقد جُمِلت المرأة في هذا التنظيم ربة البيت . وإذا كان على زوجها كسب الاموال فعلها إنفاق تلك الاموال لتدبير شؤون المنزل « المرأة راعية على بيت زوجها وهي مسئولة » (٢) . وقد وُضِعَ عنها جميع الواجبات التي تتعلق بخارج البيت . فلا تجب عليها - مثلاً - صلاة الجمعة (٣) . ولا يجب عليها الجهاد ، وإن كان يجوز لها أن تخرج لخدمة المجاهدين في ميدان الحرب ، إذا اقتضت الضرورة ، كما سنذكره فيما يأتي بشيء من التحقيق . وأيضاً لا يجب عليها تشجيع الجنائز ، بل هي قد نهيت عنه (٤) ولم تفرض عليها صلاة الجماعة ولا حضور المساجد . ولئن كان قد رُخِّص لها في حضور المساجد ببعض القيود ، فإنه لم يُستحسن منها قط . (٥) ثم لم يؤذن لها بالسفر إلا « مع أحد محارمها » (٦) .

---

(١) كشف الغمة للشعراني .

(٢) البخاري : باب قوا أنفسكم وأهليكم نارا .

(٣) انظر سنن أبي داود باب الجمعة للمملوك والمرأة .

(٤) البخاري : باب اتباع النساء للجنائز

(٥) أبو داود : باب ما جاء في خروج النساء إلى المساجد

(٦) الترمذي : باب ما جاء في كراهية أن تسافر المرأة وحدها . وأبو داود :

باب في المرأة تحج بغير محرم .

صفوة القول أن خروج المرأة من البيت لم يُحمد في حال من الاحوال . وخير الهدني لها في الاسلام أن تلتزم بيتها، كما تدلّ عليه آية : « وَقرن في بيوتكن » ، دلالة واضحة<sup>(١)</sup> . ولكنه لم يشدد الاسلام في هذا الباب تشديداً لكون خروج المرأة من بيتها

(١) قد ذهب بعض الناس الى ان هذا الامر خاص لأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، لابتداء الآية بخطاب : يا نساء النبي ! ولكننا نسأل : أي وصية من الوصايا الواردة في هذه الآية مخصوصة بأمهات المؤمنين دون سائر النساء؟ فقد قيل فيها : « إن اتقن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض . وقلن قولاً معروفاً . وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى . وأقسن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله . إنا يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » (الاحزاب ٣٢ - ٣٣) فتأمل كل هذه الوصايا والأوامر ، وقل لي : أي أمر منها لا يتصل بعامة النساء المسلمات ؟ وهل النساء المسلمات لا يجب عليهن أن يتقن ؟ أو قد أيسر لهن أن يخضعن بالقول ويكلمن الرجال كلاماً يفرهم ويشوقهم ؟ أو يجوز لهن أن تبرجن تبرج الجاهلية ؟ ثم هل ينبغي لهن أن يتركن الصلاة والزكاة ويعرضن عن طاعة الله ورسوله؟ وهل يريد الله أن يتركهن في الرجس وإذا كانت كل هذه الاوامر والارشادات عامة لجميع المسلمات، فما المبرر لتخصيص كلمة « وقرن في بيوتكن » وحدها بأزواج النبي صلى الله عليه وسلم .

إن مصدر الفهم الخاطيء في الحقيقة هو مبتدأ الآية : « يا نساء النبي لستن كأحد من النساء » . ولكن هذا الاسلوب لا يختلف - مثلاً - عن قولك لولد نجيب : يا بني لست كأحد من عامة الاولاد حتى تطوف في الشوارع وتأني بما لا يليق من الحركات فعليك بالادب واللياقة . فقولك هذا لا يعني أن سائر الاولاد يحمد فيهم طواف الشوارع وإتيان الحركات السيئة ، ولا يطلب منهم الادب واللياقة . بل المراد بمثل قولك هذا تحديد معيار لمحاسن الاخلاق وفضائلها ، لكي يصبوا اليها كل ولد يريد أن يعيش =

قد يكون من اللازم في بعض الاحوال ، كأن لا يكون لها قيم من الرجال أو تضطر إلى العمل خارج البيت لخاصة قيم الاسرة أو ضالة معاشه أو مرضه أو عجزه أو سبب آخر من هذا القبيل . فكل هذه الاوضاع والاحوال قد جعل لها في القانون مندوحة ومتسع . وجاء في الحديث : « قد أذن الله لكن أن تخرجن لحوائجكن »<sup>(١)</sup> ولكن مثل هذا الاذن قد منحتة المرأة مراعاةً للاحوال والضرورات فحسب ، لا يفتّر شيئاً من القاعدة الرئيسية في نظام الاجتماع الاسلامي ، وهي أن دائرة عمل المرأة هي البيت . وليس الاذن بخروجهن منه إلا " رخصة " وتيسيراً ، فيجب ألا يحمل على غير معانيه ومقاصده .

---

= كنباء الاولاد ، فيسمى في بلوغه . وقد اختار القرآن هذه الطريقة لتوجيه النساء لأن نساء العرب في الجاهلية كن على مثل الحرية التي توجد في نساء القرب في هذا الزمان . وكان العمل جارياً على تعويدهن الحضارة الاسلامية بشيء من التدريب ، وتعليمهن حدود الاخلاق وقيود الضابط الاجتماعي على يد النبي صلى الله عليه وسلم . ففي تلك الاحوال عني الاسلام بضبط حياة أمهات المؤمنين بضابطة على وجه خاص ، حتى يكن أسوة لسائر النساء وتتبع طريقتهن وعاداتهن في بيوت عامة المسلمين .

هذا الرأي نفسه قد أبداه العلامة أبو بكر الجصاص في كتابه « أحكام القرآن » فيكتب : « وهذا الحسم وإن نزل خاصاً في النبي صلى الله عليه وسلم وأزواجه ، فالمعنى عام فيه وفي غيره . إذ كنا مأمورين باتباعه والافتداء به ، إلا ما خصه الله به دون أمته » ( الجزء الثالث : الصفحة ٤٥٥ ) .

(١) البخاري : باب خروج النساء لحوائجهن . وفي هذا المعنى حديث في المسلم باب إباحة الخروج للنساء لقضاء حاجة الانسان .



## القبور المأزومة

وقد مُنحت المرأة البالغة كثيراً من الحرية في شؤونها الشخصية . ولكنها لم تُمنح حرية الإرادة والاختيار مثل ما أعطيه الرجل البالغ . فللرجل - مثلاً - أن يخرج في السفر إلى حيث يشاء وأدنى يشاء . ولكن المرأة - بكر أو كانت أم متزوجة أم أرملة - يجب أن يصاحبها في السفر محرم . ولا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسفرةً يكون ثلاثة أيام فصاعداً إلا "ومعها أبوها أو أخوها أو زوجها أو ابنها أو ذو حرمة منها" . وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « لا تسافر المرأة مسيرة يوم وليلة إلا "ومعها محرم" » (١) . وعن أبي هريرة أيضاً أنه ﷺ قال : « لا يحل لامرأة مسلمة تسافر مسيرة ليلة إلا ومعها رجل ذو حرمة منها » (٢)

أما الاختلاف في تعيين مقدار السفر في هذه الروايات ، فيدل على أن الأهمية ليست لمدة اليوم أو اليومين ، بل الأهمية كلها لثلاث ليالٍ يُباح للمرأة من حرية التنقل والسفر ما يؤدّي إلى الفتنة . لذلك ما اهتم النبي ﷺ بتعيين مقدار لهذا السفر بل قال فيه أقوالاً مختلفة مراعاة الوقت والمناسبة في مختلف أحوال السائلين .

والمرء له كل الحرية في أمر نكاحه . فله أن ينكح ما طاب له من

---

(١) الترمذي : باب ما جاء في كراهية أن تسافر المرأة وحدها .

(٢) أبو داود : باب في المرأة تحج بغير محرم .

المسلمات أو من نساء أهل الكتاب . وله أيضاً أن يتمتع بأمته . ولكن المرأة لم يجعل لها كل هذه الحرية والاختيار . فلا يجوز لها أن تنكح رجلاً من غير المسلمين . « لَاهُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ » . (المتنحة: ١٠) وكذلك لا يجوز لها التمتع بعبيدها . ولم يرخص لها القرآن من التمتع بملك اليمين مثل ما رخصه الرجل . وحدث في زمان عمر رضي الله عنه أن امرأة أخطأت تأويل الآية « مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » ، فتمتعت بعبيدها . فلما بلغ ذلك عمر ، عرض الأمر على مجلس شوراه من الصحابة ، فأجمعوا على الإفتاء عليها بقولهم : « قَبَحَها الله تَأْوَلَتْ كِتَابَ الله غير تأويله » وامرأة أخرى استأذنت عمر في مثل ذلك ، فسدد عقوبتها وقال : « لن يزال العرب بغير ما منعت نساؤها (١) » .

وأما إذا استئني الكافر والعبد ، فالمرأة لها الحرية في انتخاب زوجها من أحرار المسلمين . ولكنه يجب عليها في هذا الأمر أيضاً أن تراعي رأي أبيها وجدّها وأخيها وسائر أوليائها . ولا ريب أنه ليس الأولياء أن ينكحوها أحداً بغير رضاها لقول النبي ﷺ : « الْأَيْمُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا » . ولا تُنكح البكر حتى تستأذن . ولكنه لا يليق بالمرأة كذلك أن تنكح من تشاء من الرجال بغير رضا الرجال المسؤولين من أسرتهما . لأجل هذا قد استعمل القرآن الباب الثلاثي من فعل نَكَحَ ينكح كلما تكلم عن الرجال فقال : « وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرَكَاتِ » (البقرة: ٢٢١)

---

(١) كشف الغمة للفرافني

« فَاَنْكِحُوهُنَّ بِاِذْنِ اَهْلِهِنَّ » (النساء : ٢٥) ولكنه استعمل باب  
 الافعال من هذا الفعل متى كان الكلام في النساء فقال : « وَأَنْكِحُوا  
 الْاَيَامَى مِنْكُمْ » (النور : ٣٣) « وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى  
 يُؤْمِنُوا » (البقرة : ٢٢١).

ومعنى ذلك أنه كما أن المرأة المتزوجة تابعة لبعْلِها ، كذلك البكر  
 تابعة للرجال المسؤولين من أسرتها. وليست هذه التبعية معناها عدم الخيرة  
 لها في شأنها . بل المراد بها أنه لا كان الرجل هو المسؤول عن حفظ  
 النظام الاجتماعي من الفوضى والاختلال وصيانة أخلاق الأسرة وشؤونها  
 عن الفتن الداخلية والخارجية ، فقد فُرض على المرأة - حفظاً لهذا  
 النظام - أن تطيع الرجل الذي هو مسؤول عنها، سواء كان ذلك الرجل  
 بعْلِها أو أباهَا أو أخَاهَا .

### حقوق المرأة

وكذلك حينما سلّم الاسلام بقول : « بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى  
 بَعْضٍ » حقيقةً طبيعِيَّةً ، فقد قرأ معه على وجه الصحة واليقين أن  
 للرجال عليهن درجة. فهو يعترف بالفرق الذي يوجد بين المرأة والرجل  
 بدلالة علم الاحياء وعلم النفس ، ويراعيه ويبقى عليه بمقداره الصحيح ،  
 ثم يحدد وظائف الصنفين ودرجاتهما بحسب نوعية ذلك الفرق وكيفيته.

وتأتي بعد ذلك مسألة هامة هي تقرير حقوق المرأة . والاسلام قد لاحظ في تقرير هذه الحقوق أموراً ثلاثة :

أولها منع الرجل أن يُسيء استعمال ماخوذ من صلاحيات الحكم والامر على الاسرة لاجل حفظ نظامها فحسب فيتخذها أداة لظلم المرأة ، حتى تعود علاقة التابع والمتبوع بين المرأة والرجل كملاقة الخادم والمالك فعلاً .

والثاني أنه يجب أن يتاح للمرأة كل الفرص التي تستطيع بها أن تنمي كفاءتها ومواهبها الفطرية ، في حدود النظام الاجتماعي ، بأكثر ما أمكنها ، وتقوم بنصيبتها من العمل لتعمير التمدن على أحسن وجه ممكن .

والثالث أنه يجب أن يكون من الممكن الميسور لها أن تبلغ أعلى مدارج النجاح والرفق ، ويجب مع ذلك أن يكون كل رقيها ونجاحها من حيث هي امرأة ، إذ ليست محاكاتها للرجال من حقوقها الواجبة . وليس مما ينفع التمدن أو المرأة نفسها أن تها وتعد لتحياء الرجال ، ولا هي تستطيع أن تنتج في ذلك النمط من الحياة .

فالذي قد منح الاسلام المرأة من الحقوق التمدنية والاقتصادية الواسعة مراعيًا هذه الامور الثلاثة مراعاةً تامة وما خولها من درجات العز والكرامة العالية ، ثم ما هيأ لها في أحكامه الخلقية والقانونية من الضمانات

الثابتة الدائمة لحفظ هذه الحقوق والدرجات ، لاشك انه لا يوجد لكل ذلك نظير في أي نظام اجتماعي قديم أو جديد في العالم .

### الحقوق الاقتصادية

إن أهم وألزم ما يتحقق به منزلة الانسان في التمدن ، وما يحفظ به الانسان منزلته تلك ، هو استحكام حالته الاقتصادية والحق أن جميع القوانين في هذا العالم - ما خلا الإسلام - قد اضمفت المرأة من الجهة الاقتصادية . وقد كان هذا العجز الاقتصادي في المرأة أكبر أسباب عبوديتها . وأرادت أوروبا في العهد القريب أن تبديل هذه الحالة ، ولكن بأن تجعل المرأة عضواً كاسباً في المجتمع . فأدى الامر إلى مفسدة أخرى أكبر من الاولى ، أما الاسلام فقد اتخذ بينها طريقاً وسطاً . وذلك أنه خول المرأة حقوقاً واسعة في الميراث . فهي ترث أباهاً وزوجها وأولادها . وغيرهم من أقاربها <sup>(١)</sup> ثم جعل لها أن تأخذ من زوجها المهر . وكل ما يجتمع لديها من هذه الوسائل من الاموال ، قد منحها فيها كل حقوق الملكية والقبض والصرف . ولم يُجز لأبيها أو زوجها أو أحد آخر أن

---

(١) قد جعل للمرأة في الميراث نصف حظ الرجل . والسبب فيه أن للمرأة حقوق النفقة والمهر التي ليست للرجل . ولا تجب نفقتها على زوجها فحسب ، بل تجب كفالتها على أبيها أو أخيها أو ابنها أو ولي لها آخر إذا كانت بكرأ أو أماً فلما كانت المرأة براء من تلك التبعات التي قد كلف بها الرجل ، فمن الانصاف أن لا يكون لها في الميراث مثل نصيب الرجل .

يتدخل في شيء منها . وفوق ذلك أنها إن كسبت ثروة بثمير أموالها بالتجارة أو بمجدها وعملها الشخصي ، فهي مالكة لها أيضاً من كل الوجوه ومع هذا كله يجب على زوجها أن يؤدي إليها نفقتها في كل حال . . ومهما كانت الزوجة عليه من الغنى والثروة ، فإن ذلك لا يبرئ زوجها من أداء نفقتها . وهكذا قد أحكمت في الاسلام حالة المرأة الاقتصادية إحصائياً ربما تكون به أصلح حالا من الرجل .

### الحقوق التمهيدية

١ - قد جعل للمرأة كل الحق لانتخاب زوجها ، ولا يجوز لأحد أن ينكحها بغير رضاها أو بدون إذنها . وإن هي نكحت مسلماً حراً بطيب خاطرها . فليس لأحد أن يمنعها من ذلك اللهم إلا أن تختار لنفسها رجلاً من طبقة لا تُسكافيء أسرتها في المكانة الاجتماعية ، فيحق لوليائها عندئذ أن يمترضوا على اختيارها .

٢ - وقد خولت المرأة حقوقاً واسعة في طلب الخلع والفسخ والتفريق بإزاء زوجها إن كان بغيضاً أو ظالماً أو عتيماً .

٣ - وقد أوصي الرجل بالتزام الساحة والمعاملة الحسنة ، في استعماله السلطة التي قد جعلها الاسلام له على المرأة . فيقول الله تعالى : «وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ» (النساء : ١٩) «وَلَا تَنَسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ» (البقرة : ٢٣٧) . ومن أقوال النبي ﷺ : «خيركم خيركم لنسائه وأطفالكم بأهله» ، وليس ما قيل في هذا الصدد هو من باب الوصايا

الاخلاقية فحسب بل الأمر أن الرجل إن ظلم وجار في استعمال تلك السلطة ، كان للمرأة أن تستعين عليه بالقانون .

٤ - قد جعل للأرملة والمطلقة والتي فُسخ نكاحها بالقانون أو فرّق بينها وبين زوجها ، حق النكاح الثاني بلا قيد أو شرط وقد صرح بأنه لا يبق عليها زوجها السابق أو لأحد من أقاربها من سبيل ، بعد ذلك . وهذا من الحقوق التي لم تعطها المرأة حتى في أكثر ممالك أوربة وأميركا إلى يومنا هذا .

٥ - قد اقيمت المساواة الكاملة بين الرجل والمرأة في القوانين المدنية والجنائية . ولا يفرق القانون الاسلامي بينها في حفظ النفس والاموال والاعراض .

### تعليم المرأة

إن الاسلام لم يكتف بان أجاز تعليم المرأة العلوم الدينية والمدنية ، بل هو قد حدث عليها وجعل تعليمها وتربيتها لازماً كلزومه للرجال . فكانت النساء على عهد النبي ﷺ يتعلمن منه الدين والاخلاق كالرجال وكان النبي قد جعلهن موعداً كن يحضرنه فيه للتعلم . ثم كانت أزواجه المطهرات ولا سيما عائشة رضي الله عنها معلمات يأخذ عنهن الرجال كما تأخذ عنهن النساء . وكان كبار الصحابة والتابعين يتلقون عنهن الحديث والتفسير والفقه ولم يقف هذا الامر على الاحرار والاشراف وحدهم ، بل كان

النبي ﷺ أمر حتى بالإماء أن يُعلِّمن . فمن حديثه : أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران ، (١)

ويتضح من ذلك أن التعليم والتربية في ذاته لم يميّز فيه الاسلام بين الرجل والمرأة ، ولكنه لا ريب يفرق بينهما من حيث نوعيته . فأصبح التعليم والتربية للمرأة من وجهة نظر الاسلام هو الذي يجعلها زوجة مثالية وأمّاً رؤوفاً وربة بيت مدبرة وإذا كان مجال نشاط المرأة هو البيت ، فيجب أن تُعلم المرأة على وجه خاص ، تلك العلوم التي تجعلها نافعة إلى أبعد حد ممكن في هذا المجال . وتلزم لها ، بعد ذلك ، تلك العلوم التي تعلم المرأة الإنسانية وتهذب من اخلاقه وتوسع من أفق نظره . فمن الواجب على كل مسلمة أن تتحلى بهذه العلوم وهذه التربية . ثم إذا كانت امرأة قد آتاه الله - بعد ذلك - عقلاً خصباً وفكرًا غير عادي ، فصبّت بنفسها إلى أن تتعلم ما عدا ذلك من العلوم والفنون ، فالاسلام لا يعترض سبيلها دونه مادامت لا تتعدى الحدود التي وضعا الشرع لبنات جنسها .

### تحرير المرأة بالمعنى الصحيح (Emancipation)

هذا ما يتعلق بحقوق المرأة فحسب . ولكنه لا يقدر منه ذلك الاحسان العظيم الذي قد أولاه الاسلام المرأة . فهذا تاريخ الاجتماع الانساني شاهد كله بأن وجود المرأة في هذه الدنيا كان عنوان الذلة والخزي والإثم . فكان من العار والهجنة للأب أن تولد له بنت . وكانت قرابات الختن تُعد

---

(١) البخاري : كتاب النكاح



من القرايات الساقطة الرذلة. وفي لغتنا الاردية لا تزال كلتا (الجو) و(الخن) تستعملان إلى هذا اليوم بمعاني الشتم والسب، تبعاً لذلك التصور الجاهلي. وكثير من الامم راج فيها وأد البنات تفادياً من هذا العار<sup>(١)</sup>. وقد ظل العلماء وزعماء الديانات - دع الجهلاء - يبحثون ويتناقشون ، على طول القرون ، في أن المرأة هل هي إنسان أو غير انسان ؟ وهل قد حباها الله روحاً أم لا ؟ وكانت الديانة الهندكية قد سدت أبواب تعليم (الويد) على المرأة . والديانة البوذية لم يكن فيها سبيل للنجاة لمن اتصل بامرأة . وأما النصرانية واليهودية ، فكانت المرأة هي مصدر الاثم ومرجعه فيها . وكذلك اليونان لم يكن لذات الخدر عندهم علم ولا حضارة ولا ثقافة ولا حقوق مدنية . وكانت المرأة التي تتمتع بكل ذلك في المجتمع هي المومسة ليس غير . وعلى مثله كانت الحال في الروم وفارس والصين ومصر . وما عداها من مراكز الحضارة الانسانية . فكانت العبودية والحكومية . والمقت العام الذي كان قد لازم المرأة على طول القرون ، قد محا من نفسها الشعور بالكرامة وعز النفس . فكانت هي بنفسها قد نسبت ان لها في الدنيا حقاً تستحقه أو مكانة اجتماعية لها أن تتمتع بها . بل كان الرجل يعد من حقه أن يظلم المرأة وهي تمد من واجبها أن تصبر على ظلمه . وكان قد ركز في نفسها من شعور العبودية ما يجعلها تفتخر بأن تدعو نفسها (داسي)

---

(١) يذكر القرآن هذه العقيلة الجاهلية بأسلوبه البليغ : « وإذا بشر احدكم بالاشئ ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به . أيمسكه على هون أم يدسه في التراب » (النحل : ٥٨ - ٥٩)

أي أمة لزوجها ، وتؤمن ؛ (بتي ورتا) أي اتخذ المرأة زوجها ، معبوداً لها وإلهاً (١) .

فالذي جاء وأحدث في هذه الاوضاع انقلاباً عظيماً ، لا من الجهة القانونية والعملية فحسب ، بل من الجهة الفكرية أيضاً ، هو الدين الاسلامي الخفيف . فهو الذي أصلح من عقلية الصنفين - الرجل والمرأة كليهما . ثم هو الذي بث في الذهن الانساني تصور عزّ المرأة وكرامتها وحقوقها . فكل ما تسمع به اليوم من كلمات : حقوق المرأة وتعليم الاناث ونهضة النساء ، هو دوي لصدى الاسلام الانقلابي الذي صدع به النبي محمد ﷺ ، والذي بدّل من مجرى الفكر الانساني للأبد . فهذا النبي هو الذي علّم الدنيا أن المرأة انسان كالرجل . « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا » (النساء : ١) وأنه لا فرق بين المرأة والرجل عند الله تعالى « لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ » (النساء : ٣٢) وأن درجات الارتقاء الروحي التي يستطيع أن يالها الرجل بالايان والعمل الصالح ، هي ميسورة للمرأة أيضاً . وإذا كان الرجل يستطيع أن يرتقي إلى مقام ( ابراهيم بن آدم ) ، فلا شيء يمنع المرأة أيضاً من أن تبلغ في الكمال الروحي مبلغ ( الراحمة البصرية ) « فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى . بِعَمَلِكُمْ مِنْ بَعْضٍ » .

---

(١) تصوران من تصورات المجتمع الهندي . والمصطلحان معروفان فيه الى اليوم .

(آل عمران : ١٩٥) . « وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْشَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا » (النساء : ١٢٤) .

ثم إن محمداً ﷺ هو الذي نبّه الرجل ، وفي الوقت نفسه أشعر المرأة بأن المرأة على الرجل مثلما للرجل على المرأة . « وَلَهْنٌ مِثْلُ الَّذِي عَلَسْنِ » ( البقرة : ٢٢٨ ) وهو الذي أنهض المرأة من قرار الذلة والعار ورفعها إلى مقام العز . وهو الذي آذن الوالد بأن وجود الابنة في بيتك ليس بعارٍ أو مخزاةٍ لك ، بل أنت إذا ربيتها وعرفت لها حقها ، استحققت الجنة . فقال ﷺ : « من عال جاريتين حتى تبلغن ، جاء يوم القيامة أنا وهو ، وضم أصابعه » (١) و « من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن ، كنّ له ستراً من النار » (٢) . وكذلك هو الذي علّم الزوج أن الزوجة الصالحة أكبر نعم الله عليك في هذه الدنيا . « خير متاع الدنيا المرأة الصالحة » (٣) « حبّب إليّ من الدنيا النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » (٤) « ليس من متاع الدنيا شيء أفضل من المرأة الصالحة » (٥) . ثم هو الذي وصّى الابن بأن أحق خلق الله بإكرامه

(١) مسلم : كتاب البر والصلة والآداب

(٢) مسلم : كتاب البر أيضاً

(٣) النسائي : كتاب النكاح

(٤) النسائي : كتاب عشرة النساء

(٥) ابن ماجه : كتاب النكاح

وتمظيمه وحسن معاملته بمد الله والرسول هو أمه . « سأل رجل :  
يا رسول الله من أحق بحسن صحابي ؟ قال أمك . قال ثم من ؟ قال :  
أمك . قال ثم من قال : أمك . قال : ثم من ؟ قال : أبوك ، <sup>(١)</sup> « إن  
الله حرم عليكم عقوق الامهات ، <sup>(٢)</sup> .

وأيضاً هذا النبي ﷺ هو الذي بين للانسان ان شدة العواطف  
ورقة الاحساس والنزوع إلى التطرف ، كل ذلك من فطرة المرأة التي قد  
فطرها الله عليها . وليس ذلك بعارض للأثوثة بل هو ميزتها وجمالها . وكل  
ما يمكن أن تصيبه منها من نفع . فلست بمصيبه إلا بأن تدعها على فطرتها  
تلك . وإذا حاولت أن تجعلها صلبة مستقيمة كالرجل كسرتها . « المرأة  
كالضلع إن أقمته كسرتها . وإن استمتعت بها ، استمتعت بها وفيها عوج » <sup>(٣)</sup> .

وكذلك فإن محمداً ﷺ هو المصلح الاول - وفي الحقيقة المصلح  
الآخر - الذي بدل من عقلية الرجل ، بل من عقلية المرأة نفسها ، بالنسبة  
للمرأة . وبمث فيهم مكان عقليتهم الجاهلية عقلية معتدلة صحيحة ،  
لا تصدر عن العواطف ، بل تقوم على العلم والعقل المحض . ثم إنه ﷺ  
لم يكتف بالأصلاح الداخلي بل مهد الاسباب للمحافظة على حقوق المرأة ،  
ومنع عدوان الرجال عليهن بقوة القانون . وأحدث فيهن من الوعي  
ما يعرفن به حقوقهن الشرعية ويستعن بالقانون على الحفاظ عليها .

(١) البخاري : كتاب الادب

(٢) البخاري : كتاب الادب

(٣) البخاري : باب مداراة النساء

وفي ذات النبي ﷺ كانت النساء قد وجدن لآنفسهن نصيراً مشفقاً  
وملجأً كن يشكين إليه أدنى اعتداء الرجال عليهن بلا حرج .  
وكان أزواجهن يحذرون أن ييدر منهم اليهن ما يشكينه إلى النبي ، وقد  
روى عن ابن عمر رضي الله عنه قال : « كنا نتقي الكلام والانبساط  
إلى نسائنا على عهد النبي ﷺ هية أن ينزل فينا شيء » . فلما توفي النبي ﷺ  
تكلمنا وانبطنا » (١) .

وقد ورد في سنن ابن ماجه أن كان النبي ﷺ قد أمر أن لا تضربوا  
إماء الله . فجاء عمر إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله : قد ذرت  
النساء على أزواجهن . فرخص النبي في ضربهن وكان الرجال ظالماً كظموا  
الغيظ في أنفسهم ، فضربت ذلك اليوم سبعون امرأة في بيوتهن . فلما  
كان الغد ازدحمت النساء على باب النبي ﷺ ، فدعا الناس فخطب : « لقد  
طاف الليلة بآل محمد سبعون امرأة ، كل امرأة تشتكي زوجها ، فلا  
تجدون أوائك خياركم » (٢) .

هذا الإصلاح الخلقي والقانوني هو الذي نالت المرأة بفضلها في المجتمع  
الاسلامي مكانة سامية تخلو من نظيرها كل مجتمع آخر في هذا العالم .  
فالمرأة المسلمة ميسور لها أن تسمو في النواحي المادية والعقلية والروحية  
إلى أعلى مدارج العز والرقى ، التي يستطيع أن يبلغها الرجل ، في الدين

(١) أنبخاري : باب الوصاة بالنساء

(٢) ابو داود وابن ماجه والدارمي

والدنيا . وليس كونها امرأة ليحول بينها وبين تبوئها أي مرتبة من مراتب الشرف . وإن الدنيا تتخلف وراء الاسلام في هذا الامر ، حتى في هذا القرن العشرين . ولم يرتق الفكر الانساني بعد إلى ما ارتقى اليه الاسلام ، فكل ما قد أعطاه الغرب المرأة لم يعطه إياه من حيث هي امرأة ، بل كل ذلك بعد أن جردها من الطبع الانثوي ، وصيرها رجلاً أو شبه رجل . أما المرأة بذاتها ، فلا تزال في عينه خلقاً مهيناً في الحقيقة ، شأنها في عصور الجاهلية الاولى . فليس لربة البيت وزوجة الرجل وأم الاولاد وبكلمة أخرى ليس للمرأة الباقية على طبيعتها وحقيقتها من عز أو شرف عنده حتى في هذا الزمان . وإنما الشرف والكرامة كلها لذلك ( الرجل ) المؤنث الذي يكون في بنية جسده امرأة وفي وضعية عقله وفكره رجلاً ، ويعمل للتمدن والاجتماع عمل الرجال . فبديهي أنه ليس ذلك منهم تكريماً للأنوثة ، بل هو تكريم للرجولة . ومن البرهان الواضح على شعور المرأة النفسي في الغرب بنقصها وتخلفها ( Inferiority Complex ) أنها تلبس لباس الرجال بكل فخر على حين لا يخطر ببال أحد من الرجال أن يخرج من بيته في لباس المرأة . ومن السبب والعار عند ملايين النساء أن تكون إحداهن زوجة ، بينما لا ينجل رجل من كونه زوجاً ، وأن النساء يعتزون بممارسة أعمال الرجال ، ولا يعتز أحد من الرجال بأعمال نسوية خالصة كتدبير المنزل وتربية الاطفال . لذلك من الحق الذي لا يمكن أن يُردّ أو يكابر فيه أن الغرب لم يكرم المرأة من حيث هي امرأة .

وليس غير الاسلام هو الذي قد أكرمها وعظم شأنها واضعاً إياها موضعها الفطري ، ورفع بذلك مقام الأنوثة بالمعنى الصحيح . فالتمدن الاسلامي يضع كلا الصنفين موضعه الطبيعي - الرجل موضع الرجل والمرأة مكان المرأة - ويستخدمه للأعمال التي قد أعدته الفطرة لها . ثم يهيئ له فرص العز والرفق والنجاح على حد سواء واضعاً إياه في مكانه . وذلك أن الذكورة والأنوثة عند الاسلام من الاجزاء اللازمة للانسانية ، وسواء أهميتها لتعمير التمدن . وكل ما يؤديان من الخدمات في دائرته ، هو مفيد للتمدن على السواء ، وجدير بالتقدير نفسه . ولا فضيلة للذكورة ، ولا ذل في الأنوثة . وكما أن عز الرجل ورقبه ونجاحه ، هو في أن يبقى على رجوليته ويقوم بواجبات الرجال ، كذلك عز المرأة ورقها ونجاحها في أن تظل امرأة وتؤدي واجبات النساء . ومن شأن التمدن الصالح أن يضع المرأة في دائرة عملها الطبيعية ثم يعطيها كل الحقوق ، ويكرمها ويعظم شأنها ويشجذ مواهبها الكامنة بالتربية والتعليم ويفتح أمامها سبل الرفق والنجاح في دائرة عملها تلك .

# التَّحْفُظَات

هذه صيغة كاملة لنظام الاجتماع الاسلامي ، قد عرضناها في الصفحات الماضية . وهنا ، قبل أن يتقدم القارئ في البحث يحسنُ به أن يعيد النظر في الخصائص البارزة لهذه الصيغة . فمما يرومه هذا النظام الاجتماعي :

١ - أن يُطَهَّرَ الوَسَطُ الاجتماعي من كل محرِّ كات الشهوة وعوامل إغرائها وتهيجها بقدر الإمكان ، حتى يكون لِقْوَى الإنسان الفكرية والجسدية أن تنشأ وترتقي في جوٍّ هادئٍ مطهرٍ ، وبممكنٍ الإنسان من أن يقوم بنصيبه من العمل لتعمير التمدُّن بقوةٍ موفورة مدُّخِرة .

٢ - أن تكون العلاقات الجنسية محدودةً في دائرة الزواج أما خارج هذه الدائرة ، فلا يُسدَّدُ فيه باب الفوضى العملية فحسبُ ، بل باب الشرود الفكري أيضاً ما أمكن .

٣ - أن تكون دائرة عمل الرجل منفصلةً عن دائرة عمل المرأة ويكلف كل منها بخدمات تمدُّنية مختلفة وفقاً لطبيعته ومقدرته الجسدية



والعقيلة . ثم تُنظَّم علائقها تنظيمًا يجعلها متعاونين متماضدين في حدود الشرع . ولا يكون لأحد منها أن يتجاوز تلك الحدود ، فيتدخل في شؤون الآخر .

٤ - أن تكون منزلة الرجل في الأسرة منزلة القوام ، ويكون جميع أفراد الأسرة مطيعين لرب البيت .

٥ - وأن يتمتع كل من الرجل والمرأة بالحقوق الإنسانية الكاملة ، ويُنَّاح له أحسن الفُرَص للتقدم والرفق ، بدون أن يتجاوز الحدود المرسومة له في نظام الاجتماع .

وإن النظام الاجتماعي الذي قد شُيِّدت أركانه على هذه الصيغة ، يحتاج إلى تحفُّظات تضمّن لكيانه البقاء بخصائصه جملةً . والذي يتَّخذه الاسلام من هذه التحفُّظات ، هو من أنواع ثلاثة :

١ - إصلاح الباطن .

٢ - قوانين العقوبات .

٣ - التدابير الوقائية .

وهذه التحفُّظات الثلاثة قد اقترحت كلها مراعاةً لملاءمتها النامية لمزاج النظام الاجتماعي ومقاصده . فهي تحفظه وتقوّي أمره بتفاعلها معاً . فإصلاح الباطن يُربّي الإنسانُ تربيةً تحمله على إطاعة هذا النظام

الاجتماعي من تلقاء نفسه ، سواءً أكان هناك في خارجه قوّة تُكرهه  
على الإطاعة ، أم لم تكن .

وبقانون العقوبات يوصّد باب الجرائم التي تقضّ هذا النظام  
وتهدم أركانه .

وبالتدابير الوقائية تروّج في الحياة الاجتماعية عادات وطُرُق تُطهّر  
بيئة المجتمع من المغريات المتصنّعة والمحرّكات غير الطبيعية . وتقلّل من  
إمكان الفوضى الجنسية إلى أبعد مدى . فالذين لا يتمّ إصلاح باطنهم  
بالتعليم الخلقي ، ثم هم لا يخافون قانون العقوبات ، تُقيم هذه الطرق  
الاجتماعية في سبيلهم من العقبات ما يتصعّب عليهم الإقدام العملي على  
الفوضى الجنسية ، برغم كونهم مائلين اليها . ثم هذه الطرق هي التي تفرق  
بين دائرتي عمل المرأة والرجل بالفعل ، وتقيم نظام الأسرة على صورتها  
الاسلامية الصحيحة ، وتُحافظ على الحدود التي قد رسمها للتمييز بين  
حياة النساء وحياة الرجال .

### إصلاح الباطن

إن الإطاعة في الاسلام قد بُنيت كلها على الايمان . فالذي يؤمن بالله  
وبكتبه ورُسله ، هو وحده المكلف في الحقيقة بأوامر الشرع ونواهيه .  
ويكفيه لحمله على اتّباع أوامره واجتناب نواهيه ، علمه بأن الله قد أمره  
بكذا ، ونهاه عن كذا . فالرجل المؤمن إذا علّم من كتاب الله ، أن الله

سبحانه ينهى عن الفحشاء والمنكر ، يقتضيه إيمانه أن يتجنبه ولا يميل إليه حتى في قلبه. وكذلك اذا علمت مؤمنة ما قد قرر لها الله ورسوله من المنزلة في المجتمع ، فما يقتضيها إيمانها أن تقبل تلك المنزلة طائعة راضية ولا تمتدّي حدودها ، وبذلك يتوقف اتباع المرء للاسلام اتباعاً كاملاً صحيحاً في دائرة الاخلاق والاجتماع أيضاً ، كسائر شعوب الحياة ، على الايمان وحده . ومن هذا ترى الاسلام قبل أن يوصي الناس في الأخلاق والاجتماع ، يدعوهم الى الايمان ويعنى بتثبيته في قلوبهم .

وانما هذا هو التدبير الاسامي الذي يتخذُه الاسلام لإصلاح الباطن وهو لا يتعلق بشؤون الاخلاق فحسب بل بالنظام الاسلامي بأكمله . ثم إن الاسلام قد اتخذ في دائرة الاخلاق على وجه خاص ، طريقة للتربية والتعليم جدّ حكيمة ورشيدة ، نذكرها فيما يلي بإيجاز :

### الحياء

قد ألمنا فيما سبق الى أن الزنى والسرقة والكذب وغيرها من المعاصي التي يرتكبها الانسان بدافع من الطبع الحيواني فيه ، كلها مخالفة للفطرة الانسانية ، فيعبر عنها القرآن بكلمة (المنكر) ومعناه : الشيء الذي يُجهل ولا يُعرف . فالمراد بتسمية تلك الافعال كلها بالمنكر ما تنكره الفطرة الانسانية ولا تألفه . ومن الظاهر أنه إذا لم تكن تألفها فطرة المرء ، وكان المرء ، انما يرتكبها باستيلاء الطبع الحيواني عليه ، وإكراهه

له على الامر ، فلا بد أن يكون في فطرة الانسان نفسه شيء قد أوماً  
اليه الشارع الحكيم ، وسمّاه (الحياء) .

إن الحياء يُراد به في الاسلام ذلك الشعور من الخجل الذي يشعر  
به الانسان في نفسه أمام فطرته وأمام الله تعالى حينما يميل إلى منكر  
وهذا الحياء هو القوة التي تكفّ الانسان عن الاقدام عن الفحشاء  
والمنكر . فهو إن ارتكب سيئة بدافع جبلته الحيوانية ، حز في نفسه هذا  
الحياء ونفّس عليه عيشه ، وجماع التعليم والتربية الخلقية في الاسلام أنه  
ينعش هذه الغريزة المدفونة في الفطرة الإنسانية ، فيغذيها ويُنبهها  
بنفاد العلم والفهم والشعور ، حتى يجعلها حاسة خلقية قوية ، يقيمها في  
نفس الانسان كالأمر وهذا ما فسره النبي ﷺ بقوله «ولكل دين خلق  
وخلق الإسلام الحياء» ، تفسيراً مطبقاً . وهو أيضاً مما يؤيده الحديث  
الذي قال فيه النبي ﷺ : « إذا لم تستح ، فاصنع ما شئت » ومعناه أنك إن  
فقدت الحياء ، غلبك الهوى الذي مصدره الجبلّة الحيوانية . ولم يعد  
المنكر في نظرك منكراً .

والحياء الفطري في الانسان كالمواد الخام لم تُفرغ في قالب . فهو ،  
وإن كان يتأفف من جميع المنكرات بالطبع ، إلا أنه لا فهم له ولا إدراك  
فهو لا يعلم السبب لكراهيته لفعل منكر بعينه . وهذا الجهل يضعف فيه  
شعور الكراهية رويداً رويداً حتى يأخذ المرء في ارتكاب المنكر بدافع  
الحيوانية وغلبتها عليه . وتكراره لارتكابه يبطل فيه حاسة الحياء آخر

الأمر . وغاية التعليم الخلقى فى الاسلام رفعُ هذا الجهل والعمى من غريزة الحياء . فهو لا يمرُّ بها بالنكرات الظاهرة البارزة فحسبُ ، بل يوضح لها أيضاً سيئات النية والارادة والامانى المكنونة فى تضاعيف النفس ، وينبئها إلى مفاصد كلِّ منها ، لكي تكرهها كراهية بصيرة . وتأتى بعد ذلك التربية الخلقية ، فتبث فى هذا الحياء المعالج بالتعليم ، من قوة الحس وشدة أن لا يخفى عليه أدنى ميلان فى نفس المرء إلى منكر ولا يقصّر فى تنبيه النفس الانسانية عند أدنى زلة فى نيتها أو إرادتها .

وقد بلغ من سعة نطاق الحياء فى التعاليم الخلقية الاسلامية أن لا تخلو منه شعبة من شعب الحياة . وقد استخدمه الاسلام حتى لإصلاح الاخلاق فى شعبة التمدن والاجتماع التى تتعلق بحياة الانسان الجنسية . فهو ينبه على أخفى مداخل الريبة فى النفس الانسانية ، ويحمله رقيباً عليها ، ولأن هذا المقام لا يتسع للبسط والتفصيل ، نكتفى لبيان الأمر بأمثلة معدودة .

### ضائفة القلوب

إن القانون إنما يطلق حكم الزنى على الاتصال الجسدى فحسبُ ، ولكن نظام الاخلاق يمد كل ميلان إلى الجنس المخالف ، خارج دائرة الزواج ، فى حكم الزنى من جهة النية والارادة . فتتمنع العين بجمال الاجنبى وتلذذ السامع بحسن صوته ، وتلوى اللسان فى محادثته ، وتحرك الأقدام إلى لقاءه كل أولئك من مقدمات الزنى بل هي زنى بعينه باعتبار معانيها وهذا الزنى المنوى لا يمكن للقانون أن يؤاخذ عليه . وإنما هو ضائفة القلوب ، فلا يقع

عليها إلا رقيب الضمير . ويشير إلى هذا الحديث النبوي بالكلمات الآتية:  
 «العينان تزنيان وزناها النظر ، واليدان تزنيان وزناهما البطش والرجلان  
 تزنيان وزناهما المشي، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهى، والفرج  
 يصدق ذلك كله أو يكذبه .»

### فتنة النظر

وأكبر خائنة نفسية هي النظر. ولذلك يؤخذ عليها القرآن والحديث  
 قبل كل شيء : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ  
 وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ . ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنْ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا  
 يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ  
 وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ » . (النور . ٣٠-٣١) وفي الحديث: « ابن آدم !  
 لك أول نظرة وإياك والثانية » (١) وقال النبي ﷺ لعلي كرم الله وجهه:  
 « يا علي ! لا تتبع النظرة النظرة . فان لك الأولى وليس لك الآخرة » (٢) ، ومأل  
 جابر رضي الله عنه عن نظر الفجاءة ، فقال ﷺ : « اصرف بصرك » . (٣)

### تغريزة التبرج وإظهار الزينة

ومن لواحق فتنة النظر هذه ما يحبب إلى المرأة أن يرى حسنها وجمالها

(١) الجصاص

(٢) أبو داود - باب ما يؤمر به من غض البصر

(٣) أبو داود

وهذه الرغبة لا تكون جليلة بارزة أبداً . ولكن هذا النزوع إلى إظهار الزينة يكمن لا محالة في مطاوي النفس وهو الذي تظهر آثاره في زينة اللباس وتجميل الشعر وانتخاب الازياء الرقيقة الجذابة، وما إلى ذلك من الجزئيات الخفيفة التي لا يمكن حصرها وقد عبّر القرآن عن كل ذلك بمصطلح جامع هو ( تبرج الجاهلية ) . فكل زينة وكل تجعل تقصد به المرأة أن تملو في عين الاجانب، يطلق عليه ( تبرج الجاهلية ) حتى القناع الذي تستتر به المرأة ، إن انتخب من الالوان البارقة والشكل الجذاب لكي تلذ به أعين الناظرين ، فهو أيضاً من مظاهر التبرج الجاهلي . وليس في الامكان أن تضبط هذه المظاهر كلها بقانون ، بل الامر موكول في ذلك إلى ضمير المرأة نفسها فعملها أن تحاسب نفسها وتتجسس فيها لعلها يكمن في مطاويها هذا النزوع إلى التبرج . فإن وجدته ، فهي لاريب مخاطبة في الامر الإلهي: « وَلَا تَبْرُجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ، ( الاحزاب : ٣٣ ) . وإن الزينة التي تخلو من كل نية فاسدة هي الزينة المشروعة في الاسلام . وأما التي تشوبها شائبة من فساد النية فهي زينة الجاهلية .

### فتنة اللسان :

ووكيل آخر لشيطان النفس هو اللسان . وما أكثر الفتن التي يبعثها اللسان وينشرها . رجل وامرأة يتكلمان ، ولا يبدو في حديثها ما يشكك أو يريب . ولكن خائنة القلوب قد جعلت الصوت رخيماً ، واللهجة مشوقة والحديث عذبا . فيشير إليها القرآن بقوله : « إِنَّ

اتَّقَيْنُنْ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ، فَطَمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ  
مَرَضٌ . وَقَتْلُنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ، ( الاحزاب : ٣٢ ) . ثم هذه  
الخائنة القلبية هي التي تلتذ بحكاية أحوال الناس في علائقهم الجنسية  
المشروعة أو غير المشروعة ، كما تلتذ باستماعها ولأجل هذه اللذة تختلق  
قصص الحب والغرام من كل صحيح الخبر وموضوعه وتسرد في النوادي  
والمحافل ، فتنتشر منها في المجتمع انتشار النار في الهشيم . فينبه القرآن  
على هذا أيضاً بقوله : « إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ  
فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ » .  
( النور : ١٩ ) .

ولفتنة اللسان شغب أخرى متعددة ، وفي كل شعبة منها تعمل خائنة  
من خوائن القلوب عملها . وقد استقرأها الاسلام ونبه عليها . فليس المرأة  
أن تصف أحوال غيرها من النساء لزوجها : « لا تبأشر المرأة المرأة حتى  
تصفها لزوجها كأنه ينظر إليها » (١) . والمرأة والرجل كلاهما قد نهى عن  
أن ينشر سره للناس ، لأن ذلك يشيع الفاحشة ويفري بها القلوب . (٢)  
وإن أدرك الامام سهو في الصلاة ، أي وجب فيها تنبيه على شيء ،  
فعلى الرجال أن يقولوا : ( سبحان الله ) ولكن النساء أمرن بأن يُصَفَّقن  
وليس لهن أن يجهرن بقول . (٣)

(١) الترمذي : باب ما جاء في كراهية مباشرة المرأة بالمرأة .

(٢) أبو داود : باب ما يكره من ذكر الرجل ما يكون من إصا بته أهله

(٣) أبو داود باب التصفيق في الصلاة . والبخاري : باب التصفيق للنساء .



## فتنة الصوت

وربما سكت اللسان . وقامت حركات أخرى تؤثر في سمع السامع بصوتها . وهذا أيضاً من باب فساد النية ، فيمنعه الاسلام بقوله : « وَلَا يَضْرِبَنَّ بَارِجُلَيْنِ » لِيُعْلَمَ مَا يُخْفَيْنَ مِنْ زَيْنَتَيْنِ ، (النور : ٣١) .

## فتنة الطيب

والطيب أيضاً رسول من نفس شريرة إلى نفس شريرة أخرى . وهو من ألطف وسائل الخبايا والمراسلة ، مما تتهاون به النظم الاخلاقية عامة . ولكن الحياء الاسلامي يبلغ من رقة الاحساس أن لا يحتمل حتى هذا العامل اللطيف من عوامل الاغراء . فلا يسمح للمرأة المسالمة أن تمر بالطرق أو تقش المجالس مستعطرة . لأنها وإن استتر جمالها وزينتها ، ينتشر عطرها في الجو ويحرك المواطف . قال النبي ﷺ : « المرأة إذا استعطرت فمرت بالمجلس ، فهي كذا يعني زانية » (١) . وقال عليه السلام : « إذا شهدت أحداً كن المسجد فلا تمسن طيباً » (٢) « طيبُ الرجال مظهر ريحه وخفي لونه ، وطيبُ النساء مظهر لونه وخفي ريحه » (٣) .

(١) الترمذي - باب ماجاء في كراهية خروج المتعطرة

(٢) الموطأ ومسلم .

(٣) الترمذي - باب ماجاء في طيب الرجال والنساء ، وأبو داود باب ما يكره من ذكر الرجل ما يكون من أصابته أهله .

## فتة العربي

إن التعبير النفسي الكامل الصحيح الذي قد عبر به الاسلام عن غريزة الحياء الانساني في باب ستر العورات ، لا مثيل له في حضارة من حضارات العالم . ومن حال أرقى أمم الارض وأعلاها ثقافة اليوم - دع عنك غيرها - أن رجالها ونساءها لا يتخرجون من كشف أي جزء من أجزاء جسد . واللباس عندهم لمجرد الزينة ، لا للستر . ولكن الاسلام أكثر ما يهتم من اللباس هو الستر دون الزينة . فهو يأمر الرجل والمرأة أن يسترا من جسمها كل الأجزاء التي فيها جاذبية للصنف الآخر . والعري عند الاسلام من الوقاحة وسوء الادب الذي لا يكاد حياؤه يصبر عليه بحال . من الاحوال . وماذا يقال في الاجانب ، إن الاسلام لا يحب حتى للزوجين أن يتجرد أحدهما أمام الآخر . « وإذا أتى أحدكم أهله فليستتر . ولا يتجردان تجرد الميرين » (١) . وقالت عائشة رضي الله عنها : « ما نظرت إلى فرج رسول الله ﷺ » (٢) . وأفضل درجة من الحياء أن لا يرضى الاسلام للمرء أن يتجرد حتى في خلوته ، لأن الله أحق أن يستحي منه (٣) . وجاء في الحديث : « إيتاكم والتمري ، فإن معكم من لا يفارقكم الا عند الغائط وحين يفضي الرجل الى أهله ، فاستحيوهم وأكرمواهم » (٤) .

(١) ابن ماجه : باب التستر عند الجماع .

(٢) شمائل الترمذي : باب ما جاء في حياء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(٣) الترمذي : باب حفظ العورة .

(٤) الترمذي : باب ما جاء في الاستتار عند الجماع .

وما اللباس الذي يشفّ عن الجسم ويفضح العورات ، بلباسٍ في نظر  
الاسلام . قال رسول الله ﷺ : « نساء كاسيات عاريات مُميلات  
مائلات ، رؤوسهن كأشنة البخت المائلة ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن  
ريحها » (١) .

ولا نقصد في هذا المقام استيعاب جميع الأحكام الواردة في هذا الباب .  
ولمّا سُقينا منها أمثلة معدودة ، لتأملها القارئ ، ويقدر منها مقياس  
الاسلام العالي الأخلاق ، وروحه الخلق السامي . فالاسلام يريد أن  
يطهر جو المجتمع ويؤمته من كل مغريات الفحشاء والمنكر . وهذه المغريات  
مصدرها جميعاً الباطن الانساني . فهناك تنشأ جرائم كل منكر وفاحشة .  
ومن هناك تبتدىء المحرّكات الخفيفة التي ربما غفل عنها الانسان الجاهل  
زاعماً إياها هفوات لا تضر ، ولكنها - في رأي الحكيم العليم - علّة  
المَلل وأصل الأمراض التي تدمر التمدن والأخلاق والاجتماع . ولذلك  
يُريد التعليم الخلقي الاسلامي أن يبعث في باطن الانسان شعوراً نفسياً  
من الحياء ، يكون من القوة والشدة بحيث يدفعه على محاسبة نفسه بنفسه -  
على الدوام ، حتى إذا آنس في خفاياها أدنى ميل الى المنكر ، قهره بنفسه ،  
وقضى عليه بقوة إرادته .

## قانون العقوبات

إن المبدأ الرئيسي لقانون العقوبات الاسلامي أن لا يشد المرء

---

(١) مسلم : باب النساء الكاسيات العاريات .

بوثاق السياسة إلا إذا ارتكب بالفعل عملاً مخرباً للمدنى . فإذا فعل ، فلا ينبغي أن يعود ارتكاب المآثم واحتمال العقوبات ، بمعاقبته على ذلك عقاباً هيئناً ، بل يجب أن تجعل الشروط اللازمة لاثبات الجرائم شديدة مستعصية <sup>(١)</sup> وأن يجنب الناس التعرض لمؤاخظة القانون ما أمكن <sup>(٢)</sup> . ولكنه إذا وقع أحدهم في بطشته ، وقامت البينة عليه ، فليعاقبن عقاباً لا يعجزه وحده عن إعادة تلك الجريمة ، بل يكون نكالا لألوف من أمثاله الذين يميلون إلى ارتكابها ، حتى يرهبوا ويحجموا عنها . وذلك أن غاية القانون هي تطهير المجتمع من الجرائم ، لاعتويد الناس إياها ، ومعاقبتهم عليها مرة بعد أخرى . والفعلتان اللتان قد قررها الإسلام من الجرائم المستلزمة للمقوبة ، حفظاً لنظام الاجتماع هما اثنتان : الزنى والقذف .

### صد الزنى

قد ذكرنا فيما سبق عن الزنى ، أن هذه الفعلة نتيجة لانهطاط الإنسان

---

(١) إن الشروط اللازمة لاثبات الجرائم في قانون الشهادات الإسلامي ، شديدة جداً على العموم . ولكن الفرائط لاثبات جريمة الزنى قد جعلت أشد وأصعب من سائرهما فالقانون الإسلامي يكتفي بشاهدين اثنين للقضاء في عامة شؤون الحياة . ولكنه يستلزم لاثبات الزنى أربعة شهداء على الأقل .

(٢) من قول النبي صلى الله عليه وسلم: ادروا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فان كان له مخرج ، فخلوا سبيله . فان الامام يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في المقوبة . (الترمذي : أبواب الحدود) .

إلى أسفل دركات الخلق . فالذى يرتكبها ، يبرهن أن نفسه قد غلبتها  
 البهيمية ' كل الغلبة ، فهو لا يصلح لأن يعيش في المجتمع كعضو صالح من  
 أعضائه . وهذه القطة من وجهة نظر الاجتماع من أكبر السيئات التي  
 تأتي التمدن الانساني من القواعد . ولهذا قد قررها الاسلام في نفسها  
 جريمة تستلزم العقوبة ، سواء اقترنت بها جريمة أخرى كالقسر  
 والاكره ، والتعامل على حق الآخر ، أم لا . ولذا يأمر القرآن :  
 « الزانية والزاني ، فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا  
 تأخذكم بها رافة في دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر .  
 وليشهد عذابها طائفة من المؤمنين » . ( النور : ٢ )

وقد كبر ما بين القانون الغربي والقانون الاسلامي من الاختلاف  
 في هذا الباب . فالقانون الغربي لا يعتبر الزنى في نفسه من الجرائم . وإنما  
 يصير جريمة في عينه إذا كان بإكراه ، أو إذا ارتكبه الفاعل بامرأة  
 في عقد رجل آخر . وبعبارة أخرى ليست الجريمة في القانون الغربي هي  
 الزنى نفسه ، بل الجريمة هي الإكراه والاعتداء على حق الآخر .  
 بخلاف الاسلام ، فإن الزنى في قانونه جريمة في ذاته ، وتضاف إليه  
 جريمة أخرى ، إذا كان معه قسر وإكراه ، أو اعتداء على حقوق  
 الآخرين . ولهذا الاختلاف الجوهرى في النظريات ، يختلف القانونان في  
 أساليبهما في باب العقوبة . فالقانون الغربي يكتفي بالحبس عقوبة للزنى بامرأة  
 ذات زوج ، فلا يعاقب عليها إلا بفرم يؤدي إلى زوجها . وهذه العقوبة

ليس من شأنها أن تقمع الجريمة، بل هي حرية بأن تزيد الناس جراءة عليها لأجل ذلك تجديسة الزنى إلى الزيادة والانتشار في الأقطار العاملة بهذا القانون . والقانون الاسلامي ، على عكس ذلك ، يعاقب على الزنى عقاباً شديداً يطرأ المجتمع من هذه الجريمة ومرتكبها مدة طويلة من الزمن ، فالأقطار التي عملت بعقوبة الاسلام لجريمة الزنى ، لم يعم فيها ارتكابها قط . وذلك أن إقامة الحد على الجاني مرة واحدة ، تلقي في قلوب الأهلين من الهيبة والروعة مالا يعود معه أحدهم يجترأ على الجريمة إلى سنين . فكأنها عملية جراحية نفسية ، تجري على ذهن المسائلين إلى الجرائم ، فتصلح بها نفوسهم من تلقائها .

وإن الضمير الغربي يشتمز من عقوبة الجلادات المثة . والسبب في ذلك لا يرجع إلى كونه لا يحب إيذاء الانسان في جسده . بل السبب الحقيقي أنه لم تكتمل بعد نشأة شعوره الخلقي . فهو بينما كان يعد الزنى من قبل عيباً وهجنة ، إذا به الآن لا يعتبره إلا لعباً وسلوة ، يعلل به شخصان نفسيهما ساعة من الزمان . فهو يريد لذلك أن يسامح في هذا الفعل ولا يحاسب عليه ، إلا إذا أخل الزنى بحرية رجل آخر أو بحق من حقوقه القانونية . وحتى عند حصول هذا الاختلال لا يكون الزنى عنده إلا من صغار الجرائم التي لا تتأثر بها إلا حقوق شخص واحد ، فيكفي للمعاقبة عليه بعقاب خفيف أو تفريم .

وبديهي أنه من كان هذا تصويره للزنى ، لا بد أن يرى حد المثة جلدة

عقوبة ظالمة جداً لهذا الفعل. ولكنه إذا ارتقى شعوره الخلقي والاجتماعي وعلم أن الزنى سواء كان بالرضى أو بالاكره، وكان بامرأة متزوجة أو باكرة، جريمة اجتماعية في كل حال تعود مضارها على المجتمع بأسره، فانه لابد أن تتبدل نظريته في باب العقوبة، ويعترف بوجوب صون المجتمع من تلك المضار وبما أن العوامل المحركة للمرء على الزنى متأصلة جداً في جبلته الحيوانية، وليس من الممكن قلع شأفتها بمجرد عقوبات الحبس والغرم، فلا مندوحة لقمعه من استخدام التدابير الشديدة. وبما لاشك فيه أن وقاية ملايين من الناس مما لا يحصى من المضار الخلقية والعمرانية بايذاء شخص أو شخصين إيذاء شديداً خير من رفع الاذى عن الجناة وتمريض الامة كلها لمضار لا تنحصر فيها، بل تتوارثها أجيالها القادمة أيضاً بلا ذنب لها.

وهناك سبب آخر لاعتبارهم حد المئة جلدة من العقوبات الظالمة، يفتن له المرء بسهولة إذا أنعم نظره في أسس الحضارة الغربية. وذلك أن حضارة الغرب - كما أسلفنا - قد قامت على إعانة (الفرد) على (الجماعة). وتركبت عناصرها بتصور مغلو فيه للحقوق الفردية. لذلك مها كان من ظلم الفرد واعتدائه على المجموع، فلا ينكره أهل الغرب، بل يحتملونه غالباً بطيبة نفس. ولكنه كلما امتدت إلى الفرد يد القانون حفظاً لحقوق الجماعة، اقشعرت منه جلودهم خوفاً وفزعاً وأصبح كل نصحبهم وتمحسبهم بحق الفرد دون الجماعة. ثم إن ميزة أبناء الجاهلية

الفروية - كأهل الجاهلية في كل زمان - أنهم يهتمون بالمحسوسات أكثر من اهتمامهم بالمعقولات . ولهذا يستفزعون الضر الذي ينال الفرد لكونه مائلاً أمام أعينهم بصورة مريئة . ولكنهم لا يدركون خطورة الضرر العظيم الذي يلحق المجتمع وأجياله القادمة جميعاً ، على نطاق واسع لأنهم يكادون لا يحسون به لسعته وعمق آثاره .

## صد القذف

ومثل مضار الزنى مضار القذف . فإن قذف عفيفة من النساء لا يجر عليها وحدها سوء القالة والشهرة ، بل هو يشيع الفاحشة في المجتمع ، ويفسد الملائق الزوجية ، وينشر المداوة في الاسر ، ويدخل الريبة في الانساب . ويدفع به شخص واحد عشرات من النفوس إلى الشدائد والحن عددًا من السنين ، بمجرد ما يفوه به من كلمة بهتان . لذلك يؤاخذ عليه القرآن ، ويقرر له عقوبة شديدة « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا . وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » (النور: ٤)

## التدابير الوقائية

وهكذا يأتي قانون العقوبات الاسلامي ، فيقمع - أولاً - الخلاعة والفجور بقوته السياسية ، ويصون - ثانياً - الصالحين من أفراد المجتمع



من سوء مقال أهل الخبث . وإذا كان تعليم الاسلام الخلقي يصلح المرء في باطنه ، حتى لا ينشأ فيه ميل إلى الإثم والمصيبة ، وكان قانون العقوبات الاسلامي يصلحه من الخارج ، يكبت بالعنف ما ينشأ في نفسه من نزعات الفجور لنقص تربيته الخلقية ، وتمنع من أن تنتقل من القوة إلى الفعل فإن هناك بين هذين النوعين من التدابير ، تدابير أخرى قد اتخذها الاسلام ردها للتعليم الخلقي لإصلاح الباطن ، وأصلح نظام الاجتماع بهذه التدابير إصلاحاً لا يدع مواطن الضعف الخلقي ، التي تبقى في أفراد الجماعة لنقص تربيتهم ، تنمو وتحول من القوة إلى الفعل . وذلك لكي تقوم في المجتمع بيئة تخلو من كل ما يثير في المرء نزعات السوء ، وتتنزه عن جميع المغريات ، وتقل فيها أسباب الفوضى الجنسية إلى أبعد حد ممكن ، ويوصد باب جميع صور السلوك الانساني التي قد تخل بنظام التمدن . وها نحن نفصل القول في كل واحد من هذه التدابير :

## أعظام اللباس وسر العورات

إن أول ما عني به الإسلام في سبيل إحكام الاجتماع هو إبطال المري ، وتعيين العورات للرجال والنساء . وإن الحال التي كانت عليها الجاهلية المريية في التهاون بالمري ، لا تختلف عنها حال الامم المهذبة الراقية اليوم اختلافاً يذكر فكان رجال من العرب يتعري بعضهم أمام

بعض بدون حياء أو تردد<sup>(١)</sup> . وكانوا لا يرون لزوم الاستئثار عند الغسل أو قضاء الحاجة . وكانوا يطوفون بالكعبة عراة ، ويعتقدونه من أفضل العبادات<sup>(٢)</sup> . حتى النساء كن يتعريّن عند الطواف<sup>(٣)</sup> . وكن يلبسن في عامة الأحوال لباساً يكشف عن بعض الصدر وعن جانب من الذراعين والكشع والساقين<sup>(٤)</sup> . . . وهي حالة توجد اليوم بعينها في أوربة وأميركا واليابان . وليس في أقطار الشرق أيضاً نظام اجتماعي - غير الاسلام - قرّرت فيه حدود الكشف والستر، على وجه العناية والاهتمام .

فلقّن الاسلام النوع الانساني أول درس في الحضارة في هذا الباب بقوله : « يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا » (الأعراف : ٢٦) . ففرض بهذه الآية ستر

(١) قد أخرج مسلم في باب ( الاعتناء بحفظ المودة ) أنه أقبل مسور بن مخزومة مجبر يحمله ثقيل وعليه إزار خفيف فانحل ازاره، ومعه الحجر لا يستطيع أن يمنعه، حتى بلغ به إلى موضعه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ارجع إلى ثوبك فخذنه ولا تمشوا عراة .

(٢) قد روي عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وابراهيم النخعي وسعيد بن جبير الزهري وغيرهم انهم قالوا : « كان رجال من العرب يطوفون بالبيت عراة » (ابن كثير: ج ٢ ص ٢١٠)

(٣) قد جاء في كتاب التفسير في صحيح مسلم أن كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانة، فتقول: من يعيرني تطوفاً، تجعله على فرجها وتقول:  
( اليوم يبدو بعضه او كله ) فما بدامننه فلا أحله

وكان اعطاء الكسوة لثل هذه السائلة يعد من البر .

(٤) انظر التفسير الكبير للرازي الآية : « وليضربن نجسهن على جيوبهن »

الجسم على كل رجل وامرأة . وشدد النبي ﷺ في النهي عن كشف العورة والنظر إليها . فقال : « ملعون من نظر إلى سواة أخيه » (١) . « لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل ، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة » (٢) . « لأن آخر من السماء فأنقطع نصفين أحب إلي من أن أنظر إلى عورة أحد أو ينظر إلى عورتى » (٣) . « إياكم والتعري ، فإن معكم من لا يفارقكم إلا عند الفائط وحين يفضي الرجل إلى أهله » (٤) . « إذا أتى أحدكم أهله فليستتر ، ولا يتجردا تجرد الميرين » (٥) وخرج رسول الله ﷺ ذات مرة إلى إبل الصدقة فرأى راعيها تجرد في الشمس . فعزله وقال : « لا يعمل لنا من لا حياء له » (٦) .

### حدود العورة للرجال

وبجانب هذه الاحكام قرر الاسلام حدوداً متباينة لمورات النساء والرجال . والعورة في مصطلح الشرع هي ما يجب ستره من أعضاء الجسم . فقرر ما بين السريرة والركبتين عورة للرجال ، وأمرؤا ألا يكشفوه لأحد ، ولا أن ينظروا اليه في غيرهم . عن أبي أيوب الانصاري عن النبي

(١) أحكام القرآن للجصاص

(٢) أحمد ومسلم وابو داود والترمذي - باب تحريم النظر إلى المورات

(٣) المبسوط - كتاب الاستحسان

(٤) الترمذي - باب ما جاء في الاستتار

(٥) ابن ماجه - باب التستر عند الجماع .

(٦) المبسوط - كتاب الاستحسان الجزء ١٠ - الصفحة ١٥٥

عليه السلام : «ما فوق الركبتين من العورة وأسفل من السرة من العورة» (١).  
 «عورة الرجل ما بين سترته إلى ركبته» (٢). عن أبي طالب عن النبي ﷺ :  
 « لا تبرز خفذك ولا تنظر إلى خفذي ولا ميت » (٣). وهذا الحكم عام  
 لم يستثن منه إلا زوجة الرجل . فقد جاء في الحديث : « احفظ عورتك  
 إلا من زوجتك أو مملكت يمينك » . (٤)

### حدود العورة للنساء

أما حدود العورة للنساء فقد جعلت أوسع من عورة الرجال فأمرن  
 أن يخفين كل جسمهن ، غير الوجه واليدين ، عن كل الناس ، وفيهم  
 آباؤهن وإخوتهن وسائر أقاربهن من الذكور ولم يستثن من ذلك إلا  
 أزواجهن : «لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تخرج يديها إلا  
 إلى هبنا ، وقبض نصف الذراع » (٥) « الجارية إذا حاضت ، لم يصلح  
 أن يرى منها إلا وجهها ويدها إلى المفصل » (٦). وعن عائشة رضي الله  
 عنها قالت : خرجت لابن أخي عبد الله بن الطفيل مزينة ، فكرهه النبي

(١) الدارقطني

(٢) الدارقطني والبيهقي

(٣) أبو داود وابن ماجه

(٤) مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه

(٥) ابن جرير الطبري

(٦) أبو داود

ﷺ ، فقلت : إنه ابن أخي يارسول الله ! فقال : « إذا عرقت المرأة ، لم يحل لها أن تظهر إلا وجهها وإلا مادون هذا وقبض على ذراع نفسه ، فترك بين قبضته وبين الكف مثل قبضة أخرى » . (١) وكانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها أخت زوج النبي ﷺ . فدخلت عليه ذات مرة في لباس رقيق يشف عن جسمها . فأعرض النبي عنها وقال : « يا أسماء ! إن المرأة إذا بلغت المحيض ، لم يصلح أن يرى منها إلا هذا وهذا وأشار إلى وجهه وكفه » . (٢) ودخلت حفصة بنت عبد الرحمن على عائشة زوج النبي ﷺ ، وعلى حفصة خمار رقيق ، فشقته عائشة وكستها خماراً غليظاً . (٣) وقال النبي ﷺ « لمن الله الكاسيات العاريات » . وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال : « لا تلبسوا نساءكم الكتان ولا القباطي . فإنها تصف ولا تشف » . (٤)

فيعلم من جميع هذه الروايات أن جسم المرأة كله ، إلا وجهها ويديها ، عورة يجب أن تسترها حتى عن أدنى أقاربها في البيت . ولا يجوز لها أن تكشف عورتها على أحد غير زوجها سواء كان أباً أو أخاً أو

---

(١) ابن جرير الطبري

(٢) ابوداود مرسلًا

(٣) الموطأ للإمام مالك

(٤) المبسوط - كتاب الاستحسان

ابن أخيها . حتى ولا يحل لها أن تلبس لباساً رقيقاً يشف عن عورتها أو يصفها .

على أن كل ماورد في هذا الباب من الاحكام ، هو المرأة الشابة . فتتخذ هذه الاحكام - في ستر العورة - مذ تقارب المرأة البلوغ ، وتبقى نافذة عليها مادامت فيها جاذبية جنسية فإذا جاوزت المرأة ذلك العمر وتقدمت في السن . فإنها لا يرب يخفف منها . في القرآن : **وَالسَّقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً ، فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ . وَأَنْ يَسْتَغْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ** ، ( النور : ٦٠ ) وفي الآية تصريح بعملة التخفيف والمراد بعدم الرجاء في النكاح هو أن تبلغ المرأة عمراً تفي فيه الشهوة الجنسية ولا تبقى في المرأة جاذبية . على أن الله تعالى قد ألزمن لمزيد الحيلة أن لا يقصدن بوضع الثياب إبداء زينتهن وأما إذا كان في نفس المرأة أثر من الشهوة الجنسية ، فلا يجوز لها أن تخلع الثوب عن رأسها ، وإنما التخفيف للمعائز اللاتي يجعلن تقدّم السنّ في غنى عن العناية بلباسهن ، واللاتي يكاد لا ينظر إليهن أحد إلا بنظر الإجلال والاحترام وأمثال هؤلاء لا جناح عليهن أن يحلمن خمرهن في بيوتهن .

### الاستئذان

والحد الآخر الذي قد وضعه الاسلام بهذا الصدد ، هو أنه قد

منع الذكور من أهل البيت أن يدخلوا البيوت بغير استئذان ، حتى لا يروا نساءم في حال لا ينبغي لهم رؤيتهن فيها «وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» (النور : ٥٩) . وقد أشير في هذه الآية أيضاً إلى علة الأمر ، وهي بلوغ الاطفال الحلم ، أي نشأة الشعور الجنسي في نفوسهم . فإذا أدرك الاطفال هذه السن ، وقع عليهم تكليف هذا الحكم ، ولا لزوم لطلبهم الإذن قبل ذلك .

وبجانب هذا ، أمر الأجانب ألا يدخلوا بيتاً إلا بإذن أهله : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا» . (النور : ٣٧) والقصد بذلك وضع الحد الفاصل بين داخل البيت وخارجه ، حتى يكون النساء والرجال في حياتهم المنزلية في مأمن من نظر الأجانب . وهذه الأحكام ما كادت العرب تفهم علتها بادية ذي بدء ، وربما كانوا يتناولون إلى البيوت من الخارج . ووقع ذلك للنبي ﷺ نفسه ذات مرة ، إذ اطلع رجل من حجر في حجر النبي ﷺ ، ومع النبي مدرى يحك به رأسه . فقال «لو أعلم أنك تنظر لطعنت به في عينك . إنما جعل الاستئذان من أجل البصر» (١) وأعلن النبي بعد ذلك : «من اطلع في بيت قوم بغير إذنه ، فقد حل لهم أن يفتقروا عينيه» (٢) . ثم أمر الرجال الأجانب ألا يدخلوا البيوت

(١) البخاري - كتاب الاستئذان

(٢) مسلم - باب تحريم النظر في بيت غيره

إذا سألوا أهلها شيئاً ، بل يسألونهم من وراء حجاب : « وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ . ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ » ( الاحزاب : ٥٣ ) وفي هذا المقام أيضاً قد أشير إلى علة الحكم بكلمات : « ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ » . فالقصد الرئيسي هو صَوْن النساء والرجال من النزعات والمحركات الشهوانية ، وما وضمت هذه الحدود والقيود إلا منعاً لاختلاط الرجال والنساء وارتفاع الكلفة فيما بينهم .

وهذه الأحكام لا تقتصر على الأجانب وحدهم ، بل يُطالب بها أيضاً خُدَمَةُ البيوت وخَوَلُهَا . فقد جاء في الآثار أن فاطمة رضي الله عنها لما ناولت أحد ابنها بلالاً أو أنساً قال رأيتُ كفتاً - أي لم ير وجهها (١) . ومن المعلوم أن كلا منهما كان خادماً خاصاً للنبي ﷺ ، وكان يمشي عنده كأحد أهله .

## منع الخلوة واللمس

والحد الثالث الذي قد وضعه الاسلام هو أنه لا يجوز لرجل أن يخلو بامرأة إلا أن يكون زوجها ولا أن يمسَّ جسمها ، وإن كان من أدنى أقاربها . عن عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّا كَرِهْنَا الدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ . فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَرَأَيْتَ الْحَمَمُ؟ قَالَ : الْحَمُورُ

---

(١) تكملة فتح القدير ج ٨ ص ٩٨ .



«الموت» (١) . وقال ﷺ : « لا تَلْجُوا عَلَى الْمَغْيِبَات . فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ أَحَدِكُمْ بِجَرَى الدَّم » (٢) . وعن عمرو بن العاص ، قال : نهانا رسول الله ﷺ أَنْ نَدْخُلَ عَلَى النِّسَاءِ بِغَيْرِ إِذْنِ أَزْوَاجِهِنَّ (٣) وقال ﷺ « لا يَدْخُلَنَّ رَجُلٌ بَعْدَ يَوْمِي هَذَا عَلَى مُغْيِبَةٍ إِلَّا وَمَعَهُ رَجُلٌ أَوْ اثْنَانِ » (٤) .

ومثل هذه الاحكام قد وردت في المس . فقال النبي ﷺ : « من مس "كف" امرأة ليس منها بسبيل ، وضع على كفه حجارة يوم القيامة » (٥) .

وعن عائشة رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا بَايَعَ النِّسَاءَ ، يَبَايِعُهُنَّ كَلَامًا ، وَلَا يَأْخُذُ أَيْدِيَهُنَّ فِي يَدِهِ . فَقَالَتْ : « لَا وَاللَّهِ مَا مَسَّتْ يَدُهُ يَدَ امْرَأَةٍ قَطَّ فِي الْمُبَايَعَةِ . مَا يَبَايِعُهُنَّ إِلَّا بِقَوْلِهِ : قَدْ بَايَعْتُكَ عَلَى ذَلِكَ » (٦) .

وعن أميمة بنت رقيقة قالت : أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي نِسْوَةٍ مِنَ الْأَنْصَارِ نَبَايَعَهُ ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ : نَبَايَعُكَ عَلَى أَنْ لَا نَشْرِكَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا نَسْرِقَ وَلَا نَزْنِيَ وَلَا نَأْتِيَ بَهْتَانٍ نَفْتَرِيهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا ، وَلَا نَعْصِيكَ فِي مَعْرُوفٍ . قَالَ : فِيمَ اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ . قَالَتْ : قُلْنَا اللَّهُ

(١) الترمذي: باب ما جاء في كراهية الدخول على المغيبات. البخاري: باب لا يخلون رجل بامرأة الا ذو محرم . مسلم : باب تحريم الخلوة بالأجنبية .

(٢) الترمذي : باب كراهية الدخول على المغيبات .

(٣) الترمذي: باب في النهي عن الدخول على النساء الا باذن أزواجهن .

(٤) مسلم: باب تحريم الخلوة بالأجنبية .

(٥) تكملة فتح القدير ج ٨ ص ٩٨ .

(٦) البخاري : باب بيعه النساء . ومسلم : باب كيفية بيعه النساء .

ورسوله أرحم بنا . هلمّ نبايعك يا رسول الله : فقال رسول الله ﷺ :  
 «إني لأصافح النساء . إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة» (١) .  
 وهذه الأحكام أيضاً تخصّ الشواب من النساء . وأما المجائز اللاتي  
 قد طعننّ في السنّ ، فتجوز الخلوة بهنّ ولا يُمنع من لمسهنّ . فيروى  
 عن أبي بكر رضي الله عنه أنه كان يزور قبيلة كان قد ارتضع فيها ،  
 فيصافح المجائز من تلك القبيلة . وقيل عن عبد الله بن الزبير رضي الله  
 عنه أنه استأجر عجوزاً لتمرّضه وكانت تغمز رجله وتفلي رأسه (٢) .  
 وهذا الفرق الذي جُمِعَ بين المجائز والشواب يدلّ بنفسه على أن المراد  
 بكل هذه الأحكام هو أن يمنع بين الصنفين من الاختلاط ما قد يكون  
 سبباً للفتنة .

### الفرق بين محارم المرأة وغيرهم

هذه من الأحكام التي تتناول كل الرجال إلا زوج المرأة - سواء  
 كانوا ذوي محرمها أم لا . فالمرأة لا يجوز لها أن تُظهر عورتها لأحد منهم  
 أي تكشف لهم عما سوى وجهها وبديها من أجزاء كما أن المرأة لا يجوز  
 له أن يُظهر عورته - أي يكشف ما بين سرته وركبته - لأحد . وجميع

(١) النسائي : باب يعة النساء وابن ماجه : باب يعة النساء .

(٢) تكملة فتح القدير ج ٨ ص ٩٨

الرجال يجب عليهم الاستئذان قبل أن يدخلوا البيوت. ولا يجوز لأحدهم أن يخلو بامرأة أو يمس جسمها (١).

ثم يميز الاسلام بين محارم المرأة وغيرهم. فقد فصل القول في القرآن والحديث عن مدارج الحرية والتبسط التي يجوز للمرأة أن تتمتع بها مع المحارم من رجال أسرتها، ولا يجوز لها ذلك مع غيرهم من الرجال. وهذه هو الذي يُعبّر عنه بالحجاب في عُرف الناس.

---

(١) هناك فرق بين ذوي المحرم وغيرهم في لمس جسم المرأة. فيجوز للأخ أن يمسك يد أخته ويركبها دابة. وبديهي أنه لا يحل ذلك لأحد من الرجال الأجانب. وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا انصرف عن سفر، يعاقق فاطمة رضي الله عنها ويقبل رأسها. وكذلك كان أبو بكر رضي الله عنه يقبل رأس عائشة رضي الله عنها.

## أحكام الحجاب

إن الآي القرآنية التي قد وردت فيها أحكام الحجاب مسرودة  
في مايلي :

« قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ  
وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ . ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ . إِنَّ اللَّهَ  
خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ  
يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ  
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا .  
وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ  
زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ  
بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ  
إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ

مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي  
 الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ  
 يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ . وَلَا يَضْرِبْنَ  
 بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ » .  
 (النور : ٣٠ - ٣١)

« يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ ! لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ .  
 إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ  
 الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ . وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا  
 وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ  
 الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى » . (الاحزاب : ٣٢ - ٣٣)

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ  
 وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ ، يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ  
 جَلَابِيبِهِنَّ . ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا  
 يُؤْذَيْنَ » . (الاحزاب : ٥٩)

تأمل هذه الآيات . فإن الرجال إنما أمروا فيها بأن يفضّوا من  
أبصارهم ، ويحفظوا من الفواحش اخلاقهم . ولكن النساء قد أمرن  
- كالرجال - بهذين الأمرين ، وأوصين بعد ذلك بأمور مزيدة في باب  
المعاشرة والسلوك العملي، مما يدلّ صريحاً على أنه لا يكفي لصيانة أخلاقهنّ  
العناية بغض البصر وحفظ الفروج، بل لابدّ لذلك من ضوابط أخرى غير  
ذلك . وانرجع في هذا المقام إلى آثار النبي ﷺ وصحابه رضوان الله  
عليهم، لتتظنّ كيف نفّذوا هذه الاحكام المُجمّلة في المجتمع الاسلامي،  
وماذا يُستنبط من أقوالهم وأفعالهم من التفاصيل المعنوية والعملية  
لهذه الاحكام .

### غضّ البصر

إن أول ما أمر به الرجال والنساء في هذا الباب هو الغضّ من  
أبصارهم . وترجم كلمة غضّ البصر إلى لغتنا الأردية عامة بمعاني خفض  
البصر وعدم رفعه من الارض . ولكن ليس هذا مقصود الامر الرباني  
بهذه الكلمة، بل المقصود اجتناب ما قد عبّر عنه في الحديث بزنى النظر.  
فاللذّذ برؤية جمال الاجنبيات وزينتهن هو مبعث الفتنة للرجال، كما أن  
الطموح بالبصر إلى الاجانب من الرجال هو مصدر الفتنة للنساء. من ههنا  
يصدر الفساد طبعاً وعادةً ، ولذلك قد سُدّ بابُه أوّل ما سُدّ من  
الابواب ، وهذا هو المراد بغضّ النظر .

على أنه ظاهر أنه ما دام الانسان فاتحاً عينيه في هذه الدنيا ، فلا بد أن يقع بصره على كل ما حوله من الاشياء والاشخاص . وليس في الامكان أن لا يرى الرجل امرأة أبداً ، ولا ترى المرأة رجلاً بحال . فقول الشارع عليه السلام في مثل هذا النظر : أنه إن وقع فجأة ، فلا إثم فيه . وإنها المحذور أن بعيد المرء نظره إلى حيث يستأنس الزينة والجمال ويجعله مرمى عينيه . عن جرير قال سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءة ، فقال : « اصرف بصرك » . (١) وعن بريدة : قال رسول الله ﷺ اعلي : « يا علي ! لا تتبع النظرة النظرة . فان لك الاولى وليس لك الآخرة . » (٢) وعن النبي ﷺ قال : « من نظر إلى محاسن امرأة أجنبية عن شهوة صب في عينيه الآنك (٣) يوم القيامة » (٤) .

على أنه قد يكون هناك من الاحايين ما يستدعي النظر إلى امرأة أجنبية . كأن ينظر الطبيب إلى مريضة ، أو ينظر القاضي إلى امرأة تحضر بين يديه شاهدة أو فريقاً في قضية ، أو تحصر امرأة في حريق أو تقع في لجأة فتشرف على الفرق ، أو يكون عرضها أو نفسها عرضة للخطر . ففي كل هذه الحالات يجوز النظر إلى عورة المرأة فضلاً عن وجهها ، ويجوز كذلك لمسها . بل إن احتضانها أيضاً - إذا كانت متعرضة للحرق أو

---

(١) أبو داود - ما يؤثر به من غض البصر .

(٢) نفس المصدر .

(٣) الآنك : الرصاص الذاب .

(٤) تكملة فتح القدير ج ٨ ص ٩٧ .

الفرق - ليس من الجائز خُصبُ ، بل هو واجب بالضرورة . وبأمر الشارع في هذه الاحوال أن يُخلصَ المرءُ نِيَّتَهُ من الفساد ما استطاع . ولكنه إن اختلجت في نفسه خلجة من الشهوة ، لمقتضي الطبع البشري فيه ، فلا جناح عليه فيه ، لأن مثل هذا النظر وهذا اللمس إنما دَعَتْهُ الضرورةُ ، وليس في مُكْنَةِ الانسان منع مقتضيات الفطرة بَتَّةَ (١) .

وكذلك النظر إلى الأجنبية ، بل إسفاف النظر اليها بقصد التزوج بها ، ليس بجائز خُصب ، بل هو مما ندب إليه في السنة ، وقد رأى النبي ﷺ نفسه امرأة بهذا القصد . وعن المغيرة بن شعبه أنه خطب امرأة فقال النبي ﷺ ، « انظر اليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » (٢) . وعن سهل بن سعد أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ : فقالت يا رسول الله جئت لأهـب لك نفسي . فنظر اليها رسول الله ﷺ ، فصعد النظر اليها (٣) وعن أبي هريرة ، قال : كنتُ عند النبي ﷺ فأناه رجل فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار . فقال له رسول الله ﷺ أنظرت اليها ؟ قال : لا . قال : « فاهـب فانظر اليها ، فإن في أعين الأنصار

---

(١) راجع لتفصيل هذا الموضوع تفسير الرازي لآية « قل المؤمنین یغضوا من أبصارهم » ، واحكام القرآن للجصاص في تفسير الآية المذكورة وتكملة فتح القدير - فصل في الوطء والنظر واللمس ، والمبسوط - كتاب الاستحسان .

(٢) الترمذي - ما جاء في النظر الى المخطوبة

(٣) البخاري - باب النظر الى المرأة قبل التزويج



شيئاً ، (١) . وعن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ : «إذا  
خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى  
نكاحها فليفعل» (٢)

فيعلم من التأمل في هذه الحالات الاستثنائية أنه ليس مقصود  
الشارع عليه السلام منع النظر مطلقاً ، بل المقصود سد ذريعة الفتنة ،  
ولذلك منع النظر الذي لا تدعو إليه حاجة ولا فيه للتمدن منفعة ، ثم  
فيه أسباب محركة لنزعات الشهوة في الانسان .

وهذا الحكم موجه إلى الرجال وإلى النساء على حد سواء فقد  
أخرج الترمذي في سننه عن أم سلمة رضي الله عنها أنها كانت عند رسول  
الله ﷺ وميمونة (٣) . قالت : فبينما نحن عنده أقبل ابن أم مكتوم ،  
فدخل عليه ، وذلك بعد ما أمرنا بالحجاب فقال رسول الله ﷺ : احتجبا  
منه فقلت : يا رسول الله ! أليس هو أعمى ، لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟  
فقال رسول الله ﷺ : أفعميا وان أنتما ؟ ألستما تبصرانه ؟ (٤)

على أن هناك فرقاً دقيقاً بين نظر المرأة إلى الرجل ونظر الرجل  
إلى النساء من حيث الخصائص النفسية للصنفين . وذلك أن في طبيعة

---

(١) مسلم - باب نذب من أراد نكاح امرأة الى أن ينظر الى وجهها

(٢) ابو داود - باب في الرجل ينظر الى المرأة وهو يريد تزويجها .

(٣) وفي رواية عائشة رضي الله عنها

(٤) الترمذي - باب ما جاء في احتجاب النساء من الرجال .

الرجل الاقدام ، فهو إذا أحب شيئاً ، يسعى في إحرازه والوصول اليه . ولكن في طبيعة المرأة التمتع والفرار ، وهي مادامت على فطرتها لم تنسلخ منها ، لا يمكن أن يكون فيها من الجراءة والوقاحة والاقدام ما تقدم به بنفسها إلى شيء تحبه وتمجب به . وقد راعى الشارع عليه السلام هذا الفرق بين طبعي الصنفين . فلم يشدد في النهي عن نظر المرأة إلى الاجني تشديده في النهي عن نظر الرجل إلى الاجنبية . وقد اشتهر حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أراها لعب الحبشة بجرابهم في المسجد<sup>(١)</sup> مما يفيد أنه ليس نظر النساء إلى الرجال بمحظور على الإطلاق . وإما المكروه اجتماع النساء والرجال في مجلس وتحديق بعضهم إلى بعض . وأيضاً لا يجوز من النظر ما يخاف منه الفتنة . فذلك الصحابي - ابن أم مكتوم - الذي كان أمر النبي ﷺ زوجته أم سلمة بالاحتجاب منه ، أمر فاطمة بنت قيس بقضاء عدتها في بيته . وذلك أنه لما طلقها زوجها أمرها رسول

---

(١) هذا الحديث قد أخرجه البخاري ومسلم والنسائي وأحمد عن عائشة رضي الله عنها ، من طرق أربعة ، يزيد بعضهم على بعض . وقد ذهب بعضهم في تأويله إلى أنه وقع هذا في أيام كانت أم المؤمنين حديثه السن فيها ، وذلك قبل أن تنزل آية الحجاب . إلا أنه صرح ابن حبان أنه وقع ذلك حينما قدم إلى المدينة وفد من الحبشة . وكان قدومه سنة سبع من الهجرة ، حسبما يدل عليه التاريخ . وعلى هذا كانت عائشة رضي الله عنها حينذاك بنت خمسة عشر أو ستة عشر . ثم مما رواه البخاري أن كان النبي صلى الله عليه وسلم يسترها بردائه وهو يريها ذلك اللعب . فيضح منه أن أحكام الحجاب كانت قد نزلت حينذاك .

ﷺ أن تمتد في بيت أم شريك الانصارية . ثم قال : و ان تلك  
 امرأة يغشاها أصحابي ، اعتدي في بيت ابن أم مكتوم ، فانه رجل أعمى  
 تضعين ثيابك<sup>(١)</sup> فالقصد الحقيقي إذن من مثل هذه الاحكام هو التقليل  
 من مظان الفتنة . ولذلك منع النبي فاطمة بنت قيس من أن تعيش في  
 بيت كان إمكان الفتنة فيه أكثر وأذن لها أن تقيم حيث كان امكانها أقل  
 والمرأة لم يكن لها بد من بيت تقيم فيه . ولكنه نهى النساء أن يجتمعن  
 برجل أجنبي ويرينه وجهاً لوجهٍ حيث لا ضرورة تدعو إليه وتسألزمه .

كل هذه المدارج من الاحكام صادرة عن الحكمة . ومن أوتي من  
 البصر النافذ ما يدرك به معزى الشرع ، يستطيع أن يفهم بكل سهولة  
 أي المصالح بنيت عليها أحكام غصّ البصر ، وعلى أي الامور يقف  
 التشديد والتخفيف في هذه الاحكام اعتباراً لتلك المصالح . فالقصد  
 الحقيقي عند الشارع عليه السلام إنما هو منع الناس من النظرة الآثمة ،  
 وليس له على أعينهم من ثأر . فان هذه الاعين ربها نظرت باديء ذي  
 بدء بنظرات بريئة . وجاء شيطان النفس بحُججٍ خادعة لتبريرها وناجي  
 المرء أنه ليست نظراته تلك إلى الغيد الحسان إلا ذوقاً للجهل قد أودعته  
 الفطرة إياه . وإذا كان من المباح له أن يجتلي سائر مظاهر الجمال  
 الطبيعي ويمجد فيها لذة ظاهرة ، فأى جناح عليه أن يمتنع نظره برؤية

---

(١) مسلم وأبو داود

الجمال الانساني ويستمدّ منه لذةٌ روحيةٌ. ولكن هذا الشيطان يمضي يُرهبه في نفس الانسان هذا النزوع إلى التمتع والتلذّذ ، حتى يعود التدوُّق للجهال شوقاً إلى الوصال. ومَن ذا الذي يُكابر في أن كل ما قد حصل في الدنيا إلى هذا اليوم ، ولا يزال يحدث فيها من الفحشاء والفجور ، باعته الاول الاعظم هو فتنة النظر هذه؟ ومَن ذا يدّعي بصدقٍ أنه يجد في نفسه برؤية الشباب والجمال في الصنف الخائف ما يجده بمرأى وردة في الروض ؟ وإذا كان بين هذا وذاك فرق ، وكان النظر إلى الجمال الانساني بخلاف النظر إلى الجمال الطبيعي مبعثَ الشهوة في النفوس ، فأدّسى بحقّ لأحد القول بضرورة الحرية في هذا النوع من التدوُّق للجهال مثل الحرية الحاصلة في ذاك . إن الشارع لا يُريد أن يُذهب عن نفوسكم هذا الذوق الجمالي ، وإنما هو يقول لكم أن اختاروا لانفسكم زوجاً يُعجبكم ويروقكم ، ثم اجعلوه وحده مركزاً لكل ما أوتيت من هذا الذوق ومتّبعوا به أنفسكم حسبما شئتم ، ولا تميلوا عنه إلى سواء تُتبعونه النظر الرغبة فانكم إن فعلتم تلوّثتم بالفواحش . وإن لم تتلوّثوا بأدناس الفوضى العملية لضبطكم نفوسكم أو لموانع أخرى من حولكم ، لم تسلموا ولا شك من ضلال الفكر وشروده ، فيضيع معظم قوتكم من طريق نظركم ، وتدنس قلوبكم بالاهف على كثير من اللذات الآثمة التي تحجب فيها أمانيتكم ، وتقعون في حبال الهوى مُعيدين ومُبدئين ، وتقضون كثيراً من الليالي في اليقظة حالمين . ثم تجدون في أنفسكم مثل لدغ الحية أو مثل

حر الجمر من عشق كثير من الغيد الفاقات ، ويضيع أكثر حيويته في خفقان القلب وهيجان الدم ! .. وما ظنك بهذه الخسارة ، أتاها هي ؟ وهي لا تجرّها كلها على نفسك إلا بصرفك النظر عن مركزه الشرعي . فما أجدرّك إذاً بأن تحمّ من شرود ناظرِك وتحذر النظر بدون حاجة ، وتجنب النظرة التي تكون مظنة الفتنة . أما إن كانت هناك ضرورة تستلزم هذه النظرة ، أو كانت فيها منفعة للتمدّن ، فهي مباحة على الرعم من إمكان الفتنة . وأما إذا لم يكن هناك ضرورة تدعو إلى النظر ، ولكن لم يكن فيه ما يُخفى منه وقوع الفتنة ، فعندئذٍ يجوز نظر المرأة إلى الرجل ، ولا يجوز نظر الرجل إلى المرأة ، إلا أن يكون نظر فجاءة .

### منع إبداء الزينة ومروءها

كان حكم غضّ البصر موجّهاً إلى كلا الصنفين - الرجل والمرأة - وهناك بعد ذلك أحكام تخصّ المرأة وحدها . وأولها أن تجتنب إبداء الزينة إلا في دائرة معينة .

وقبل أن يتأمّل القارئ مقاصد هذا الحكم وتفاصيله ، يجدر به أن يستعرض في ذهنه تلك الأحكام التي قد مرّت في باب اللباس وستر المورات . فكل جسم المرأة إلا وجهها ويديها عورة لا يحلّ لها كشفها .

حتى لأبها أو عمها أو أخيها أو ابنها. ولا يجوز للمرأة أن تكشف عورتها حتى للمرأة مثلها (١). فإذا جمعت هذا بوعي منك . فدونك الآن حدود إبداء الزينة :

١ - قد أبيع للمرأة أن تبدي زينتها للرجال الآتي ذكرهم من أقاربها : الزوج والاب والحمو ( أبو الزوج ) والابناء وأبناء الزوج ، والاخوة وأبناء الاخت.

٢ - وكذلك أبيع لها ان تبدي زينتها لما ملكت يمينها أي عبيدها وإمائها .

٣ - وأيضاً يجوز لها أن تخرج في زينتها أمام من هو تابع لها وتحت سيادتهما من الرجال ، وليسوا ممن يملون إلى النساء ميلاً شهنياً (٢).

---

(١) حرام على المرأة النظر إلى ما بين السرة والركبة من المرأة الاخرى ، كما أنه حرام على الرجل النظر الى ذلك من الرجل الآخر .

( ٢ ) يكتب الحافظ ابن كثير في تفسير الاية : « أو التابعين غير أولي الاربة من الرجال » : أي الأجراء والتابع الذين ليسوا بأكفاه وهم مع ذلك في عقولهم وله . ولا م لهم الى النساء ولا يشتهونهن ( تفسير ابن كثير ٣ : ٢٨٥ )

ولمدم الميلان الى النساء في هؤلاء الرجال وجهان : أولها ان يكونوا فاقدي الشهوة تماماً ، كالشيوخ المعنين في السن ، او ضعفاء العقول والبله او الخنائي بالخلفة . والثاني ان تكون الفحولة والميل الطبيعي الى النساء موجودا فيهم ، ولكنهم اذلهم وخضوعهم لا يتجرؤون على ان يملقوا ميولهم الشهوانية بنساء البيت الذي هم فيه خدمة او أجراء او يدخلونه سائلين مستعدين . وكلا هذين النوعين يدخل تحت حكم =

٤ - ولها أن تبدي زينتها لاطفال لم يظهروا على عورات النساء ، أي الاطفال الذين لم ينبت فيهم الشعور الجنسي .

٥ - ويجوز لها أن تخرج في زينتها لبنات جنسها من النساء . ولم يقل

---

=التابعين غير أولي الاربة من الرجال. ولكنه مما يجب ألا يففل عنه، ان يكون جميع امثال هؤلاء الذين يؤذن للنساء ببدء الزينة لهم ، متصفين بصفين حتيا ولازما : أولاها ان يكونوا تبعاً للبيت الذي يدخلون على نسائه . والثانية ان لا يكون من الممكن وقوع التزعة الشهوانية في أنفسهم الى نساء البيت . ولقوام الاسرة ان ينظر في أمر التابعين الذين قد أذن لهم بالدخول على نسائه ، هل يصح فيهم ظنه الذي ظنه في بادى الامر من كونهم غير أولي الاربة . وإن بداله منهم بعد الاذن الاول مايدل على انهم من أولي الاربة فعليه ان يلقي ذلك الاذن . وأوفق النظائر في هذا الباب امر ذلك الخنث الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم قد اذنه بالدخول على نساء البيوت ولكنه بعد امر بدا له منه ، منعه من دخول البيوت ، بل قناه من المدينة . ويدان ذلك ان كان في المدينة رجل مخنث يدخل على امهات المؤمنين . وينا هو يوماً عند ام سلمة رضي الله عنها يكلم اخاها عبد الله . اذ دخل النبي صلى الله عليه وسلم ومعه يقول له : ان فتح الله عليكم الطائف غداً ، فملك بيادية بنت غيلان الثقفي ، فانها اذا اقبلت اقبلت بأربع ، واذا أدبرت أدبرت بثان . ثم وصف عورتها بعد ذلك بكلمة جد خبيثة . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد غفلت النظر اليها يا عدو الله ! ثم قال لأزواجه: الا ارى هذا يعلم ما هاهنا فلا يدخلن عليكن هذا . فحجبوه عن البيوت . ثم لم يكف بذلك ، بل امره بالخروج من المدينة الى اليبداء . لأن الوصف الذي وصف به عورة بنت غيلان ، اخذ منه النبي صلى الله عليه وسلم ان النساء يتبسطن معه لحنته وتأثته ، كتسطنهن مع بنات جنسهن من النساء . وبذلك يطلع هذا على احوالهن واسرارهن . ثم يصفها للرجال ، وذلك مما يخشى منه الفتنة . [ انظر بذل المجهود ( شرح ابن داود ) ، كتاب اللباس - باب ما جاء في قوله تعالى غير اولي الاربة من الرجال ] .

الله تعالى : ( النساء ) ، بل قال ( نسائهن ) . وظاهر أن المراد بهن "النساء  
 المفقيات، أو اللاتي هن من قبيلتها أو قرابتها أو طبقتهما. وأما من سواهن  
 من عامة النساء اللاتي تكون فيهن كلُّ محاولة الحال والميسرة ، وذات  
 الرية والسُّخمة القبيحة، فيخرجن عن مراد هذا الحكم ، لأن هؤلاء  
 أيضاً قد يكنّ سبباً للفتنة ، ولهذا لما دخل المسلمون بلاد الشام وجعلت  
 نساؤهم يختلطن بنساء النصارى واليهود ، كتب عمر رضي الله عنه إلى  
 أبي عبيدة بن الجراح والي الشام : أما بعد فقد بلغني أن نساء من نساء  
 المسلمين يدخلن الحمامات ومعهن نساء أهل الكتاب . فامنع ذلك وحل  
 دونه (١) . وقد صرح ابن عباس رضي الله عنه أنه ليس للمسلمة أن  
 تتجرد بين نساء أهل الذمّة . ولا أن تبدي للكافرة إلا ما تبدي  
 للجانِب (٢) . وهذا الحكم لا يقصد به التفريق بين النساء على اعتبار  
 ديني . وإنما المقصود به صون المسلمات من مقامد عشرة النساء اللاتي لا  
 يعرف شيء من أخلاقهن وآدابهن . أو قد عرف منها ما لا يرضي الإسلام .  
 وأما الشريقات وذوات العفة والحياء من غير المسلمات ، فلا جرم أنهن  
 يدخلن في حكم ( نسائهن ) من الآية المذكورة .

وبتأمل هذه الحدود يستنتج المرء أمرين اثنين :

أولهما : أن الزينة التي قد رخص للمرأة في إبدائها في دائرة معينة ،

---

(١) انظر تفسير ابن كثير للآية المذكورة .

(٢) التفسير الكبير - الآية المذكورة .



هي ما سوى عورة المرأة . والمراد بها : لبس الحلي والتجمل باللباس ، والتكحل والتحنؤ وتحسين الشعر ، وما إليها من أنواع الزينة الأخرى التي تتخذها النساء عادة في البيوت لاقتضاء أنوثتهن .

والثاني : أنه قد رخص لمن في إبداء مثل هذه الزينة إما لرجال البيت الذين قد حرمتهم الحرمة الأبدية عليهم ، أو للتابعين الذين ليس لهم فيهن شهوة ولا في أخلاقهم من ريبة . فلذلك من الشروط للدخالات عليهم من النساء : أن يكن من ( نسائهن ) وللداخلين عليهم من الخول والاتباع أن يكونوا ( غير أولي الإربة ) وللأطفال أن يكونوا ممن ( لم يظهروا على عورات النساء ) . مما يعلم منه أن مقصود الشارع هو تحديد إبداء النساء لزيتهن في حلقة لا يخرى فيها أن تمت زيتهن وجمالهن عواطف سوء في القلوب أو تهىء أسباباً للفوضى الجنسية .

وأما من هو خارج هذه الحلقة من الرجال . فقد ورد النهي عن أن يبدن لهم زيتهن . بل قد حُظر عليهم حتى أن يضربن بأرجلهن في المشي ، لكي لا يظهر بالصوت ما خفي من زيتهن ، فتتوجه الانظار اليهن . وإن الزينة التي قد أمرن باخفائها عن الأجانب ، هي التي قد أجاز لمن إبدائها في دائرة محدودة ذكرت آنفاً . والمقصود بهذا كله واضح مستبين وهو أن النساء إن ظهرن في زيتهن وجمالهن على الذين فيهن الشهوة الجنسية ، ولم تحوّل الحرمة الأبدية دواعي هذه الشهوة فيهم إلى العواطف البريئة المطهرة ، فلا بد أن يكون من عواقبه ما يقتضيه الطبع البشري . ولسنا

نقول إن إبداء النساء لزيتهن على هذا النحو سيجعل من كل امرأة تاهرة<sup>٢</sup> ومن كل رجل فاجراً ، إلا أنه مما لا يستطيع أحد أن ينكره أن في خروج النساء متبرجات ، وفي حضورهن النوادي والحفلات مسافراتٍ مالا يعد ولا يحصى من خسائر نفسية ومادية ، ظاهرة وخفية وها هو - بين يديك - مثل النساء الاوريات والاميركيات اللاتي يهلكن اليوم معظم دخل أزواجهن في زيتهن . وإسرافهن هذا إلى الزيادة والتفاحش يوماً بعد يوم ، حتى كادت تضيق عنه وسائل رزقهم<sup>(١)</sup> فهل في رأيك من باعث لهذا الجنون إلا تلك النظرات المتشوقة التي تستقبل النساء المتبرجات في الاسواق والمكاتب وحفلات المجتمع؟ ثم تأمل ماهو السبب في انبعاث هذا الشوق المفرط في النساء إلى التجميل والتأنق، وانتشاره فيهن كاتسار الداء والوباء أليس هو حرصهن على أن يحلن في أعين الرجال ويقمن منهم موقع الاعجاب والاستحسان<sup>(٢)</sup>؟ ولماذا هذا كله؟ هل هي نزعة بريئة منزهة؟ وهل ليس في مطاويها الشهوات الجنسية الطاغية التي تكاد تتجاوز حدودها الطبيعية وتنتشر ، وتقابلها في الصنف الآخر شهوات مثلها تريد

---

(١) قد انعقد منذ عهد قريب معرض لصانعي الادوات الكيماوية ، وعلم من بيانات الاخصائيين فيه ان نساء انكلترا تنفق عشرين مليون جنيه ، ونساء اميركا مائة وخمسة وعشرين مليون جنيه على أدوات زيتهن كل سنة . وان ٩٠ في المائة من النساء قد تعودن نوعاً من انواع الزخرفة والتجميل (Make up) .

(٢) وقد بلغ من هيام النساء بتكلف هذا الجلال ان قد عدن يبدلن في سبيله حتى أنفسهن . فغاية ما تتمناه إحداهن ان تكون هضماً خمساناً لا تتركب جسمها مضغة =

أن تستجيب لمطالبها. إنك إن أنكرت هذه الحقيقة فلنأني بك تفكر غداً

=لم زائدة . وما من فتاة اليوم إلا ومهما ان تحبل تقطع جسمها مطابقاً لما قد قرره  
الاحصائيون من المقاييس (Measurements) للصدر والخصر والساق والوركين .  
كأن الشقية لا ترى لحياتها غاية ومقصوداً سوى ان تحلو في عين الذكور . وليلوغ هذه  
الغاية تتجوع المسكينة وتحرم نفسها الغذاء الشهوي المنمي ، وتجترى بصير الليمون والقهوة  
المرّة وما شاكلها من الاغذية اللطيفة . ثم تستعمل من العقاقير بدون مشورة طبيب ،  
بل بخلاف مشورته ما يهزلها ويضمهرها . وقد بقي ولا يزال يفضي هذا الجنون بكثير  
من النساء الى الهلاك . في بودابست ماتت الممثلة الشهيرة (جوسي لابس ) عام  
١٩٣٧ ، بوقوف حركة قلبها فجأة . ودل التحقيق في امرها بعد ، انها كانت  
لا تزال تعيش عيشة الفاقة والسغب منذ أعوام . وكانت تستعمل العقاقير الموصفة  
(Parent) لتخفيف الجسم ، حتى خانتها قواها فأتت . وتوات في بودابست نفسها  
ثلاثة احداث من هذا القبيل . إذ ذهبت ( ماجدا برسيلي ) التي كانت لكمال فنها  
ذائعة الصيت في المجر ضحية لهذا الهيام . وحدث للفضية ( لوتيسازابو ) التي سارت  
اغانيتها مسير الشمس ، أن خرت صريعة على المسرح وهي تمثل أمام النظارة . وكانت  
هذه تظل في حزن دائم على ان جسمها لا ينطبق على المقاييس المصرية للجمال ،  
فكانت تتخذ التدابير المتصنعة لحل مشكلتها تلك ، حتى قصت من وزنها بقدر ستين  
رطلاً . وكان من نتائج ان ضعف قلبها جداً ، فسقطت رمية لعشاق الجمال وتبعثها في  
ذاك ممثلة أخرى ( أيمولا ) بالفت في التخفيف من جسمها بالتدابير المتصنعة الى ان  
أصبحت في عقلها بالحبل الدائم ، فأخذت طريقها الى مستشفى المجانين بدلاً من منصة  
المسرح . وهوؤلاء إنما كن من الشخصيات البارزة ، فقرأنا أخبارهن في الجرائد  
ومن يدري كأين من النفوس المنمورة يقضي عليها أو يخرب صحتها هذا الجنون من  
التجمل والتحالي في أعين الرجال ؟ ! قل لي ربك : هل هذا كله حرية المرأة أو  
عبوديتها ؟ وما هذه الحرية الزائفة التي قد زادت من استيلاء أهواء الرجال عليها ،  
وابتلتن باستعباد قد حرمن معه الحرية حتى في الاكل والشرب والمتع بالصحة ،  
وعادت كل حياتهن وممانتهن مقصوداً به الرجال !

أن يكون هناك في جوف البركان الذي يصعد منه الدخان مادة نارية تكاد تنفجر منه . إنك يا صاح حرّ في عملك ، مختار فيما تأخذ أو تترك . ولكن ليس لك أن تفكر الحقائق . إن هذه الحقائق لم تعد خافية ، بل أصبحت معلومة معروفة بنتائجها التي تتجلى اليوم كالشمس ليس دونها غمام . وقد يكون لك أن تقبل هذه النتائج لنفسك ، بشعور منك أو عدم شعور ، ولكن الاسلام يريد أن يحد فتنها في إبان نشوئها . لأنه لا ينحصر نظره في مبدأ إبداء الزينة الذي يكون في ظاهره بريئاً من الريبة ، بل يتعداه إلى منتهاه الذي لا يخلو من الريبة والفساد، ويعم المجتمع بمثل ظلمة يوم القيامة . « مثل الرافلة في الزينة كمثل ظلمة يوم القيامة لانور لها ، » (١)

وبينا ينهى القرآن عن إبداء الزينة للأجانب، إذ يستثني منها (إلا مظهر منها) . والمراد به الزينة التي تظهر بنفسها على الرغم من إرادة المرء . وقد حاول خلق من الناس أن يستخرجوا من هذا الاستثناء كثيراً من الفوائد . ولكن المشكلة أن هذه الكلمات لا تتسع لكل ما تشتهي أنفسهم، لأنها إنما يريد بها الشارع، مخاطباً النساء، أن لا تبدين زينتك للأجانب عن قصدٍ وإرادةٍ . وأما الذي يظهر منها بعد ذلك من نفسه، أو يبقى ظاهراً لدواعي الضرورة ، فلا جناح فيه عليكن . والمراد واضح كل الوضوح ، وهو أن لا تكون نيتكن إبداء الزينة ولا يكون في أنفسكن أن تُظهرن

---

(١) الترمذي - باب ما جاء في كراهية خروج النساء في الزينة .

محاسنكن على الأجانب ، أو أن تستملنهم إلى أنفسكن بوسواس الحلي الخفي ، إن لم يكن أكثر ، بل يجب أن تجهـدن لإخفاء زينتكـن ما وممكن الجهد. ثم إن ظهر منها بعد ذلك شيء بداعية الضرورة ، فلا يؤاخذكن الله عليه . وذلك أن الثياب التي تسترن بها زينتكـن لابد أن تظهر ، وتظهر فيها أيضاً قامتكن وهندامكن ، كما لابد أن تضطرن إلى أن تكشفن أيديكن أو جزءاً من أجسامكن لقضاء حاجاتكن . فـكل ذلك لاجتـاح فيه عليكن ، لأنكن لم تعتمدنه بل اضطررتن اليه . وإن كان هناك من شياطين الإنس من يتمتع حتى بهذا الجزء اليسير الذي يظهر من زينتكـن فلا تبالين به . إنه سيلقى وبال نيته الفاسدة بنفسه . أما أنتن فقد قُمتن بما كان عليكن من واجب حفظ التمدن والأخلاق .

هذا هو المفهوم الصحيح لهذه الآية الكريمة . وإذا تأملت كل ما روي من الاختلاف بين المفسرين في هذا المفهوم علمت أن أقوالهم جميعاً لا تُفيد - على ما بينها من الخلاف - إلا ما قلناه آنفاً .

فقد ذهب ابن مسعود وإبراهيم النخعي والحسن البصري ، إلى أن المراد بالزينة الظاهرة هو الثياب التي تُخفي بها الزينة الباطنة ، كالرداء والنقاب .

وقال ابن عباس ومجاهد وعطاء وابن عمر وأنس والضحاك وسعيد بن جبير والأوزاعي ، وعامة الحنفية أن المراد بها الوجه واليدان .

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْإِسْتِثْنَاءِ أَيْضاً مَا كَانَ مِنَ الزَّيْنَةِ فِي وَجْهِ الْمَرْأَةِ وَبَدْيِهَا ،  
كَكَحْلِ الْعَيْنِ وَخَضَابِ الْكَفِّ وَالْخَاتَمِ .

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ قَالَ : وَجْهَهَا نَمَاءٌ ( ظَهَرَ مِنْهَا ) وَيُرَوَّى عَنْ  
الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ قَوْلُ يُوَيِّدُهُ .

وَتَمِيلُ عَائِشَةُ زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى إِخْفَاءِ الْوَجْهِ . فَتَذْهَبُ إِلَى أَنَّ  
الْمُرَادَ بِالزَّيْنَةِ الظَّاهِرَةِ هُوَ الْيَدَانِ وَمَا فِيهِمَا مِنَ الزَّيْنَةِ كَالْقَلْبِ وَالْفَتْخَةِ .

وَيُبَيِّحُ مِسْوَرُ بْنُ مَخْرَمَةَ كَشْفَ الْيَدَيْنِ بِزِينَتِهِمَا كَالْخَوَاتِمِ  
وَالْقُلُوبَيْنِ أَوْ السَّوَارِيِّنَ . وَلَكِنَّهُ يُفْهَمُ مِنْ أَقْوَالِهِمَا فِي بَابِ الْوَجْهِ أَنَّهَا  
لَا يُجَوِّزَانِ إِلَّا كَشْفَ الْعَيْنَيْنِ مِنْهُ (١) .

وَتَدْبُرُ حَقِيقَةُ هَذَا الْاِخْتِلَافِ بَيْنَ الْمَفْسَرِينَ إِنْ هُوَ لَاءٌ جَمِيعاً قَدْ فُهِمُوا  
مِنْ قَوْلِ ( إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ) أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَبَاحَ لِلْمَرْأَةِ إِدْءَاءَ زِينَةِ تَظْهَرُ  
عَلَى الرِّغْمِ مِنْ إِرَادَتِهَا ، أَوْ تَدْعُو الْضَرُورَةَ إِلَى إِدْءَائِهَا . أَمَّا أَنْ تَعْرِضَ  
الْمَرْأَةُ وَجْهَهَا وَبَدْيَهَا عَرَضاً يَسْتَمِيلُ الْإِنْفَازَ ، فَلَمْ يُرَدِّ أَحَدٌ مِنْهُمْ . وَإِنَّمَا  
كَلَّمَهُمْ قَدْ اجْتَهَدَ أَنْ يُفْهَمَ ، حَسَبَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْفَهْمِ وَحَسَبَ ارْتِئَاءَ مَنْ حَاجَتِ  
النِّسَاءُ : أَيُّ شَيْءٍ تَدْعُو الْحَاجَةَ إِلَى كَشْفِهِ وَإِلَى أَيِّ حَدٍّ تَسْتَلْزِمُ كَشْفَهُ ؟  
وَأَيُّ شَيْءٍ قَدْ يَظْهَرُ بِالضَّرُورَةِ ، أَوْ هُوَ يَظْهَرُ أَبَدًا فِي عَامَةِ الْأَحْوَالِ ؟ وَبِحَسَبِ ذَلِكَ  
أَدْلَى بِرَأْيِهِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ . عَلَى أَنَّنَا نَقُولُ فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنَّ لَا تَقْيِيدُوا اسْتِثْنَاءَ ( إِلَّا )

---

(١) كُلُّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ قَدْ قُلْتُ مِنْ تَفْسِيرِ ابْنِ جَرِيرٍ الطَّبْرِيِّ وَأَحْكَامِ الْقُرْآنِ لِلْجِصَّاصِ

ماظهر منها) بأمر من تلك الامور ، بل دعوا المرأة المؤمنة التي تريد أن تتبع أحكام الله تعالى ورسوله ، ولا ترضى الوقوع في الفتنه ، تحكم بنفسها بحسب أحوالها وحوادثها : هل تكشف الوجه أم تستره ، وإن كشفتته في بعض الحالات ، فمتى تكشفه ومتى لا تكشفه ؟ ثم أي جزء منه تكشفه وأي جزء تخفيه ؟ إن الشارع لم يرد عنه في هذا الباب أحكام قاطمة صريحة . ولا من مقتضى الحكمة ، نظراً لاختلاف الاحوال والحاجات ، أن توضع فيه أحكام قاطمة متصلبة . وذلك أن المرأة التي تضطر إلى الخروج لبعض شؤونها وللمعمل خارج بيتها ، لا بد أن تحملها الضرورة على كشف اليدين وكشف الوجه أيضاً . ومثل هذه المرأة قد رخص لها في الأمر حسب ما تستوجه حاجتها وضرورتها . وأما المرأة التي ليس بها شيء من تلك الحاجات ، فلا يصح لها أن تكشف شيئاً منها عمداً بلا حاجة .

فمقصود الشارع إذاً انه إن كشفت المرأة شيئاً من نفسها إظهاراً لحسنها وجمالها ، فهو إثم . وإن ظهر منها شيء بنفسه بدون أن تعتمد إظهاره ، فلا جناح فيه عليها . وإن دعت الحاجة الحقيقية إلى كشف شيء ، بخلاف ومباح كشفه . وأما السؤال عن الوجه على الأخص ، - بصرف النظر عن اختلاف الاحوال - هل يجب الشارع كشفه أو لا يجب ؟ وهل يجوز لإبداءه كضرورة لامناس منها ، أم ليس الوجه عنده مما يجب

إخفاؤه من الأجانب ؟ فتهدى في كل هذه الأسئلة آية الحجاب الآتية  
من سورة الأحزاب :

### حكم الوجه

والآية هي: « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ! قُلْ لَأَزُودَ أَجْرَكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ  
الْمُؤْمِنِينَ ، يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبٍ » ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ  
يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ، ( الأحزاب : ٥٩ ) فهي زلت خاصة في ستر  
الوجه. (الجلابيب) جمع جلباب وهو الثوب الواسع أو الخمار أو الرداء.  
و ( يُدْنِينَ ) أي يرخين . فمعنى الآية بالحرف : أن يُرخين جانباً من  
خمرهن أو ثيابهن على أنفسهن. وهذا هو المفهوم من ( ضَرَبَ الخمار على  
الوجه ) والمقصود به ستر الوجه وإخفاؤه ، سواء كان بضرب الخمار أو  
بلبس النقاب ، أو بطريقة أخرى غيره . وقد ذكرت الآية من مصالحه  
أن المسلمات إذا خرجن من بيوتهن مستترات على هذا النحو ، علم أهل  
الريبة من الناس أنهن شريفات ، لا إماء ولا متبذلات ، فلم يتعرض  
لهنّ منهم أحدٌ .

وجميع المفسرين قد ذهبوا هذا المذهب في تفسير هذه الآية. فيروى  
عن ابن عباس رضي الله عنه قوله : « أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن  
من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق بالجلابيب »<sup>(١)</sup> وعن

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري - ج ٢٢ / ٢٩



ابن سيرين قال : « سألت عبيدة بن سفيان بن الحارث الحضرمي عن قوله تعالى : « قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ وَبَنَاتِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيسٍ » . قال فقال بشوبه ، فغطى رأسه ووجهه وأبرز ثوبه عن إحدى عينيه » . (١) ويقول العلامة ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية : « يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين لا تتشبهن بالأماء إذا هن خرجن من بيوتهن لحاجتهن ، فكشفن شعورهن ووجوههن ، ولكن يدنين عليهن من جلابيبن اثلا يمرض لهن فاسق إذا علم أنهن حرائر ، بأذى من قول . (٢) ويكتب العلامة أبو بكر الجصاص : « في هذه الآية دلالة عن أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها عن الاجنبيتين وإظهار الستر والعفاف عند الخروج لثلاث طمع أهل الریب فيهن » . (٣) وعن العلامة النيسابوري في تفسير هذه الآية : كانت النساء في أول الاسلام على عادتهن في الجاهلية متبذلات يبرزن في درع وخمار من غير فصل بين الحرّة والأمة . فأمرن بلبس الأردية وستر الرأس والوجوه . ( ذلك ) الإدناء ( أدنى ) وأقرب الى ( أن يُعرفن ) أنهن حرائر ، أو أنهن لسن بزانيات ، فإن التي ستورت وجهها أولى بأن تستر عورتها . (٤) ويكتب الامام فخرالدين الرازي :

(١) تفسير الطبري ٢٢/٢٩ ؛ احكام القرآن للجصاص - ٥٧/٣

(٢) تفسير الطبري - ٢٩/٢٢

(٣) احكام القرآن - ٥٨/٣

(٤) تفسير غرائب القرآن على حاشية ابن جرير الطبري ج ٢٢/٣٢

« وكان في الجاهلية تخرج الحرّة والامة مكشوفات يتبعهن الزناة وتقع  
 التهم . فأمر الله الحرائر بالتجلّيب . وقوله تعالى ( ذَلِكْ أَذْنٰى اَنْ  
 يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ) قيل يُعرفن أنهن حرائر فلا يُتبعن . ويمكن  
 أن يقال : المراد يُعرفن أنهن لا يزني . لأن من تستر وجهها مع أنه ليس  
 بمورة (١) ، لا يطمع فيها أنها تكشف عورتها، فيعرفن أنهن مستورات  
 لا يمكن طلب الزنى منهن . (٢) ويكتب القاضي البيضاوي : « يُدْنَيْنَ  
 عليهنَّ مَنْ جَلَّ بِبَيِّنَةٍ : أي يغطّين وجوههن وأبدانهن بلاحقهنَّ ،  
 اذا برزن الحاجة . و ( مِنْ ) للتبعض . فإن المرأة تُرخي بعض جلبابها  
 وتلفع ببعض . ذَلِكْ أَذْنٰى اَنْ يُعْرَفْنَ : يُمَيِّزْنَ مِنَ الاماء والقينات .  
 فلا يؤذِن : فلا يؤذيهنَّ أهل الريبة بالتمرّض لهن ، (٣) .

ويُتَضَح من هذه الاقوال جميعاً أنه من لدن عصر الصحابة الميمون  
 إلى القرن الثامن للهجرة، حمل جميع أهل العلم هذه الآية على مفهوم واحد،  
 هو الذي قد فهمناه من كلماتها . وإذا راجعنا بعد ذلك الأحاديث النبوية  
 والآثار ، علمنا منها ايضاً أن النساء قد شرعن يلبسن النقاب على العموم ،  
 بعد نزول هذه الآية على العهد النبوي . وكن لا يخرجن مسافرات . فقد  
 جاء في سنن أبي داود والترمذي والموطأ للإمام مالك وغيرها من كتب

---

(١) «المورة» في المصطلح الاسلامي مايجب ستره من الجسم، على كل رجل او  
 امرأة غير الزوج او الزوجة . فما بين السرة والركبة من الرجل ايضاً عورة  
 بهذا المعنى .

(٢) التفسير الكبير للرازي - ج ٥٩/٦ .

(٣) تفسير البيضاوي ج ١٦٨/٤ .

الاحاديث أن كان النبي ﷺ قد أمر أن « الحرمة لا تنتقب ولا تلبس القفازين » . و « نهى النساء في إحرامهن عن القفازين والنقاب » . وهذا صريح الدلالة على أن النساء في عهد النبوة قد تعوّدن الانتقاب ولبس القفازين عامة ، فهن عنه في الاحرام . ولم يكن المقصود بهذا الحكم أن تعرض الوجوه في موسم الحج عرضاً ، بل كان المقصود في الحقيقة أن لا يكون القناع جزءاً من هيئة الاحرام المتواضعة ، كما يكون جزءاً من لباسهن عادة . فقد ورد في الاحاديث الاخرى تصريح بأن أزواج النبي ﷺ وعامة المسلمات كنَّ يخفين وجوههن عن الاجانب في حالة إحرامهن أيضاً . في سنن أبي داود ، عن عائشة قالت : كان الركبان يمرّون بنا ونحن مع رسول الله ﷺ محرمات . فإذا جازوا بنا سدلت إحدانا جلبابها من رأسها على وجهها . فإذا جاوزنا كشفناه (١) . وفي الموطأ للإمام مالك : « عن فاطمة بنت المنذر قالت : كنا نَحْمَرُ وجوهنا ونحن محرمات ونحن مع أسماء بنت أبي بكر الصديق ، فلا تنكروا علينا » (٢) وقد ورد في فتح الباري عن عائشة رضي الله عنها : « تسدل المرأة جلبابها من فوق رأسها على وجهها » (٣) .

### النقاب

وكل من تأمل كلمات الآية وما فسر بها به أهل التفسير في جميع

(١) أبو داود - باب في الحرمة تغطي وجهها .

(٢) الموطأ - باب تخمير المحرم وجهه

(٣) فتح الباري - كتاب الحج

الازمان بالاتفاق ، وما تعامل عليه الناس على عهد النبي ﷺ ، لم ير في الامر مجالا للجحود بأن المرأة قد أمرها الشرع الإسلامي بستر وجهه عن الاجانب . ما زال العمل جارياً عليه منذ عهد النبي ﷺ إلى هذا اليوم . وأن النقاب مما قد اقترحه القرآن نفسه من حيث حقيقته ومعناه وإن لم يصطلح عليه افظاً . وكانت نساء المسلمين قد اتخذنه جزءاً من لباسهن لخارج البيت ، برأى من الذات النبوية التي نزل عليها القرآن ، وكان يسمى نقاباً في ذلك العهد أيضاً .

نعم ، هو هذا النقاب (Veil) الذي تعده أوربة غاية في الشناعة والقبح . ويكاد الضمير الغربي يخفق حتى من تصوّره ، ويعتبره الغربيون عنوان الظلم وسيا الوحشية وضيق الفكر . وهو أول ما يعقد عليه الخنصر إذا ذكرت أمة شرقية بالجهالة والتخلف في طريق التمدن . وأما اذا وصفت أمة في الشرق بكونها سائرة في طريق الحضارة والتمدن ، فأول ما يذكر من شواهد به بكل تبجح وافتخار ، هو كون (النقاب) قد زال عن هذه الامة أو كاد ! ويا لخزيكم يا أصحابنا المتجددين المستغربين إذا تبين لكم أن هذا الشيء لم يخترع بعد زمان النبي بل نسج برده القرآن نفسه ، وروجه النبي ﷺ في أمته في حياته . على أن شعوركم بهذه الخزي وإطراقكم بالندامة والخجل ليس بنافعكم شيئاً ، لان النعمة إن أخفت رأسها في التراب لرؤية الصائد ، فانه لا يطرد عنها الصائد ولا

ينفي وجوده ، كذلك إن أشحتم بوجوهكم عن الحقيقة ، لم تبطل به  
 الحقيقة الثابتة ولم تمنح آية القرآن ، وإن حاولتم أن تكتموا هذه الوصمة  
 - كما تزعمونها - في تمدنكم من وراء حجب التأويل ، لم تزيدوها إلا وضوحاً  
 وجلاء . وإذا كنتم قد قررتم هذا النقاب عاراً على أنفسكم وشناراً ، بعد  
 إيمانكم بوحى الغرب ، فليس إلى غسله عن أنفسكم من سبيل غير أن  
 تعلنوا براءتكم من الدين الاسلامي الذي يأمر بالاشياء السمجة البغيضة  
 كلبس النقاب وإسداد الحمار وستر الوجوه . إنكم يا قوم تشدون الرقي  
 وتطلبون الحضارة فأني لدين يمنع ذات الخدر أن تكون عطر المجالس ،  
 ويوصيها بالمفة والحياء والاحتجاب ، وينهى ربة البيت أن تكون قرعة عين  
 لكل غاد ورائح ... أنى لدين مثل هذا أن يصلح في رأيكم للاتباع ؟  
 وأن هو من الرقي ؟ ومن التهذب والحضارة ؟ وإنا الرقي والحضارة  
 يقتضيان الأنسة - إذا همت بالخروج من بيتها - أن تنفض يديها من كل  
 عمل قبل ساعتين من موعد الخروج ، لتفرغ فيها إلى زيتنها وتجميلها .  
 فتعطر الجسم كله بالطيب ، وتلبس اللباس الجذاب الاخاذ ، وتبيض الوجه  
 والذراعين بأنواع المساحيق ، وتلون الشفتين بقلم الدهان الاحمر Lip Stick  
 وتمهد قوس الحاجبين وتمده للرمي بسهام النظر . حتى إذا خرجت من  
 البيت رافلة في هذه الزخارف ، استهوى كل مظهر من مظاهر زيتنها  
 وجملها القلوب ، وجذب الانظار ، وفتن العقول . ثم لا تظمن نفس  
 الأنسة بعد هذا كله من التظاهر بالجمال ، بل تكون أدوات الزينة والزخرفة

محمولة معها في عتيدها (١) ، حتى تتدارك بين حين وآخر كل مانقص أو ضاع من دقائق زينتها .

إن بين مقاصد الاسلام ومقاصد الحضارة الغربية .. كما ذكرناه غير مرة فيما سبق .. لبونا بعيداً و فرقا شامساً جداً . ومخطيء بئين الخطأ من يريد أن يفسر أحكام الاسلام بوجهة نظر الغرب . ذلك بأن ما عند الغرب من المقياس لأقدار الأشياء وقيمتها ، يختلف عنه مقياس الاسلام كل الاختلاف . فالذي يكبره الغرب ويمده غاية الحياة الانسانية ، هو في عين الاسلام من التوافه والهتات . وإن ما يهتم به الاسلام ويعظم شأنه هو عند الغرب من سقط المتاع . لذلك كل من قال بصحة المقياس الغربي ، فلا بد أن يرى جميع ما في الاسلام واجب الترميم والاصلاح . وإذا مضى يفسر أحكام الاسلام وبشرحها ، جاء بها محرقة عن معانيها ، ثم لم يوفق في تطبيقها على الحياة العملية حتى في صورتها المحرقة ، لما يمترض سبيله إلى ذلك من أحكام القرآن ونصوص السنة البينة . فحريّ بمثل هذا الرجل قبل أن ينظر في جزئيات المناهج العملية ، أن يتأمل المقاصد التي قد اتخذت للوصول إليها تلك المناهج ، وينظر هل هي صالحة للقبول أم لا . وإن هو لم يكن يوافق تلك المقاصد نفسها فأبي غناء يغنيه البحث في المناهج التي تختار لتحقيق تلك المقاصد؟ ولماذا يكاف نفسه مسخ تلك المناهج وتحريفها؟ أليس من الأجدر به والاصح له أن يهجر الدين الذي يخطيء مقاصده؟

---

(١) العتيده : الوعاء الذي يكون فيه طيب المرأة وغيره من الاشياء Purse .

وأما إذا كان يتفق مع تلك المقاصد ، فلا يبقى البحث بعد ذلك إلا فيما يتخذ لتحقيقها من المناهج ، هل هي صحيحة أم لا ؟ وهذا البحث يمكن طيه بكل سهولة. ولكن هذه الطريقة لا يتبعها إلا ذوا المروءة والكرم ، وم قليلون ! وأما المنافقون الذين هم بطبيعتهم أخبث ما خلق الله في هذا الكون ، فلا يزكو بهم إلا أن يدعوا إيمانهم بشيء ، ويؤمنوا في الحقيقة بشيء آخر !

فكل ما لا يزال هؤلاء يخوضون فيه من المباحث حول الحجاب والنقاب ، هو صادر في الحقيقة عن هذا النفاق . وقد استنفدوا كل مافي طاقاتهم ووسمهم لإثبات أن هذا الوضع من الحجاب إنما كان رواجه في أمم الجاهلية قبل الاسلام . ثم نزل هذا الميراث الجاهلي إلى المسلمين في بعض العصور المتأخرة البعيدة عن عهد النبوة . ولماذا يتكلفون هذا البحث والتحقيق التاريخي بازاء النص القرآني الصريح ، والعمل الثابت في عهد النبوة ، وتفسير الصحابة والتابعين لمفهوم الآية ؟ إنهم يتكلفونه لجرد أنه كان - ولا يزال - نصب أعينهم من مقاصد الحياة ما هو مقبول شائع في الغرب . وأنه قد رسخ في أذهانهم من تصورات الحضارة والرفي منازل إليهم من سمائه . ولما كان لبس الملاة والنقاب لا يلائم تلك التصورات بحال من الأحوال ، فقد جاؤوا بممول التحقيق التاريخي ، ليهدموا به ما هو ثابت في شرع الاسلام . وهذا النفاق البين الذي قد تناولوا به هذه هذه المسألة مع غيرها من المسائل ، يرجع في أصله إلى ما سبق أن ذكرناه

فيهم من خفة العقل وقد الجراءة الخلقية وعدم التمسك بالمبادئ . ولولا ذلك لما سوّلت لهم أنفسهم أن يأتوا بالتاريخ شاهداً على القرآن ، مع كونهم يدعون الاسلام وينتمون اليه . بل كانوا أحرىاء .. لو أرادوا أن يبقوا مسلمين .. أن يستبدلوا المقاصد القرآنية بمقاصدهم هم ، أو يملئوا انصرافهم عن الاسلام الذي يعترض سبيلهم إلى التقدم والرفق حسب ما يفهمونه من معاني الرقي !.

إن من يفهم مقاصد القانون الاسلامي وله مع ذلك حظ من العقل البسيط ( Common Sense ) ، لا يصعب عليه أن يفهم أن إطلاق الحرية للنساء في الخروج مسافرات الوجوه يخالف تلك المقاصد التي يهتم بها الاسلام كل هذا الاهتمام . وذلك بأن أكثر ما يؤثر في نفس المرء من امرئ آخر هو وجهه . وإن الوجه هو المظهر الأكبر للجمال الخلقي والطبيعي في الانسان . فهو أكثر مفاخر الجمال الانساني جذباً للانظار واستهواءً للنزعات . ثم هو العامل الاقوى للجاذبية الجنسية بين الصنفين . ولفهم هذه الحقيقة لا تحتاج إلى تعمق في علم النفس ، بل ارجع في ذلك إلى ضميرك نفسك تطلب حكمه ، وإلى عينيك تستفتيها ، وإلى تجاربك النفسية تستنبط منها النتائج ، وجنّب نفسك آفة النفاق ، فإن المنافق إن رأى حتى وجود الشمس ضاراً بمقاصده ، لم يتردد في إنكاره بالمرة في رائحة النهار ، بل لازم جانب الصدق فإن فعلت ، لم تجد بداً من الاعتراف بأن هذا الجمال الطبيعي الذي قد وضعه الله في وجه الانسان هو أكثر ما يستهوي الناظر ،



وهو أكبر عامل للتحريك الجنسي ( Sex Appeal ) . ثم هل رأيت أنك إن كنت تريد أن تزوج بفتاة وأردت أن تلقى عليها نظرك قبل أن تعزم على الأمر بصفة نهائية، فقل لي بالله ربك ! إلام تنظر فيها لتقبلها أو ترفضها؟ وهب أن لنظرك إليها صورتين اثنتين : أولاها أن تخرج لك الفتاة في كل زينتها إلا وجهها . والثانية أن تريك وجهها وحده من نافذة دون سائر جسمها . فأی صورة من هاتين تختارها لانتخاب الفتاة لنفسك ؟ اصدقني بالله ألا يكون جمال الوجه آثر وأرجح عندك من جمال سائر الجسم؟.

وإذا تقررت هذه الحقيقة ، فلنمض في البحث قدماً . فنقول إنه إن لم يكن منع الفوضى الجنسية ومنع الهيجان الشهواني المتطرف في المجتمع من المقصود المنشود ، فلتكن المرأة إذا في حلٍّ من الكشف عن نحرها وذراعيها وساقها وفخذها ، دع عنك وجهها وحده ، كما هو عليه الحال في الحضارة الغربية لهذا العهد . ولا حاجة لوضع تلك الحدود والقيود التي قد مرّ ذكرها في معرض قانون الحجاب الاسلامي . ولكنه إن كان المقصود هو سد هذا الطوفان ودفع غائلته عن المجتمع ، فأی سخافة أكبر من أن توصد في وجهه صفار المنافذ ويفتح له باب رئيسي كبير!!.

ولك أن تسأل في هذا المقام أنه إن كان الأمر كذلك ، فما للاسلام يبيح للمرأة أن تكشف وجهها عند الحاجة والضرورة ، كما قد ذكرت بنفسك فيما مرّ؟ فالجواب عليه أن القانون الاسلامي ليس بقانون مائل الشق ، منحرف عن الاعتدال ، بل هو بينا يراعي - بجانب .. مصالح

الاخلاق ، يراعي - بالجانب الآخر - ضرورات الانسان وحاجاته ، ويقيم بينها الميزان بغاية القسط . انه يريد أن يسد باب الفتن الخلقية ، ويريد مع ذلك أن لا يفرض على الانسان قيوداً لا يستطيع معها أن يقضي حوائجه الحقيقية . وهذا هو السبب لأنه لم يأمر المرأة في وجهها ويديها بمثل ما أمرها به في ستر العورة وإخفاء الزينة من الاحكام القاطعة الصريحة . ذلك بأن ستر العورة وإخفاء الزينة لا يحل بقضاء حاجات الحياة أبداً . ولكن المداومة على إخفاء الوجه واليدين قد ترهق المرأة من أمر القيام بحاجاتها عسراً . من ثمّ قد قرر الاسلام على وجه العموم أن تدني النساء عليهن من جلايبهن . ثم أجاز لهن بقوله ( إلا ما ظهر منها ) أن يكشفن عن وجوههن إذا ما اقتضته الضرورة ، بشرط أن لا يقصد بذلك إظهار الجمال . بل يكون المقصود قضاء الحاجة وحده . وسد بعد ذلك أبواب الفتنة من قبل الرجال بأن أمرهم أن يفضوا من أبصارهم . وذلك أنه إن كشفت امرأة عفيفة عن وجهها مضطرة ، غض الرجال من أبصارهم عن النظر إليها ، ولم يصعدوا فيها أنظارهم بما لا يليق .

إنك إن أنعمت النظر في أحكام الحجاب هذه ، تبين لك أن الحجاب الاسلامي ليس بشيء من باب التقاليد الجاهلية بل هو قانون عقلي منطقي . إذ أن التقليد الجاهلي يكون جامداً لا مرونة فيه أبداً . وأما طريقة راجت فيه وبأي صورة راجت ، فلا يمكن قط أن تعدل أو تبدل . وكل ما قضي فيه بالاخفاء ، فإنه يخفى ويستر في كل زمان ، وعلى كل

حال ، وإن كان دونه هلاك الأنفس وضياع الاعراض . وأما القانون العقلي ، فيكون - على عكس ذلك - لدينا مرناً ، يميل مع الضرورات الحقيقية ، ويتسع لكل من التشديد والتخفيف حسب مقتضى الاحوال . وترك في قواعده العامة صور استثنائية لكل الاوضاع والمناسبات فلا يتبع هذا القانون اتباعاً أعمى . بل يجب لاتباعه الفهم والتمييز . ويكون المتبع الماقل الفهم أن يقضي بنفسه : في أي الاحوال يجب أن يعمل بالقاعدة العامة ، وفي أيها تمسّه ( الحاجة الحقيقية ) من وجهة نظر القانون ، فيتمتع فيها برخصة الحكم الاستثنائي ؟ ثم يكون له بنفسه أن يحكم إلى أي حد ينبغي أن يتمتع بالرخصة وفي أي المناسبات ؟ وكيف يراعي مقصد القانون الرئيسي في أثناء تمتعه بالرخصة ؟ كل هذه الامور لا يفتي فيها بالامر الحق إلا قلب المؤمن الصادق النية والايان . كما قال النبي ﷺ : « استفت قلبك ودع ما حاك في صدرك » . ومن هذا كله لا يمكن أن يتبع الاسلام اتباعاً صحيحاً بالجهالة وعدم الشعور . وإنما هو قانون عقلي يستلزم اتباعه الفهم والفطنة والشعور عند كل خطوة من خطوات العمل .

## أحكام خروج المرأة من البيت

وآخر ما أمر الله به النساء ، بعد ما وصّاهن في اللباس وفي حدود المورة ، هو ما يأتي : « وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى » (الاحزاب : ٣٣) « وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنَ زِينَتِهِنَّ » (النور : ٣١) « وَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَلَعَ الذِّي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ » (الاحزاب : ٣٢) . وقد اختلفوا في قراءة ( وَقَرْنَ ) فقد قرأها عامة قراء المدينة وبعض الكوفيين بفتح القاف ومصدرها قرار . ومعنى الآية بذلك : التزمْنَ بيوتكن واستقررنَ فيها . وقرأها عامة قراء البصرة والكوفة ( وَقِرْنَ ) بكسر القاف ، وهي من وَقَرَ الرجلُ وَقَرًا وقارًا . فمعنى الآية إذا : عِشْنَ في بُيُوتكن بالسكينة والوقار . وللتبرُّج معنيان : أحدهما إظهار الزينة والمحسن . والآخر : التَّبَخُّرُ والاختيال ، والثمنّي والتأوّد في الثني . وكلا هذين المعنيين مراد في هذه الآية . وذلك أن النساء في الجاهلية الاولى ، كنساء هذه الجاهلية الجديدة ، كن يخرجن في أجود زينتهن ويمشين مشيةً من الدلال تكاد لا تقع فيها أقدامهن

على الارض، بل على قلب من ينظر إليهن . ويقول التابعي والمفسر الشهير قتادة بن دعامة : « كانت لهن مشية تكسّر وتفتّج فنهان الله عن ذلك » . ولتصوّر كيفيتها لا نحتاج إلى بيان تاريخي ، بل اشهد مجلساً تحضره أوانس من الطراز المصري الاوربي ، تتمثل لك مشية التبرّج الذي اعتادته نساء الجاهلية الاولى . فهي هي التي ينهى عنها الاسلام ، ويقول : إن مقام المرأة ومستقرّها هو البيت . وما وضعت عنهن واجبات خارج البيت إلا « ليلازمن البيوت بالسكينة والوقار ويقمن بواجبات الحياة العائلية . أمّا إن كان بهن حاجة إلى الخروج ، فيجوز لهن أن يخرجن من البيت ، بشرط أن يراعين جانب العفة والحياء . فلا يكون في لباسهن بريق أو زخرفة أو جاذبية ، تجذب إليهن الانظار ، ولا في نفوسهن من حرص على إظهار زينتهن ، فيكشفن تارة عن وجوههن ، وأخرى عن أيديهن ، ولا في مشيتهن شيء يستهوي القلوب ، ولا يلبسن كذلك من الحلي ما يحلو وسواسه في السامع ، ولا يرفعن أصواتهن بقصد أن يسمعا الناس . نعم ، يجوز لهن التكلم في حاجتهن ، ولكنه يجب أن لا يكون في كلامهن لين وخضوع ولا في لهجتهن عذوبة وتشويق . كل هذه الضوابط والحدود إن راعتها النساء ، جاز لهن أن يخرجن لحوائجن .

هذا في القرآن . وتعال الآن نرجع إلى السنة المطهرة ، انرى ما الذي كان قرره النبي ﷺ من الطرق لسلوك نساء المسلمين في المجتمع ،

وفقاً لهذا التعليم القرآني ، وكيف عمل به الصحابة ونسأؤهم رضي الله عنهم .

### الرفضة في خروج النساء لحوائجهم

قد ورد في الحديث أن عمر رضي الله عنه كان يود ، قبل أن ينزل الحجاب ، لو أن رسول الله ﷺ يأمر نساء بالاحتجاب . وذات مرة خرجت أم المؤمنين سودة رضي الله عنها لبعض حاجتها بالليل . فرآها عمر بن الخطاب وقال : يا سودة ! أما والله ما تخفين علينا ، فانظري كيف تخرجين . وكان مراده بذلك أن تمنع النساء من الخروج . ولما نزلت بعد ذلك آية الحجاب ، نشط عمر ، وازداد شدة في نهى النساء عن الخروج . وحدث لسودة رضي الله عنها مرة أخرى أن خرجت من بيتها ، فصاح بها عمر ، فرجعت إلى النبي ﷺ ، وذكرت ذلك له . فقال : « قد أذن الله لكن أن تخرجن لحوائجكن » . <sup>(١)</sup>

فيعلم من هذا أنه ليس المراد بحكم ( وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ) أن لا تتخطى النساء عتبة بيتهن أبداً ، بل الأمر أن قد أذن لهن أن يخرجن لحوائجهن . ولكن هذا الإذن ليس بمطلق غير محدود ، ولا هو غير مقيد بشروط . فليس جائزاً للنساء أن يطفن خارج بيوتهن كما شئن ،

---

(١) هذه خلاصة احاديث متعددة اخرجها مسلم في باب ( إباحة الخروج للنساء لفضاء حاجة الانسان ) ، والبخاري في باب ( خروج النساء لحوائجهن ) وباب ( آية الحجاب ) .

ويعالطن الرال بالحرية في المالس والنواذي. وإنما مراد الشرع بالحوائج هو الحاجات الحقية التي لا بد معها للنساء من أن يخرجن من البيوت ويعملن خارجها. ومن الظاهر أنه لا يمكن استيعاب جميع الصور الممكنة لخروج النساء وعدم خروجهن ، في جميع الأزمان ، ولا من الممكن وضع الضوابط والحدود لكل مناسبة من تلك المناسبات . غير أن المرء يستطيع أن يتفطن لروح القانون الاسلامي ورجحانه ، إذا نظر فيما قرره النبي ﷺ من الضوابط لخروج المرأة من البيت في عامة أحوال الحياة ، وما تناول به حدود الحجاب من الزيادة والنقص بين آونة وأخرى ، وأن يستخرج بنفسه حدود الحجاب الأحوال الفردية والشؤون الجزئية ، وقواعد الزيادة فيها والنقص منها تبعاً للحالات والملابس . وهانحن نسرء فيما يلي بمض المسائل إيضاحاً للأمر :

### الوزن في حضور المسامر ومروءه

معلوم بالبءاهة أن أعظم الفرائض في الاسلام هو الصلاة. وقد جاء في الحث على حضور المساجء والشركة في الجماعة مالا يخفى على أحد . ولكن النساء قد أمرن في باب الصلاة مع الجماعة بمكس ما أمر به الرجال. فأفضل صلاة الرجل هو ما يصلّيه مع الجماعة في المسجء . وأفضل صلاة المرأة ما تصلّيه في أخلى خلوة من بيتها . وقد أخرج الامام أحمد والطبراني عن أم حميد الساعءية ، قالت : يا رسول الله إني أحب الصلاة معك. قال: «قد علمت». صلاتك في بيتك خير لك من صلاتك في مبرتك،

وصلاتك في حجرتك خير من صلاتك في دارك ، وصلاتك في دارك خير من صلاتك في مسجد قومك ، وصلاتك في مسجد قومك خير من صلاتك في مسجد الجماعة ، (١) . وحديث آخر في مثل هذا الموضوع قد أخرجه أبو داود عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال: قال النبي ﷺ « صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في حجرتها ، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها » . (٢)

فانظر كيف انقلب الترتيب في صلاة المرأة . فبينما أحطّ صلاة الرجل هو ما يصلّيّه في بيته ، وأفضلها ما يصلّيّه مع أكبر جماعة في المسجد . إذ أفضل صلاة المرأة صلاتها في أقصى خلوة بيتها . ومثل هذه الصلاة في الخلوة لم تُفضّل على صلاة الجماعة بحسب ، بل فُضّلت على

---

(١) إن المصلحة من وراء إيهام المرأة بأن تصلي في أبعد خلواتها ، قد تفهمها النساء أكثر من غيرهن . وذلك أن المرأة تتنابها في كل شهر أيام ، تضطر فيها إلى ترك الصلاة . وبذلك يظهر منها ما لا تحب ذات حياء أن يظهر حتى على اخوتها وأخواتها في البيت . وهذا الحياء ربما حملهن على ترك الصلاة . فأحس الشارع منهن هذا ، فأوصاهن أن يصلين في ناحية من الخلوة ، حتى لا يعلم أحد متى يصلين ومتى يتركن . ولكن هذا ، على كل ، وصية ، لاحم أو أسر مؤكد . ويجوز للنساء ، ولأرب ، أن يصلين في جماعة في بيوتهن ، وتصلي بهن امرأة منهن . وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أذن لأم ورقة بنت عبد الله بن الحارث أن تصلي بالنساء ( أبوداود ) . وفي سنن الدارقطني والبيهقي أن عائشة رضي الله عنها صلت بالنساء وقامت في وسط الصف .

(٢) باب ما جاء في خروج النساء إلى المساجد .



ما ليس وراءه مطمع لمسلم ، وهو صلاة الجماعة في المسجد النبوي خلف النبي ﷺ نفسه . أرأيت ما العلة لهذا التمييز بين المرأة والرجل في هذه العبادة ؟ أليست علته أن النبي ﷺ لم يُجب خروج المرأة من بيتها وأراد أن يمنع اختلاط الذكور والإناث في جماعة المسجد .

على أن الصلاة فريضة مقدسة . والمسجد مقام طهارة وصفاء . لذلك بينما أفصح الشارع عما يريد من منع اختلاط الجنسين ، بما يبين لأنواع صلاتهما من الفضيلة وعدم الفضيلة ، لم يمنع النساء على الإطلاق من حضور مقام مطهر كالمسجد ، لعمل صالح كالصلاة . وإن الكلمات التي قد ورد فيها الإذن لمن في حضور المساجد ، لدالة على سمو حكمة الشارع . قال ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله . وإذا استأذنت امرأة أحدكم إلى المسجد فلا يمنعها » . (١) وقال : « لا تمنعوا نساءكم المساجد ويوثن خير لهن » ، (٢) .

فهذه الكلمات صريحة بأنه لا ريب أن الشارع لا يمنع النساء من المساجد ، لأن حضور المساجد للصلاة ليس بأمر مريب ، حتى يحظر ويُنهى عنه . ولكن المصالح الاجتماعية لا تقتضي أيضاً أن يختلط الرجال والنساء في جماعات المساجد . لذلك رخص الشارع للنساء في إتيان المساجد ولكنه لم يأمر الرجال أن يبعثوا نساءهم إلى المساجد أو يحملوهن

---

(١) رواه البخاري ومسلم

(٢) رواه أبو داود

معهن إليها . وإنما اكتفى ببيان أنهن إن آثرن لأنفسهن أدنى الدرجة من الصلاة ، وهي التي يصلّينها في المسجد ، على أفضل صلاتهن في ناحية البيت ، فاستأذننكم في الأمر ، فلا تمنوهن . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعرف جيّداً رُوح الشرع . ففهم حكمة الشارع في أقواله هذه جيّداً الفهم . فقد جاء في موطأ الإمام مالك أن كانت عاتكة بنت زيد زوج عمر بن الخطاب تنازعه دائماً في هذا الامر . كان عمر لا يحبّها أن تحضر المسجد ولكنها تصرّ عليه . فكان إذا استأذنته ، يعمل بالأمر النبوي بدقّةٍ ، فيسكت ولا ينبس ببنت شفة . كأنني به يريد بهذا السكوت أن إن آذن لك إلى المسجد . فتقول عاتكة : والله لأخرجن ، إلا أن تمنعني ، أي تصرّح بالمنع . ولكنه لا يمنعها <sup>(١)</sup> .

### شروط حضور المساجد

وقد اشترط على النساء في حضورهنّ إلى المساجد أمور :  
أولها أن لا يحضرنها في النهار ، بل يشتركن في الصلوات التي تُصلّي في سواد الليل . أي العشاء والفجر . عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « ائذنوا للنساء بالليل إلى المساجد » . (٢) قال نافع مولى ابن

(١) وما كان هذا يخص زوج عمر بن الخطاب وحدها . بل كان كثير من النساء يحضرن المسجد للصلاة مع الجماعة . وأخرج أبو داود أنه ربما كان للنساء صفان في المسجد . ( باب ما يكره من ذكر الرجل ما يكون من اصابعه اهله ) .  
(٢) أخرجه الترمذي في باب ( خروج النساء إلى المساجد ) . وفي هذا المعنى حديث أخرجه البخاري في باب ( خروج النساء إلى المساجد بالليل والفلس ) .

عمر : وكان اختصاص الليل بذلك لكونه أستر وأخفى . وعن عائشة قالت : كان رسول الله ﷺ ليصلي الصبح فينصرف النساء مندفعاتٍ بمروطهن ما يُعرفن من الغلس (١)

والثاني أن لا يحضرن المساجد متزيّنات ولا منطبيّات . عن عائشة رضي الله عنها قالت : بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد ، إذ دخلت امرأة من مُزينة ترفل في زينة لها ، في المسجد . فقال النبي ﷺ : يا أيها الناس ! انموا نساءكم عن لبس الزينة ، والتبختر في المسجد ، (٢) ونهي كذلك عن التطيب . فقال : « إذا شهدت إحداكن العشاء ، فلا تطيب تلك الليلة » . وقال « أيما امرأة أصابت بخوراً ، فلا تشهد معنا العشاء » (٣) .

والشرط الثالث : أن لا تختلط النساء بالرجال في الجماعة ، ولا يسبقن

(١) الترمذي - باب (التغليس في الفجر) . وقد جاءت احاديث في هذا الموضوع في البخاري - باب ( وقت الفجر ) ومسلم - باب ( استحباب التكبير بالصبح في أول وقته ) وإبي داود - باب ( وقت الصبح ) ومسانيد أخرى . وأيضاً جاء في كتب الاحاديث ان النبي صلى الله عليه وسلم وسائر المصلين كانوا يجلسون بعد الصلاة ربّما تنصرف النساء . ثم يقوم ويقومون .

(٢) ابن ماجه - باب فتنة النساء

(٣) الموطأ - باب خروج النساء الى المساجد ، ومسلم - باب خروج النساء الى المساجد ، وابن ماجه - باب فتنة النساء

إلى الصفوف الأمامية . بل يجب أن يقمن خلف صفوف الرجال . قال النبي ﷺ : « خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها . وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها » . (١) وكان عليه الصلاة والسلام قد أمر في صلاة الجماعة ألا يقوم الرجل والمرأة جنباً لجنب ، وإن كانا زوجين أو أمأ وابناً . فعن أنس بن مالك أن جدته مليكة دعت رسول الله ﷺ لطعام صنعته ، فأكل منه ، ثم قال : قوموا فلنصل بكم . قال أنس : فقمنا إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس ، ففضحت بالماء . فقام رسول الله ﷺ ووصفت عليه أنا واليتيم ورائه ، والمجوز من ورائنا . (٢) وعن أنس رضي الله عنه في رواية أخرى ، قال : صليت أنا واليتيم في بيتنا خلف النبي ﷺ ، وأمّي وأم سليم خلفنا . (٣) وعن ابن عباس رضي الله عنه ، قال : صليت إلى جنب رسول الله وعائشة خلفنا فصلتي معنا ، وأنا إلى جنب النبي ﷺ أصلي معه . (٤)

والشرط الرابع : أن لا ترفع النساء أصواتهن في الصلاة . وأما إذا وجب تنبيه الإمام في أثناء الصلاة فللرجال التسبيح ولهن التصفيق . (٥) ومع كل هذه الحدود والقيود لما خشي عمر ابن الخطاب رضي الله

(١) مسلم وابو داود والترمذي والنسائي واحد

(٢) الترمذي - باب ما جاء في الرجل يصلي ومعه رجال ونساء .

(٣) البخاري - باب المرأة وحدها تكون صفاً

(٤) البخاري - باب طواف الرجال مع النساء

(٥) البخاري - باب التصفيق للنساء

عنه اختلاط النساء والرجال في الجماعة ، خصّ للنساء باباً من أبواب المسجد . ونهى أن يدخلَ من باهين<sup>(١)</sup> .

### النساء في الحج

والثاني من الفرائض الاجتماعية بعد الصلاة هو الحج . وهو واجب على النساء كوجوبه على الرجال . ولكن النساء أمرن أن يتجنّبن مخالطة الرجال في المطاف ما استظمن . وقد أخرج البخاري عن عطاء أن النساء كن يطفنّ بالبيت مع الرجال على المهاد النبوي ولكنهن لا يخاطبن الرجال .<sup>(٢)</sup> وعن إبراهيم النخعي في فتح الباري ، قال : نهى عمر رضي الله عنه أن يطوف الرجال مع النساء . قال فرأى رجلاً ممن فضربه بالدرّة .<sup>(٣)</sup> وفي الموطأ أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه كان يقدم أهله وصبيانَه من الزدلفة إلى منى ، حتى يصلّوا الصبح بمنى ، ويرموا قبل أن يأتي الناس . وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتي منى بفلس ، فلمّا قيل لها في ذلك ، قالت قد كنّا نصنع ذلك مع النبي ﷺ .<sup>(٤)</sup>

### ضروج النساء للجمعة والعيرين

ويقتي عن البيان ما لحامع الجمعة والعيرين من عظمة شأنٍ في الاسلام .

(١) ابو داود : باب ما جاء في اعتزال النساء في المساجد عن الرجال .

(٢) البخاري : باب طواف الرجال مع النساء .

(٣) فتح الباري : ج ٣ / ٣١٢ .

(٤) الموطأ : ابواب الحج ، باب تقديم النساء والصبيان .

ولعظمتها وخطورتها هذه ، قد وضع الشارعُ عن النساء في أمرها ما اشترط عليهن في سائر الصلوات من حضور جماعتها في سواد الليل وحده . فأذن لهن " أن يحضرن الجمعة والميدين ولا ريب أنهن قد استثنين بصراحةٍ من وجوب الجمعة عليهن " (١) ، إلا أنه يجوز لهن أن يحضرن هذه الجماعات إذا التزمن سائر الشروط لاشتراكهن في صلاة الجماعة . وقد ثبت في السنة أن النبي ﷺ كان بنفسه يُخرج نساءه إلى المصلّى في الميدين . فمن أم عطية قالت : إن رسول الله ﷺ كان يُخرج الأ Bakar والعواتق وذوات الخدور والحِيض في الميدين . فأما الحِيض فيعتزلن المصلّى ويشهدن دعوة المسلمين (٢) . وعن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يخرج بناته ونساءه في الميدين . (٣) وكان اجتماع النساء في الميدين مستقلا عن اجتماع الرجال ، فكان النبي ﷺ يخرج لهن ويخطبن بعد أن يفرغ من خطبة الرجال . (٤)

### زيارة القبور واتباع الجنائز

إن اتباع جنازة المسلم فرض كفاية في الاسلام ، ولا يخفى على أهل

(١) ابو داود .

(٢) الترمذي : باب خروج النساء في الميدين .

(٣) ابن ماجه : باب ما جاء في خروج النساء في الميدين .

(٤) البخاري ومسلم عن ابن عباس ، وأبو داود عن جابر بن عبد الله .

الخبرة ما ورد في الحث عليه من الاحكام . ولكن كلها للرجال . وأما النساء فقد نهين عنه، وإن لم يكن هذا النهي مشدداً فيه، وكن قد رخص لهن في الأمر في بعض الاحايين . على أن أقوال الشارع عليه السلام تفيد بوضوح لا لبس فيه أن اتباع النساء للجناز لا يخلو من مكروه . وقد أخرج البخاري عن أم عطية ، قالت : نهينا عن اتباع الجنائز . ولم يعزم علينا<sup>(١)</sup> . وقد جاء في سنن ابن ماجه والنسائي أن النبي ﷺ كان في جنازة ، فرأى عمر امرأة ، فصاح بها . قال النبي ﷺ : ودعها يا عمر ! فإن العين دامة والنفس مصابة والعهد قريب . ولعل المرأة كانت من أقارب الميت ، فتبعت جنازته لفرط الحزن ، فأحس ذلك منها النبي ﷺ فنهى عمر عن زجرها .

وقد مثل ذلك في زيارة القبور . إن النساء رقيقات القلوب وذكري أقاربهن الاموات أعلق بنفوسهن . فما أحب الشارع عليه السلام أن يكبت عواطفهن وأحاسيسهن كبتاً ، ولكنه صرح مع ذلك أن الإكثار من زيارة القبور محظور لهن في الاسلام . فقد أخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور . (٢) وآتت عائشة رضي الله عنها قبر أخيها عبدالرحمن بن أبي بكر ، فقالت :

---

(١) البخاري - باب اتباع النساء الجنازة

(٢) الترمذي - باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء . وقد أخرج ابن ماجه مثل هذا الحديث عن ابن عباس وحسان بن ثابت رضي الله عنهما

« لو شهدتك مازرتك » (١). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مرّ  
 النبي ﷺ بامرأة عند قبر وهي تبكي . فقال : « اتقي الله واصبري » (٢).  
 تأمل كل هذه الاحكام التي مرت بك في هذا الباب . إن الصلاة  
 عبادة مقدسة . والمسجد مقام ملؤه الطهارة والصفاء . والحج موسم يحضر  
 فيه الانسان بيت الله بالقلب الخاشع والطرف الفوض . والجناز  
 والقبور كلها تذكّر الزائر بالموت ، وتبعث في نفسه الشجي والحزن .  
 وفي كل هذه المواقع ، تكون النزعات الجنسية إما معدومة في الانسان  
 أصلاً ، أو يتقلب عليها ما هو أذكى وأطهر من المشاعر والمواطف .  
 ولكن الشارع عليه السلام لم يرض أن يختلط الرجال والنساء حتى في  
 مثل هذه المجمع والمناسك . ولئن أذن لمن في الخروج إليها ، أو أخرجهن  
 بنفسه إليها في بعض الاحيان ، نظراً لنزاهة المقصد وطهارة الموضع  
 والمحل ، ورقة مشاعر الجنس اللطيف ، فإنه ألزم خروجهن بقيود من  
 الحجاب . لا تترك للفتنة أدنى مجال . ثم صرح لجميع تلك العبادات - اللهم  
 إلا الحج - أن عدم حضور النساء لها خيرٌ وأحسن من حضورها .  
 فكيف تتوقع من القانون الذي ينزع هذه النزعة في أمر خروج المرأة  
 لتلك الشعائر والعبادات ، أن يميز اختلاط الصنفين في المدارس والكلبات  
 والمكاتب والمعامل والمتنزهات والمتفرجات ، والمقاهي والمراقص ،  
 والمسارح والسينما ؟

---

(١) الترمذي - باب ما جاء في زيارة القبور للنساء

(٢) البخاري - باب زيارة القبور .



## شهود النساء للحرب

أما وقد علمت مواضع الشدة في أحكام الحجاب ، فالنفت الآن إلى مواقع اللين والتسامح فيها ، وتبين الضرورات التي قد سماح الاسلام في تلك الأحكام لأجلها .

يبتلى المسلمون بالحرب، فمعظم الشدة ويعم البلاء . وتقضي الأحوال أن توفر قوة الامة كلها للدفاع . ففي هذه الحال يبيح الاسلام لنساء الامة أن يشاركن الرجال في خدمات الحرب . ولكنه يلاحظ - مع ذلك - أن التي قد خلقها الله لأن تكون أمّاً رؤوماً ، لم تخلق - ولا شك - لضرب الاعناق وإهراق الدماء . فتسليحها بالرمح والسيف مسخ لفطرتها وطبيعتها . لذلك بينما يسمح لمن الاسلام أن يستعملن السلاح دفاعاً عن أنفسهن وأعراضهن ، لا يرضى أبداً استخدامهن للقتال وتطوعهن في الجندية . وإنما يريد أن يستخدمهن في الحرب لخدمات الاسعاف . كسقي المجاهدين ، وطبخ الطعام ، ومداواة المرضى ، وحفظ الرجال . ولأجل هذه الخدمات قد خفف جداً من حدود الحجاب وأجاز للنساء أن يلبسن لأجل القيام بها لباساً ، تلبسه اليوم الراهبات النصرانيات ، بقليل من التعديل .

وتتفق الاحاديث على أن أزواج النبي ونساء المسلمين كن يصحبن النبي ﷺ إلى ميدان القتال ، فيسقين المجاهدين ويدوين الجرحى .

وبقي العمل عليه جارياً بعد زول الحجاب أيضاً<sup>(١)</sup>. وقد أخرج الترمذي أن رسول الله ﷺ كان يفزو بأُم سليم ونسوة معها من الانصار ، يسقين الماء ويداوين الجرحى<sup>(٢)</sup>. وفي البخاري أن امرأة قالت لرسول الله ﷺ : يا رسول الله ا ادع الله أن يجعلني ممن يركبون البحر الاخضر في سبيل الله . فقال : اللهم اجعلها منهم<sup>(٣)</sup>. وعن أنس رضي الله عنه ، قال : لما كان يوم أحد انهزم الناسُ عن النبي ﷺ . قال : ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر وأُم سليم ، ولأنهما لمشمرتان أرى خدَم سوقهما ، تنقلان القرب على متونهما ، ثم تفرغانه في أفواه القوم ، ثم ترجعان...<sup>(٤)</sup>. وامرأة أخرى أُم سليط قد روى فيها عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ نفسه ، قال : « ما التفت يميناً ولا شمالاً يوم أحد إلا رأيتُ أُم سليط تقاتل دوني ». وفي هذه الغزوة كانت الريح بنت معوذ وجماعة من النساء تسقي الجرحى وترد القتلى إلى المدينة<sup>(٥)</sup>. وفي غزوة حنين رُئيتُ أُم سليم ومعا خنجر ، فسألها النبي ﷺ : ما هذا الخنجر؟ قالت : اتخذته ، إن دنا مني أحد المشركين ، بقرتُ به بطنه<sup>(٦)</sup>. وغزت

---

(١) البخاري - باب حمل الرجل المرأة في الغزو

(٢) الترمذي - باب ما جاء في خروج النساء في الغزو .

(٣) البخاري - باب غزو المرأة في البحر

(٤) البخاري - باب غزو النساء وقتلهن مع الرجال . ومسلم - باب النساء

الغازيات يرضخ لهن .

(٥) البخاري - باب مداواة النساء الجرحى في الغزو .

(٦) مسلم - باب غزوة النساء مع الرجال .

أم عطية مع رسول الله ﷺ سبع غزوات . وكانت تخلفهم في رحلهم ،  
وتصنع لهم الطعام وتداوي الجرحى وتقوم على المرضى (١) . وكتب ابن  
عباس رضي الله عنه إلى نجدة : قد كان رسول الله ﷺ يفرز بالنساء  
فيداوين الجرحى ، ويحذرن من الغنيمة . وأما بسهم فلم يضرب لهن (٢) .

ولك أن تقدّر من كل ما سبق ، أن الحجاب الاسلامي ليس بشيء  
من باب التقاليد الجاهلية ، التي لا يمكن قط أن يزداد فيها أو ينقص منها  
للمصالح والضرورات . بل الحجاب في الاسلام قد يخفف من حدوده  
إذا اقتضت الضرورات الحقيقية . وعند ذلك لا يجوز كشف الوجه  
واليدين فحسب ، بل يجوز كشف جانب من الاعضاء الممدودة في المورة  
أيضاً ، بقدر الضرورة . ولكن كلما زالت تلك الضرورات ، وجب أن  
يرد الحجاب إلى الحدود التي قررت له لعامة الاحوال . وكما أن هذا  
الحجاب لا يتسم بسمه الجاهلية ، كذلك ليس التخفيف منه أيضاً بمثابة  
الحرية والاباحية الجاهلية . وليست المرأة المسلمة كالمرأة الاوربية التي  
خرجت من حدود وظيفتها الطبيعية لضرورات الحرب ، ثم لما انتهت  
الحرب وزالت الضرورات ، أبت الرجوع إلى حدودها تلك .

---

(١) ابن ماجه - باب العيّد والنساء يشهدون مع المسلمين .

(٢) مسلم - باب النساء الغازيات يرضخ لهن .

## خاتمة القول

هذه هي نقطة القصد والموقف الوسط الذي شد ماتفتقر اليه الدنيا لرقبها وهنائها وصلاحها الخلقى . وهي - كما ذكرت في بدء هذا الكتاب - لا تزال تخبط خبط عشواء في تعيين منزلة المرأة - أي منزلة النصف الكامل من كيان العالم الانساني - في التمدن ، منذ آلاف من السنين . فتميل تارة إلى الإفراط وأخرى إلى التفريط . وقد أضرت بها هاتان النزعتان المتطرفتان ضرراً قد شهدت به التجارب والمشاهدات ، أما ما بين هذين الطرفين المتناقضين من الموقف الوسط المعتدل الذي يوافق الفطرة والعقل ، ويلائم المصالح الانسانية كل الملاءمة، فهو الذي قد جاء به الاسلام. ولكن المؤسف أنه قد قامت في هذا العصر الاخير حواجز بعضها من وراء بعض ، تحول دون فهم هذا الطريق المستقيم وتقديره حق قدره .

أهم هذه الحواجز أن الإنسان في عصرنا هذا قد ابتلي في بصيرته بداء كاليرقان . وأصيب المستغربون من أهل الشرق بنوع أخوف من هذا الداء، أسميه اليرقان الابيض. ومعدرة إلى الاخوان والاصدقاء لصراحتي هذه. ولكنها حقيقة لا تنكر، والحقيقة يجب ألا يمنع من إعلانها مداراة.

إن من الحق الواقع أنه لم يأت الاسلام بحكم أو مسألة تخالف الحقائق العلمية الثابتة . بل الأصح أن كل ما هو حقيقة علمية في هذه الدنيا ، هو عين الاسلام . ولكن هذا الواقع لا تبصره إلا عين مجردة ترى الأشياء بلونها الحقيقي ، لا بلون المنظار ، ولا تدركه إلا نظرة واسعة ترى كل <sup>2</sup> أمر من جميع نواحيه لا من ناحية واحدة ، ولا يقبله إلا قلب رحب وفطرة سليمة تسلم بالحقائق كما هي ، وبدل أن تجعلها تابعة لأهواء النفس ونوازعها ، تجعل أهواء النفس تابعة لها . وأمّا بدون هذه الصفات ، فلا يفيد حتى العلم والمعرفان منها زخر عبايته واستفاض . ذلك بأن العين الملوثة لن تبصر شيئاً إلا " بلون" المنظار الذي يغشاها ، وأن النظرة المحدودة لن تنفذ من المسائل والشؤون إلا " إلى النواحي التي تستقبل وجهتها . ثم إن الحقائق إن خلصت إلى باطن الانسان في صورتها الحقيقية ، على الرغم من تلك الموانع كلها ، فهناك ضيق الذرع واعوجاج الطبع يعمل فيها عمله ، ويكرها على أن تخضع لدواعي النفس ، وتطاوع ميولها وزغاتها . وإن هي لم تطاوعها ولم تخضع لها ، نبذها وراء ظهره ، مع علمه بأنها حقائق ، وراح يتبع هواء ومن البديهي أنه إذا ابتلي الانسان بهذا الداء العياء ، فلا يهديه شيء من العلم والتجربة والملاحظة سواء السبيل ، ومن غير الممكن أبداً لمثل هذا المريض أن يفهم حكماً من أحكام الاسلام فهماً صحيحاً . لأن الاسلام دين الفطرة . بل هو الفطرة بعينها . ولم يتعدّر فهم الاسلام على دنيا الغرب إلا بسبب إصابته

بهذا الداء . فكل ما عندها من ( العلم ) <sup>(١)</sup> هو برمته لإسلام . ولكن  
بصرها متلون . وإن تلون بصرها هذا قد تعدى الى المتعلمين الجدد  
من أهل الشرق ، فغشى على أبصارهم ، وأصابها باليرقان الأبيض . وعاد  
هذا الداء يمنع هؤلاء أيضاً من استنباط النتائج الصحيحة من الحقائق  
العلمية ، ومن النظر الى مسائل الحياة بالنظر الطبيعي المجرد . فالذين هم  
مسلمون منهم ، قد يكونون ، بلا ريب مؤمنين بالدين الاسلامي ، معتقدين  
بصدقه غير مستكفين عن اتباعه . ولكن أنى لهؤلاء المساكين أن  
يُجنبوا عيونهم أثر هذا اليرقان الذي لا ينظرون به الى شيء ، إلا وهو  
يظهر لهم على غير حقيقته ، وفي صبغة غير صبغة الطبيعية .

والحاجز الثاني دون الفهم الصحيح ، هو أن الناس إذ فكروا عامةً  
في مسألة من مسائل الاسلام لا ينظرون الى النظام الذي تعلّق به  
بمجموعاً ، بل هم يتناولون ذلك الجزء بعينه منفصلاً عن النظام . ويكون  
من نتيجة ذلك أن ذلك الجزء يبدو لهم خالياً من كل حكمة ومصلحة ،  
وتخامر أنفسهم في بابه أنواع الشكوك . هكذا كان صنيعهم في مسألة  
الربا ، إذ نظروا إليها منفصلةً عن مبادئ الاقتصاد ونظام المعاش الذي  
جاء به دين الفطرة - الاسلام . فبدا لهم فيها كثير من المطاعن والمنازم . وعاد  
حتى أكابر أهل العلم يستشعرون بضرورة ترميمها وتغييرها على رغم أنف  
مقاصد الشرع . ثم أعيد هذا الخطأ الاساسي في مسألة الرق وتعدد

---

(١) المراد بهذا العلم هو علم الحقيقة لا النتائج المستخرجة من النظريات والحقائق.

الزوجات وحقوق الزوجين ، وما شابهها من المسائل . وهذا الخطأ عينه قد تناول مسألة الحجاب أيضاً بفساده . وانك إن حبست نظرك على عمود واحد من بناء ما بدل أن تنظر الى البناء بكامله ، كنت لاريب حرياً بأن تعجب من أمره وتتساءل عن السبب لاقامة ذلك العمود بعينه ، وترى وجوده هناك خالياً من كل مصلحة ، ولا تفتن للمناسبة والتقدير الذي قد قدره المهندس في نصبه هناك لحمل البناء ، ولا للضرر الذي يلحق البناء كله إذا هدم ذاك العمود الواحد . فمثل هذا العمود هو الحجاب فإنه إذا فصل عن النظام الاجتماعي الذي هو منصوب فيه نصب عمود في البناء ، مراعاة لضرورة بعينها ومناسبة معلومة ، عميت على العيون جميع مصالحه ، ولم يستطع أحد أن يفهم السبب في ضرب الحدود الفاصلة بين الجنسين من النوع الانساني الواحد . لذلك من المحتوم اللازم لتفهم المرء منفعة العمود ومصلحته أن يصعد النظر إلى كامل البناء الذي هو منصوب فيه .

وها قد مر بك في الصفحات الماضية حجاب الاسلام الحقيقي . ومر بك أيضاً ذلك النظام الاجتماعي الذي وضعت لأجله قواعد هذا الحجاب . ووقفت على جميع أركان هذا النظام ، التي قد ربط بها ركن الحجاب بإتزان مرعيٍّ ، ثم طالعت تلك الحقائق العلمية الثابتة التي قد بني عليها هذا النظام الاجتماعي الكامل . فتأمل هذه كلها ، ثم قل لي : اين ترى فيها من فطور ؟ واين تجد فيها أثراً لانحراف عن القصد او عدول ؟ وأي

موضع فيها يمكن أن يقترح له اصلاح من جهة العلم والمقل المجرّد دع عنك  
 ميول طائفة من الناس مخصوصة. إنّي أقول على وجه البصيرة إن المدل الذي  
 تقوم عليه السماوات والارض ، والاستواء والاعتدال الذي يمتاز به  
 نظام هذا الكون ، والتناسب والازان التام الذي تراه في تركيب الذرة  
 ووثاقة النظام الشمسي ، هو هو الذي يقوم عليه هذا النظام الاجتماعي  
 وأمّا ما يشين الاعمال الإنسانية من الإفراط والتفريط والميلان إلى  
 جانب دون آخر ، فيخلو منه هذا النظام ويترأ منه . وليس في طاقة  
 الانسان أن يعالجه بإصلاح أو ترميم . ولو أنه غير فيه أدنى تغيير  
 بإقحام عقله الناقص فيه ، فلن يصلحه ، بل هو أخرى بأن يُخلّ  
 بتناسبه ويُفسده !

ويا لهف نفسي لا أملك من الوسائل ما أبلّغ به دعوتي لإخواني  
 الانسانيين في أوربة وأميركا والشرق الاقصى ، فإنهم لا يزالون  
 يُفسدون معيشتهم ، لا لسبب سوى كونهم لم يهتدوا بعد إلى نظام صحيح  
 معتدل للتمدن ، وقد جرّوا إلى الخراب أمّا أخرى أيضاً معهم . وليتي  
 أمتطيع أن أدلهم على ماء الحياة الذي هم إليه ظهء ، وإن كانوا لا يشعرون  
 بظلمتهم . على أن مواطني من الهنادك والنصارى والمجوس ، على كثب  
 مني ، ومظلمهم يفهمون لفتي . فها أنا ذا أدعوم إلى أن يطهروا قلوبهم مما  
 ران عليها من التعصب على الاسلام ، بسبب نزاعهم التاريخي والسياسي  
 مع المسلمين ، وبطالوا هذا النظام الاجتماعي الاسلامي الذي قد ذكرت



خصائصه كما هي ، في هذا الكتاب ، طالبين للحق ملتزمين لماله ، ثم يوازنوا بينه وبين النظام الاجتماعي الغربي الذي هم ساعون إليه مفتنون به . فيحكموا لأجل رضائي أو رضى غيري ، بل لأجل مصلحتهم هم أنفسهم : أي الطريقين بضمن لهم الفلاح الحقيقي ؟

وبعد خطابي هذا لعامة القراء ، أريد أن التفت إلى اخواني الضالين الذين يدعون ( مسلمين ) ، لأقول لهم بضع كلمات :

إن من إخواننا المسلمين الجدد من يسلمون بكل ما مضى يئانه في هذا الكتاب ولكنهم يقولون : إن قوانين الاسلام إذا كانت تتسع لكثير من الشدة والتخفيف وفقاً لأوضاع العصر ، مما لا تشكره أنت أيضاً ، فالذي تتوخاه - أبناء هذا العصر - هو أن تتمتع بالرخصة في تلك القوانين . وذلك أن حوال هذا العصر تقتضي أن يخفف من حدود الحجاب . والحاجة ماسة إلى أن تخرج البنات المسلمات إلى المدارس والكلليات ، ليتلقين تعليماً عالياً ويتحلين بتربية تؤهلن لفهم مسائل الوطن في فواحي التمدن والاجتماع والسياسة والاقتصاد ، وترشحن لفض مشاكلها وحل معضلاتها . وبدون ذلك لا بد أن يتخلف المسلمون عن الامم المجاورة لهم ، في ركب الحياة . ويخشى أن يخسروا بذلك في آتي أيامهم أكثر مما قد خسروه إلى الآن . ثم إن الحقوق السياسية التي قد قضوا أخيراً باعطائها للمرأة في بلادنا ، إن لم تتأهل نساؤنا للمسلمات للتمتع بها ، أو لم يمكنهن التمتع بها بقيود الحجاب وأغلاله ، شالت كفة

المسلمين في ميزان اسيااسة الوطنية ، وكفى به من خسران ! وها بين  
يديك مثل الامم الراقية في العالم الاسلامي ، كتركيا ويران ، فكلتاهما قد  
خفتت (١) من حدود الحجاب الاسلامي مراعاة لأوضاع هذا المصر ،  
فعاد ذلك عليها بفوائد لا تنكر ، في بضع سنين وأي ضرر علينا لو تمثل  
في ذلك أمثالهم ، فنجني من فوائده مثل مانالهم ؟

كل هذه المخاوف والاحطار التي يحذرنا إياها إخواننا ،  
نحن نسلم بها جميعاً كما هي ، بل أضف اليها عشرة أضعاف أمثالها  
إن شئت . ولكن أى غناء يغنيه ذلك ؟ وهل شيء من تلك  
المخاوف مما يجوز لأجله أن يتناول القانون الاسلامي بترميم أو تخفيف ؟  
إنما مثلهم ازاء تلك الأخطار كمثل رجل يعيش في وسط نجس وخيم ،  
إمراضياً ، لحاقته ، أو كارهأ ، لضعفه . فيتمذر عليه العمل بقواعد حفظ  
الصحة ، بل يتعسر عليه العيش بدون أن يتلوث بالقدر في تلك الكورة  
من أهل النجس . فواضح أن الرجل في مثل تلك الحال لا يحق له أن  
يطالب بإصلاح قواعد الصحة أو التخفيف منها . لأنه إن كان مؤمناً  
بصحة تلك القواعد فمليه أن يحارب بيئته لأجلها ويطهرها من نجسها . وإن  
كان لا يجد في نفسه القوة والجراءة لمحاربة بيئته ، وكان لضعفه قد انهزم  
في وجهها ، فليبق فيها ما يشاء ، مرتظماً في حماها ، وما المبرر لأن تبدل

---

(١) نعم يقولون (قد خفت) على سبيل الجدول لا غير ، وإنما الحق ان كلا  
منها قد نسخت آية الحجاب نسخاً .

لأجله قوانين الصحة ، أو يخفف منها؟ وأما إن كان يعتقد حقاً أن قوانين الصحة المعروفة خاطئة وكان قد ألف بنفسه ماحوله من النجس والدنس، فهو حر في أن يخترع لنفسه ما يشاء من قانون، ويدع قوانين الصحة والصفاء والطهارة جانباً ، لأنها ما كانت لتتسع لأهواء المائلين بطبيعتهم إلى القاذورات !

ولاشك أن القانون الاسلامي - كسائر القوانين - يتسع لكل من الشدة والتخفيف باعتبار الأحوال والاضاع ولكنه كجميع تلك القوانين ، يصر على أن ينظر إلى تلك الاحوال بوجهة نظره وبروحه الخاصة لأجل القضاء بتشديد فيه أو تخفيف وأما النظر إلى الاوضاع والاحوال بوجهة غير وجهته ، ثم العمد إلى بنود القانون بالقطع والبر ب قصد التخفيف منها ، فما هو تخفيف ، بل هو تحريف واضح صريح . ذلك أن الاوضاع التي ينظر إليها القوم بغير وجهة نظر الاسلام ، ثم يطالبون بأن يخفف لأجلها من القانون الاسلامي ، إن تأملها عاقل من وجهة نظر الاسلام ، فلا بد أن يحكم بأنها لا تتطلب تخفيفاً في القانون، بل مزيداً من الشدة فيه . فإن القوانين لا يخفف منها إلا إذا كانت مقاصدها لا تزال تتحقق بسهولة بالوسائل الخارجية الأخرى، ولم تكن هناك حاجة إلى زيادة الشدة في التحفظات. وأما إذا كانت مقاصد القانون لا تتحقق بالوسائل الخارجية ، بل كانت جميع القوى الخارجية قد تألّبت عليها لتضييعها . وكان حصول تلك المقاصد قد عاد متوقفاً على التحفظات

وحدها، فلا يقول بالتخفيف من القانون في مثل هذه الظروف إلا من  
جبل روحه كل الجبل .

وقد فصلنا القول فيما سبق من الابواب أن مقصد القانون الاجتماعي  
الاسلامي هو حفظ ضابط الزواج، ومنع الفوضى الجنسية، وسد المحركات  
الشهوانية غير المتدلة، ولتحقيق هذا المقصد قد اتخذ الشارع تدابير ثلاثة:  
أولها إصلاح الاخلاق، والثاني: الحدود والعقوبات، والثالث: التدابير الوقائية.  
وكان هذه التدابير أركان ثلاثة قد رفع عليها هذا البناء . وعلى إحكامها  
وقوتها يتوقف إحكامه . وفي هدمها هدم البناء كله . فتعالوا الآن ننظر  
في أحوال بلادنا الحاضرة ، انرى ماذا عليه هذه الاركان الثلاثة من  
القوة والإحكام .

خذوا قبل كل شيء ما حولكم من البيئة والوسط الخلقى . إنكم  
تعيشون في قطر لا يزال ثلاثة أرباع سكانه غير مسلمين ، لتقصيركم أنفسكم  
في جنبهم في الغابر والحاضر ، تحكمه أمة غير مسلمة <sup>(١)</sup> ، ثم قد طبقت  
حضارة أجنبية كالريح العاصفة ، وانتشرت في أجوائه مبادئ الاخلاق  
الجاهلية ، وتصورات الحضارة غير الاسلامية ، كانتشار جرائم الأوبئة  
حتى تسمم بها الفضاء ، فأحاطت بك سميتها من كل جانب . وقد آلت

---

(١) كتب هذا الكتاب في زمان كان شبه القارة الهندية فيه قطراً واحداً تحت  
حكم الانكليز . والآن وإن جلا الانكليز عن هذه البلاد ، وعاد عدد غير المسلمين  
في باكستان لا يزيد على ١٠٪ من سكانها . إلا أن الحال قد اهتبت تحت حكم المسلمين  
المستقرين من سيء إلى أسوأ .

الحال إلى أن مظاهر الخلاعة والفحش التي كانت تقشعر من تصورهما جلودكم قبل مدة من السنين ، قد بلغ من إيلافكم لها أن صرتم تنظرون إليها كالأعمال العادية . حتى إن صفاركم يرون كل يوم على الصور الخليعة في الجرائد والمجلات والإعلانات ، فيتعودون التبذل والمجون . وإن شيوخكم وشبيبتكم وصبيانكم يتفرجون كلهم على الأفلام السينائية التي أجذب ما فيها المري وأروع ما فيها الخلاعة والحب الشهوان ، ولا يتأثمون ! وإن أفراد عائلاتكم بين آباء وأبناء وأمهات وبنات وإخوان وأخوات ، يشاهدون كلهم في تلك الأفلام مناظر الخاطلة والعناق والتقبيل ، جالسين بعضهم إلى جنب بعض ، ولا يستحيون ! ثم لاتزال أخصب أنواع الاغاني وأدعائها إلى الشهوات تملأ الجو في البيت والشارع والمتنزهات ، ولا يكاد أحد يسلم منها بمسميه . هذا والآنسات والسيدات من الطبقات المثقفة العليا — الأهلية والأجنبية — يتبخرن في الماشي والطرق بلباس عريان شفاف . وقد بلغ من تعود الانظار لتلك الأزياء الفاضحة أن لا يشعر أحد منا بشيء من الوقاحة والخلاعة فيها . وإن التصورات الخلقية التي لاتزال تنتشر في البلاد بفعل نظام التعليم والترية الغربي ، قد جمعت الشكاح في أعين الناس عرفاً بالياً قد مضى زمانه ، والزنى لهواً وشغلاً ، واختلاط الأثائي والد كور شيئاً لا مطعن فيه ، بل أمراً مستحسنأ ، والطلاق المعبية ، والواجبات الزوجية قيداً مستقلاً ، والتوالد والتناسل حقاً وسفاهة ، وإطاعة المرأة لزوجها ذلاً وعبودية . مما كره إلى المرأة أن تكون حليلة زوج ، وحبب إليها أن تظل خلية عشاق !

ثم انظروا الى آثار هذه البيئة الموبوءة في أمتكم. فهل يرى في مجتمعكم من يفضّ بصره عما لا يحل؟ وهل في آلاف من أناسكم رجل واحد يتأثم من التلذذ برؤية جمال الأجنبية؟ وهل الزنى بالعين واللسان لا يُرتكب علناً؟ وهل نساؤكم أيضاً يتجسّسن تبرج الجاهلية وإظهار الزينة وإبداء مفاتيح الجمال؟ وهل لا تلبس أزواجكم وبناتكم اليوم نفس اللباس الذي قال النبي ﷺ في لباسته: «نساء كاسيات عاريات مميلات مائلات»؟ ثم أستم ترون أخواتكم وبناتكم وأمهاتكم في لباس لا يجوز للمسلمة أن تلبسه إلا لزوجها وحده؟ وهل لا تحكى وتسمع في مجتمعكم قصص الحب والغرام وأحاديث الخلعة والمجون، بدون تحرج ولا حذر؟ وهل يتردد الناس في نواديكم عن ذكر أحوال فجورهم؟ وإذا كان جواب كل ذلك كلمة ولا، مكبرة مفخمة وكانت الحال على ما هي عليه، فقل لي بحقك أين تجد ذلك الركن الاساسي الامتن — تطهير الاخلاق — الذي بني عليه صرح الاجتماع الاسلامي؟ إنما الغيرة الاسلامية قد امحت من النفوس الى حد أن قد أصبحت النساء المسلمات يبعث بأعراضهن لا المسلمون وحدهم، بل الاجانب من غير المسلمين ايضاً. وليس ذلك واقعاً في حكومة أجنبية، بل هو واقع على رؤوس الاشهاد في الولايات الهندية المسلمة. وكل ذلك يمر عليه المسلمون ولا يتحرك في قلوبهم ساكن. بل قد وجد فيهم من بلغوا من النذالة أن أخواتهم أنفسهن تمتع باجسامهن أحد على غير المسلمين. فتبجحوا بذلك وأعلنوا بكل فخر أنهم أصهار

كافر فلا في كبير (١) وهل بقي بعد ذلك درجة من الوقاحة والصفافة والابتذال الخلقي يهبط اليها المسلمون ؟

ولنتوجه بعد ذلك الى الركن الثاني لهذا البناء ، ونستفقد حاله . قد بطل في هذا القطر قانون العقوبات الاسلامي بأكمله . فلا تجرى حدود الزنى والقذف ، لافي الهند البريطانية ولا في الولايات المسلمة . وليس هذا فقط . بل القانون النافذ في القطر الهندي في هذه الآونة لا يمد الزنى جريمة أصلاً (٢) فإن أراد بعض الفساق أن يراود آنسة كريمة عن نفسها ويحملها على الدعارة والفجور ، فليس بأيديكم من وسائل القانون ما تصونون به كرامتها . وإن سافح رجل امرأة بالغاً بغير حق ، عن رضاها وموافقتها ، فلا يمكنكم أن تماقبوه عليه في أي قانون من القوانين . ثم إن عزمت امرأة على البغاء علناً ، فليس عندكم من القوة ما تأخذون به على يديها . أما القانون فلا يمد الا الزنى بالاكرام جريمة . ولكن سبل المتعاطين لحرفة القانون : أي صعوبة يواجهونها في إثبات الاكرام في الزنى من الجهة القانونية . وكذلك إغواء المرأة المتزوجة أيضاً جريمة . ولكن سبل العالمين بالقانون الانكليزي ماذا يكون بأيدي الحاكم العاملة بهذا القانون لو أن متزوجة تتسلل بنفسها وبرضاها إلى بيت رجل أجنبي .

(١) هذا مما وقع في جنوبي الهند . وقد ذكر لي بعض الاصدقاء ما هو أدنى من ذلك وأمر . وهو أن امرأة مسلمة - بالاسم - في شرقي الهند خادنت ثرياً من غير المسلمين علناً . فأصابت بفضل علاقتها الآثمة به ثروة طائلة . فقال الصديق ، إنه كثيراً ما رأى المسلمين - الجرافيين - في تلك النواحي يقتبطون بانتقال مثل تلك الثروة العظيمة من يد غير مسلم إلى (المسلمين) ، وأنا لله وأنا إليه راجعون !

(٢) ولا تزال عليه الحال حتى بعد تأسيس دولة باكستان المسلمة .

هذه حالة نظامكم الاجتماعي . قد انهدم من أركانه هذان الركنان  
القويان ، فهو قائم على الركن الثالث وحده . فهل تشاؤون أن تهدموا  
هذا الركن الباقي أيضاً ؟ إن بجانب منكم تلك المضار التي قد عديموها  
آتفاً للحجاب ، وبجانب ، آخر أن إلغاء الحجاب معناه جر الخراب الكامل  
الشامل على الاخلاق وعلى النظام الاجتماعي . فلكم أن توازنوا بين هذا  
وذاك . إنها لاشك بليتان . ولا بد من اختيار إحداها فاستفتوا قلوبكم  
أي هاتين البليتين أهون شراً وأخف ضرراً ؟

ولئن كان الفصل في الامر موقوفاً على أوضاع هذا العصر ، فأقول  
إن أوضاع بلادنا لا تتطلب تخفيفاً في الحجاب ، بل هي تتطلب مزيداً من  
العناية بأمره . ذلك بأنه قد انهدم ركنان من الأركان التي يقوم  
عليها نظامكم الاجتماعي ، ولم يبق إلا ركن ثالث ، عليه كل المعول والمتمد .  
فإن كنتم تريدون حل مسائل التمدن والاقتصاد والسياسة ، فلكم أن  
تدبروها وتباحثوا فيها مجتمعين : لعلكم تهتدون إلى صور متبادلة لحلولها  
في حدود التعاليم الإسلامية . ولكن لا تهيجفوا لأجل ذلك من قوة هذا  
الركن الاساسي الوحيد الذي قد بقي على غير الحدثن . وناله ضعف كثير .  
وعليكم ، قبل أن تعالجوه بالتخفيف ، أن تجمعوا من القوة والسلطة ما  
يطأ هامة كل شر ناجم . حتى إن كان في المجتمع عينان تحملقان  
إلى امرأة قد خرجت من بيتها سافرة ، كانت فيه في الوقت نفسه شعبون  
يبدأ ، تمتد اليها لتقتلها من محجرهما !!



# الفهرس

المقدمة ٣

ماهي المسألة ٨

أليونان (١٢) الرومان (١٧) أوربة المسيحية (٢٠) أوربة الجديدة (٢٤) تقصير الفكر الانساني (٣٣)

٣٧ موقف المسلم في العصر الجديد

السياق التاريخي (٣٨) العبودية الفكرية (٣٩) نشوء مسألة الحجاب (٤١) المحركات الحقيقية (٤٢) الخداج الأكبر (٤٤) غابتنا في هذا الكتاب (٤٧).

٤٩ النظريات

تصور الحرية في القرن الثامن عشر (٥٠) تغيرات الأحوال في القرن التاسع عشر (٥٢) مظاهر الارتقاء في القرن العشرين (٥٩) أدب الحركة المالاوسية الجديدة (٦٢).

٦٧ النتائج

الثورة الصناعية وآثارها (٨١) أثره الرأسماليين (٦٩) النظام السياسي الديمقراطي (٧٢) الحقائق والشواهد (٧٤) خدر الشعور الخلق (٧٥) كثرة الفواحش (٨٠) طوفان الوقاحة

وجموح الشهوات ( ٨٢ ) أعراض الهلاك القومي الشامل ( ٨٩ )  
اضمحلال القوى الجسدية ( ٩١ ) فساد النظام المائلي ( ٩٢ ) وأد  
النسل ( ٩٥ ) .

#### ١٠٠ مزير من الاصلنة

تأثير البيئة المهيبة في الاطفال ( ١٠٠ ) مرحلة التعليم ( ١٠٢ )  
ثلاثة محركات شديدة ( ١٠٤ ) كثرة الفواشش ( ١٠٦ )  
الأمراض السرية الفتاكة ( ١٠٨ ) الطلاق والتفريق ( ١٠٩ )  
الانتحار القومي ( ١١٢ ) الحالة في انكلترا ( ١١٤ ) .

#### ١١٨ السؤال الفصل

المستغربون من أهل الشرق ( ١١٩ ) الأدب الجديد ( ١٢١ )  
التمدن الجديد ( ١٢٨ ) فصل الخطاب مع المستغربين ( ١٣٠ )  
الطائفة الثانية ( ١٣٢ ) السؤال الفصل ( ١٣٤ ) .

#### ١٣٧ قوانين الفطرة

تأثير الجاذبية الجنسية في انشاء التمدن ( ١٣٩ ) المسألة  
الاساسية للتمدن ( ١٤٢ ) .

#### ١٤٤ لوازم التربية الصالحة

١٤٤

١ - تعديل الميلان الجنسي

١٤٩

٢ - تشكيل الأسرة

- ١٥٧ ٣ - سد باب الاباحية الجنسية  
١٧٤ ٤ - التدابير اللازمة لمنع الفواحش  
١٨٠ ٥ - الوجه الصحيح للملاقة بين الزوجين

١٨٥ شهادة علم الارباء

١٩٩ مظاهر التقصير الانساني

السبب الحقيقي لهذا التقصير ( ٢٠٠ ) بضعة أمثلة ( ٢٠٠ ) ميزة  
الاعتدال في قانون الاسلام ( ٢١١ ) .

٢١٣ نظام الاجتماع الاسلامي

— النظريات الاساسية  
( ٢١٥ )

المفهوم الاساسي للزوجية ( ٢١٥ ) الفطرة الحيوانية في الانسان  
ومقتضياتها ( ٢٢٠ ) الفطرة الانسانية ومقتضياتها ( ٢٢٢ ) .

— الاصول والاركان  
( ٢٢٨ )

المحرمات ( ٢٢٨ ) تحريم الزنا ( ٢٢٩ ) النكاح ( ٢٢٩ ) تنظيم  
الاسرة ( ٢٣٢ ) قوامية الرجل ( ٢٣٢ ) دائرة عمل المرأة  
( ٢٣٤ ) القيود اللازمة ( ٢٣٧ ) حقوق المرأة ( ٢٣٩ )  
الحقوق الاقتصادية ( ٢٤١ ) الحقوق التمدنية ( ٢٤٢ ) تعليم  
المرأة ( ٢٤٣ ) تحرير المرأة بالمعنى الصحيح ( ٢٤٤ ) .

— التحفظات  
( ٢٥٢ )

اصلاح الباطن  
٢٥٤

الحياء ( ٢٥٥ ) خائفة القلوب ( ٢٥٧ ) فتنة النظر ( ٢٥٨ )  
فتنة اللسان ( ٢٥٩ ) فتنة الصوت ( ٢٦١ ) فتنة الطيب ( ٢٦١ )  
فتنة المري ( ٢٦٢ ) .

٢٦٣

قانون العقوبات

حد الزنى ( ٢٦٤ ) حد القذف ( ٢٦٨ ) .

٢٦٨

التدابير الوقائية

أحكام اللباس وستر العورات ( ٢٦٩ ) حدود العورة للرجال  
( ٢٧١ ) حدود العورة للنساء ( ٢٧٢ ) الاستئذان ( ٢٧٤ )  
منع الخلوة والممس ( ٢٧٦ ) الفرق بين محارم المرأة وغيرهم ( ٢٧٨ )

٢٨٠ أعظم المحجبات

غض البصر ( ٢٨٢ ) منع ابداء الزينة وحدودها ( ٢٨٩ )  
حكم الوجه ( ٣٠٠ ) النقاب ( ٣٠٣ ) .

٣١٢ أعظم مخرج المرأة من البيت

الرخصة في خروج النساء لحوائجهن ( ٣١٤ ) الإذن في حضور  
المساجد وحدوده ( ٣١٥ ) شروط حضور المساجد ( ٣١٨ )  
النساء في الحج ( ٣٢١ ) خروج النساء للجمعة والميدين ( ٣٢١ )  
زيارة القبور واتباع الجنائز ( ٣٢٢ ) شهود النساء للحرب ( ٣٢٥ )

٣٢٨ فائمة القول